مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١ مكتبة الأسرة

الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر

تأليف: و. مونتجمرى وات

ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

عمال الفكرية





الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: **مساجد وكنائس**

التقنية: **حبر شينى وألوان مائية**

المقاس: **٢٥ × ٣٥ سم**

ناجى كامل

فنان تشكيلى مصرى، أجاد التصوير والنحت، وعمل فى الصحافة منذ بداياته الفنية، فاشتغل فى مجلتى روزاليوسف وصباح الخير، اشتهرت رسومه بالجنوح نحو الكتل الفنية المتماسكة، والتى تشبه إلى حد كبير الزخارف المصرية القديمة، وقد مارس فن الكاريكاتير، وانتقل من مؤسسة روزاليوسف إلى جريدة الأهرام، وقد تخصص وفى الكاريكاتير الاجتماعى، إلى جانب الإسكتبشات التى تلخص ملامح البيئة المصرية فى رقة متناهية.

محمود الهندى

الإسلام والمسيحية

في العالم المعاصر

تأليف : و. مونتجمرى وات

ترجمة : د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر

تأليف : و. مونتجمرى وات

ترجمة: د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

مقـــدمة المترجم

ظل مونتجمرى وات يدرس الاسلام والأديان الأخـرى لأكثر من ثلاثين عاما دراسة متواصلة منـذ سـنة ١٩٣٧ ، وتبحر فى اللغة العربية ليتمكن من الرجوع للمصادر الأصلية وليتعامل مباشرة مع القـرآن الـكريم وأحاديث الرسول ، وكتب الفقه على المذاهب المختلفة، بل وكتب علم الكلام ٠ الخ، وفى سنة ١٩٤٧ عمل فى الأسقفية الانجليكانية فى القدس، فتيسر له زيارة بعض البلاد العربية فاحتك بما أسماه فى كتابه قلب العالم الاسلامى endosoma ، والتقى وات بعدد كبير من مسـلمى الهنـد وباكسـتان وزار بعض الدول الأفريقية ، ويختلف هذا الكتاب عن كتب (وات) الأخرى، من حيث كونه يمثل خلاصة دراساته كلها ، كما يشتمل على تأملاته الشخصية ، وكان من الممكن ببساطة أن نجعل عنوانا لهذا الكتاب (مستقبل الاسلام) أو (العـلاقة بين الاسـلام والمسيحية) أو (هل تتوحد المسيحية والاسـلام يوما ؟) أو (تكامل الأديان) أو (مستقبل العلاقة بين الأديان) ٠٠ الخ على أن أهم جانب ــ فيما أرى ــ من جوانب التناول فى هـذا الكتاب هو التركيز على تطور الأفكار أو تاريخ الأفكار ، وما ينبثق عنهـا من مواقف عمليـة ، وما ينتج عنهـا من توجهات سياسية واقتصادية واجتماعية ، بينما تكون الفكرة

الكامنة وراء هذه التوجهات مختفية الى حد ما ، أو كامنة فى (اللاشعور الجمعى) فمونتجمرى وات فى كتابه هذا لا يعرض الأفكار عرضا أكاديميا جافا ، وانما هو يتناول الأفكار من منظور عملى ، فعندما تعرض لقضية أو فتنة أو محنة (خلق القرآن) فى العصر العباسى الأول لم يغرق ويغرقنا معه فى مناقشات فلسفية أو لاهوتية أو فقهية عقيمة. وانما هو تعرض ببساطة لنتائج الفكرة وانتهى الى أن فكرة خلق القرآن فكرة مضرة بالمجتمع الاسلامى وأنه ليس أفضل من أن القرآن هو (كلام الله) ٠

وقد وجه (وات) كتابه هذا للقارىء الأوربى ، من هنا وجب على القارىء العربى أن يضع ذلك فى اعتباره ، واستشهد المؤلف كثيرا بالآيات القرآنية كما استشهد أيضا بنصوص من العهدين القديم والجديد ، فنقلناها جميعا من المطبوع الصادر عن دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، ورجعنا أحيانا الى مطبوع كتاب الحياة ــ عربى ــ انجليزى وهو يضم الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل ٠ ولم أشأ أن **أثقل هذه الترجمة بكثرة التعليقات والاحتجاجات والبراهين والبراهين المضادة ٠٠ الخ فهذا الكتاب رؤية موضوعية لرجل أظنه متزنا محايدا ، ولعل أهم فائدة نرجوها من هذا الكتاب أن يعلم القارىء العربى أو المسلم أنه ليس كل الغرب معاديا للاسلام ، وليس كل المستشرقين يستحقون الحرق أو الضرب بالنعال ، وليس مطلوبا ــ ولا مرغوبا ــ من القارىء العربى اذا ما بدأ القراءة عن الاسلام أو الحضارة الغربية لكاتب غربى ، أن يقف ــ منذ البداية ــ مترصدا متنمرا باحثا عن المزالق فان لم يجدها افتعلها ٠**

وانما لابد من القراءة المتأنية المحايدة فما لا يؤخذ كله لا يترك كله ، ودعنى أذكر المثل العربى القائل (عند الكذاب صدق كثير) مع أننى على يقين أن (وات) ليس كذابا ٠

التداعيات الدينية للتطور العلمى :

يرى (وات) أن التطور العلمى سيعمل ـ بالتأكيد ـ على التقريب بين الأديان ، وسيوجد أرضية مشتركة ستتسع تدريجيا حتى تشمل العالم كله ، فهو يركز فى الفصل الأخير (العاشر) من كتابه على أن استشراء فكرة العنصرية ، أو الايمان بأن هناك عناصر أكثر رقيا من أخرى موجودة فى صميم بعض الأديان ، وأن هذه الفكرة (الكامنة) تكمن وراء الاضطرابات العنصرية فى بلاد مسيحية بارزة ، وهو يرى أن سيطرة هذه الفكرة لابد أن يكون لها جذور دينية (فى العهد القديم مثلا) ، ومن ناحية أخرى فهو يؤكد أن فكرة (الاخوة) ساعدت المسلمين كثيرا فى نشر دينهم الذى يؤكد (وات) أن بامكانه أن يستوعب معظم (القيم) (والأفكار) الموجودة فى المسيحية واليهودية ٠٠ والمدهش أن (وات) يؤكد فى كتابه هذا أن الخلافات بين المسيحية والاسلام معظمها لغوى أو اساءة لفهم طبيعة (المجاز) فى الكتابات الدينية ، ونفهم من كتابه هذا أنه يقبل كل ما فى العقيدة الاسلامية ٠ نعم (كل) بمعناها الدقيق ، ونقصد بالعقيدة الجانب الذى اصطلح الكتاب على تسميته اللاهوت عند حديثهم عن المسيحية ، فهو موقن تماما أن القرآن وحى تماما كالتوراة والانجيل ، وهو لا يستبعد أن شيئا قليلا أو

كثيرا من التحريف لحق ببعض الكتب السماوية نتيجة تطاول العهد وبعد الشقة الزمنية ، كمــا لا يســتبعد أن اضافات اجتهادية وتفسيرية لحقت بالدين الاسلامى لم يكن لها وجود فى الأصول الأولى من قرآن وحديث ٠

وسيجد أصحاب الديانات بمرور الوقت أرضية أوســع مشتركة بينهم بفضل التطور العلمى ، ولعله يمكننا القــول استطرادا أن تطور علوم البيولوجيا (الأحياء) والهندســة الوراثية ، قد جعلنا تجزم ــ بما لا يدع مجالا للشك ــ أنه يمكن أن يكون الكائن الحى أو الانسان بدون (أب) كمــا هو أسلوب التكاثر الطبيعى المعروف ، ومع هــذا لا يكــون ناتج علاقة محرمة (٠٠٠ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما) آية ١٥٩ / النساء ٠ كما أنه ليس من الضرورى أن يكون هذا البشر المولود ذا طبيعة غــير بشرية ٠٠ ستوســع نتيجة التطــور العلمى ــ اذن ــ من الأرضــية المشتركة بين الأديان ٠

ومع أن تطور وسائل الاتصال عند تأليف (وات) لكتابه فى الستينات من هذا القرن لم تكن قد بلغت ما بلغته الآن ، الا أن (وات) قد عول عليها كثيرا فى التقارب بين الأديان ، فسهولة الانتقال والحركة السياحية ، وما حدث بعــد ذلك : شبكات الانترنت ، وتطــورات الحــاسب الآلى ، والأقمــار الصناعية ٠٠٠ الخ ستجعل من السهل معرفة معلومات غــير مغلوطة عن الأديان الأخرى ، مما يقربها جميعا ، وســيأتى وقت يكتشــف فيــه أصحاب الديانات الســماوية أن القيمة الأساسية فى أديانهم واحدة ، وأن جزءا كبيرا من الخلافات اللاهوتية أساسه عدم دقة اللغة ــ أى لغة ــ فى التعبير عن

الغيبيات ، أو لعدم فهم الدلالات الدياجرامية للعبارات وأقرب تعبير للمعنى المقصود فيما نرى هو عدم فهم طبيعة المجاز (من تشبيه واستعارات وكنايات ورموز المقصود منها تقريب المعانى للبشر أو التلطف معهم فى تبسيط المعانى) ٠

عقبة أساسية ستقف فى وجه تقارب الأديان وهى احساس المؤسسات الدينية بأن دورها سيقل ، وأهميتها ستتلاشى تدريجيا ، ومن ثم فقد تعمل على تعميق الخلاف أو اثارة قضايا لاهوتية يصعب الوصول بشأنها لحقيقة واضحة ، وستركز على التنبؤات ، وعلى التفسير الغيبى للنصوص الدينية ، والاغراق الباطنى واصدار التوقعات ، واستحضار الأرواح ، ونقل الأخبار من مصادر غيبية ٠٠ الى آخره ، بل سيعمد بعض هذه المؤسسات الى النقل مباشرة حتى عن الله سبحانه ٠٠ وفى ظل تطور وسائل الاتصال واتساع دائرة المشترك بين الأديان ، لن يعود من السهل تصديق كل ما يقال عن الأديان الأخرى ، فدفاع أى دين عن فكره ولاهوته يقتضى ــ بالضرورة ــ فيما يقول (وات) المبالغة ، وتحريف أفكار الأديان الأخرى ٠

التوحيد الخالص وتداعيات الفكرة :

عندما ثار الخلاف المعروف بفتنة خلق القرآن والذى انتهى فى عهد المتوكل ، والذى يتساءل (وات) مندهشا : لا نعرف من الذى أثار هذه الفكرة ولا متى على وجه التحديد ؟! ــ لم تكن المسألة مجرد خلاف (أكاديمى) أو (فقهى) أو حتى (دينى) ، وانما كان للفكرة تداعيات سياسية واجتماعية واقتصادية (كامنة) فيها ٠٠ من المستبعد تماما أن تكون عقلية عربية كامنة خلف هذا السؤال : هل

القرآن مخلوق أم غير مخلوق ؟ وانما هى صياغات لمن ألفوا الجدل الفلسفى ، أو طال بهم العهد فى حضن مناقشات من هذا القبيل ٠

ويهمنا فى هـذا الصـدد أن نشـير الى تداعيات الأفكار فمعنى أن القرآن (مخلوق) أنه سيأتى عليه حين من الدهر يجرى عليه ما يجرى على المخلـوقات من شـيخوخة وفناء ، وأنه يتغير ويتبدل ٠٠٠ الخ ، ومعنى انه (كلام الله) غـير المخلوق أن فيه (ديمومة) أو (دوام) أو (بقاء) كصاحب الكلام٠٠الخ وعندما تصدى المسلمون للقول بكونه (مخلوقا) وتصدر بعض العلماء للمقاومة متعرضين لعنت شـديد لم يكونوا فى الواقع يدافعون عن مجرد قضية (فقهيـة) أو (دينية) أو (لاهوتيـة) وانما كانـوا يدافعون عن قضية التزام الحاكم (الخليفة) أمام دستور أو عقد اجتماعى هـو هنا القرآن ، ويرفضون أن يحكمهم حكما مطلقا حتى لو كان (خليفة) وحتى لو كان (قرشيا) دون نص يجرى الاحتكام اليـه ، ورغم أن الهـدف من اثارة فتنة خلق القرآن لم يجر الاعلان عنه الا أن بعض العلماء المسلمين أدركوا تداعياته٠٠ المشكلة أن كثيرا من الأفكار لا ندرك تداعياتها الا بعد فوات الأوان ، وهذا يقتضى منا التوقف قبل الاستمرار فى توضيح الفكرة لنقول ان الأثر الناتج عن الفكرة لا يتوقف على الفكرة ذاتها فقط وانما على طبيعة المتلقى أو طبيعة من نوجه اليـه الفكرة ، فاستجابة الطفل لفكرة ما غير اسـتجابة الناضج ، واستجابة الشاب قد تكون مختلفـة عن اسـتجابة الشـيخ ، واستجابة شخص فى محيط ثقافى معين قد تختلف عن استجابة شخص فى محيط ثقافى مختلف ٠٠ وهكذا ٠

نأتى الى فكرة التوحيد الخالص وهى فكرة عظيمة بلا شك ، وهى جوهر أساسى لكل معتقد صحيح ، ولنحاول متابعة تداعيات الفكرة ، وفقا لنوعية الاستجابة وطبيعة التربية أو الوسط الثقافى ٠

ان فكرة التوحيد الخالص تعنى من بين ما تعنى أن الله هو القادر وهو المعز وهو المذل ، وهو الباسط وهو القابض وهو على كل شيء قدير ٠٠٠ الى آخر أسمائه الحسنى ٠٠

ولكن هذه المعانى العظيمة الحقيقية السامية ، تطورت عنها فى بعض الأحيان فكرة (رفض الحساب) أو (رفض المحاسبة) أو (رفض التدقيق) أو (التفتيش) ٠٠٠ الخ ، فالوكيل الذى يسرق بعض مال موكله أو يعطى نفسه اجرا لا يعلمه صاحب المال أو صاحب العمل ، أو الموكل ، يقول لك ببساطة شديدة ان حذرته من حساب صاحب العمل له : ان (المحاسب هو الله) أو (من يحاسب العباد ربنا) أو (ربنا ليس له شريك ، هو وحده المحاسب) ٠٠٠ الخ ، واذا مات المريض بسبب الاهمال ، (فهذا هو عمره) و (لكل أجل كتاب) و (لا أحد يشارك الله فى ملكه) ٠٠ الى آخر العبارات التى تؤكد معنى التوحيد الخالص والتى تستغل لأغراض تتنافى مع القيم الدينية ، ومما يندرج فى هذا السياق قضية التبرع بالأعضاء ٠

قضية التبرع بالأعضاء لزرعها والتوحيد الخالص :

واذا أراد شخص أن (يبيع) كليته مثلا مقابل مبلغ معلوم، كانت الفتاوى هى أن ذلك حرام لأنه ببساطة (هكذا) لا يملك أعضاءه وانما المالك هو الله ، هو وحده مالك كل شيء ، وهو قول يؤكد فكرة التوحيد الخالص ، ومعنى هذا

أيضا أن رجلا ــ أو امرأة ــ ان كان سائرا في الطريق وتعرض للمس مالا يجوز لمسه من بدنه كان عليه أن يصمت ولا يعترض والا هتف به هذا اللامس قائلا : « لا دخل لك فكل شيء ملك لله ، أتتدخل فيما لا تملك » ·· وهو قول يؤكد فكرة التوحيد الخالص في صورتها المغلوطة ·
الواقع أن الالمام بشيء من علم تاريخ الأفكار ، وكتاب (وات) هذا من بينها وكذلك الأنثروبولوجيا عامة ، والأنثربولوجيا الثقافية على نحو خاص من ألزم المباحث للاختصاصيين في التفسير والفتوى وعلوم الدين بعامة · ومن الغريب أن الفتوى بجواز (التبرع)فلا اعتراض عليه ، مع أن تداعى الفكرة يحرم ذلك أيضا ، فكيف (يتبرع) الانسان بما لا يملكه أليس ذلك شركا ؟! وواقع الأمر أن (التبرع) ان جاز لنا الفتوى وفقا لعلم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا الثقافية هو الحرام بعينه الا تبرع الوالد لابنه أو بنته أو والدة لابنها أو بنتها وما هو غير ذلك فليس (تبرعا) على الحقيقة وانما هناك ضغوط من نوع أو آخر تجعل (التبرع) ليس حقيقيا وانما هو واجهة كاذبة ، و (ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام) والأقرب للصدق هو جواز البيع وحله على أن يتم هذا تحت اشراف طبي في مستشفى حكومي (يفتي) الاختصاصيون فيها بامكانية البيع ، ولابد أن يكون الثمن باهظا ومبالغا فيه فهذا هو الحلال بعينه فالرجل يبيع بضعا منه ·· يبيع لحمه ، وهو لا يفعل ذلك الا مضطرا ، ولابد أن تضمن له الحكومة حصوله على هذا الثمن الغالي بل والباهظ ، فهذا هو الحلال بعينه ولا يتعارض أبدا مع وحدانية الله الذي أعطاني هذا البدن وجعلني مالكا له ، وسيحاسبني على ما ارتكب من معاص لأنه (بدني) ·

تداعيات الأفكار الدينية وزراعة أعضاء الموتى :

مسألة تحديد معنى الموت مسألة يحددها الأطباء ويقرها ـ أولا يقرها ـ علماء الدين ، لكن ما يدخل فى مجال حديثنا هنا عن تداعيات الأفكار الدينية وآثارها أو أسبابها الاقتصادية والاجتماعية ... الخ هو : من صاحب الجثة ؟ اتفقنا أن صاحبها عندما كان حيا هو مالكها الحقيقى ، مع عدم الاخلال بالتوحيد الخالص وهو أن كل شىء لله ولا شريك له فى الملك ، فان كان الميت قد تبرع بجسده قبل موته فهذا حقه ، وان لم يكن فعل فانه يصبح ملكا للورثة مثل كل ما ترك الميت : عقارا ونقودا وجثة .. ؟ فان كان قد أوصى ورثته بشىء متعلق بجثته فلهم أن ينفذوا ما أوصى به ، وان لم يكن أوصى فجثته لهم ، ونوصيهم ألا يبيعوا رخيصا لأن المستفيدين من زرع الأعضاء ـ غالبا ـ ليسوا فقراء ، وهنا يمكن أن يتدخل الحاكم العادل بتحديد أسعار لا يحق البيع بأقل منها وهو مبدأ اقتصادى اسلامى جرى تنفيذه فى بعض الحالات فقد عاقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا كان يبيع أرخص من زملائه التجار فقال له « قم ولا تفسد علينا سوقنا » ولابد أن يكون لهذا القول سياق لا يعنى رفع الأسعار بدون مبرر أو استغلال الناس ، مخافة أن يستغل أحد التجار هذا القول ، فيكمن فى لا شعوره ، فيخرجه وجدا دينيا مؤداه ألا يشترى الفقير خبزا .

والطريف أن (مونتجمرى وات) كان فطنا للتداعيات العملية للأفكار فحيى العلماء المسلمين الذين وقفوا فى وجه فتنة (خلق القرآن) وذكر بعضا مما ذكرناه آنفا عند حديثنا عن هذه الفتنة .

ولقد فهم الخوارج من التوحيد الخالص ، ابطال كل اتفاقات بشرية ، (فلا حكم الا لله) وهـــو قول حق أريد به باطل كما قيل ، اذ كان من رأيهم أن أى اتفاق عقده عـــلى مع معاوية باطل ، وخروجهم عن طاعة عـــلى رضى الله عنـه يعنى أن طاعة الحاكم أيضا نوع من الشرك ، وهكذا لو تداعت الفكرة الى مداها لكان قتل القاتل وعقـــاب الســـارق حـــرام فكيف نقتله أو نعاقبه والحكم لله وحده ٠٠ وهكذا تصبح حتى اشارة المرور حرام فلا حكم الا لله ٠ وهذه تداعيات بطبيعة الحال لا يقبلها عاقل لأنها تلغى كل قانون وتبطل كل نظام وتسقط كل حكومة ٠٠ فلا أحد يقبل بابطال كل التراكمات الحضارية والجهود الانسانية ٠

تداعيات فكرة الاله الانسان الكامل :

ما يجعلنا نستطرد في مقدمتنا هذه أن الخلاصة الأخيرة التى يريد (وات) أن يقولها بين السطور ، وبوضوح أحيانا خاصة فى الفصل العاشر أنه على مفكرى الاسلام وعلى المسلمين عامة أن يستوعبوا ويهضـــموا كثيرا من القيم والأفكار فى الديانات الأخرى لأنه ــ ببساطة ــ هو الدين المرشح لذلك ، فهو دين يضم بين دفتيه كل الأديان السماوية السابقة عليه : يوقر آنبياءها ، ويجل قديســـيها ، ويردد ــ الى حد كبير ــ شرائعها نفسها ، ومما يميز الاسلام فى رأى (وات) الثقة المطلقة فى الله ، فالمسلمون يثقون بربهم ثقة عميقة ــ على حد تعبيره ــ لذا فهم يسلمون الوجه اليه ولا مجال لمراجعتـــه ، وليست صورة (الله) على هذا النحو فى العهد القديم مثلا ، فالتوحيد الخالص ونسبة كل شىء لله مســـألة يركز عليهـــا

المسلمون تركيزا شديدا وان كانت هناك تداعيات سيئة فليس العيب عيب الفكرة وانما عيب التربة أو عيب المتلقين للفكرة • لكننا نلاحظ أنه فى بعض المناطق التى تسود فيها فكرة (الاله الانسان) أو (الرب الانسان) أو ذات واحدة يتجلى فيها (الاله الكامل والانسان الكامل) تطورت فكرة الديمقراطية واحترام الفرد ، والنظر للانسان (ككائن مقدس) ، ان جاز التعبير ، تهتز الدولة ان انتهكت كرامته أو تعرض لاعتداء أو اغتصبت حقوقه •• الخ ، فهل احترام (الانسان) على هذا النحو مجرد تداع لفكرة (الاله الانسان) كمنت فى (اللاشعور الجمعى) فكان من نتائجها ما ذكرناه آنفا ؟! لا ندرى لكن الفكرة نفسها يمكن أن تتداعى منها أو ينتج عنها فكرة الدكتاتورية أيضا ، وفكرة الحق المطلق للزعيم أو الحاكم ، وجدنا هذا ممثلا فى هتلر مثلا ، وفى شرق أوروبا ، بل وأشباه الألهة فى التاريخ الروسى ، وفى بعض الدول الأفريقية التى دخلتها بعض الديانات السماوية ، أو التى انتشرت فيها الديانات التقليدية •• ومن تداعيات (الانسان الاله) فى بعض الأحيان ، الانجازات الكبرى رغم أنها تتم على حساب سعادة البشر ، فهل كان المصريون القدماء سيبذلون هذا الجهد كله لبناء الأهرام لو كانت لمجرد دفن انسان (بشر) ، وماذا عن هذه المزارع الضخمة والمصانع الكبيرة والانجازات المهولة بعد ١٩١٧ فى روسيا والاتحاد السوفيتى السابق ، وهى انجازات كبيرة بكل المقاييس اذا قيست بأوضاع هذه المناطق قبل ١٩١٧ فيما تشير الأطالس التاريخية الصادرة فى أوروبا •• وهى مناطق سادت فيها الأرثوذكسية •• ان القهر وحده غير كاف لمثل هذه الانجازات ، فلابد من وجود فكرة أو أفكار فى « اللاشعور الجمعى » أدت اليها •• وهكذا

يتضح أن (النتائج) أو (الثمار) تتوقف على أمور كثيرة وهى ليست بالضرورة مرتبطة بأفكار صحيحة ، ولعل الولايات المتحدة الأمريكية فى محاولتها هضم جانب كبير من ثقافات العالم وتمثله خير مثال لعملية (الهضم) (والتمثل) فالفكرة على أهميتها تحتاج الى تربة ملائمة ، وعقلية mentality ملائمة لتنتج ثمارا جيدة ، فالفكرة وحدها لا تكفى ، فرغم أن الديانة اليهودية ـ مثلا ـ من أديان التوحيد الخالص وليس لديها ـ بأى حال ـ فكرة (الاله الانسان) أو (الاله الكامل والانسان الكامل فى آن معا) الا أنها توقر الفرد توقيرا شديدا حيا وميتا دون أن يعتبر هذا تعارضا لا شعوريا مع فكرة التوحيد الخالص ، وربما كان هذا ناتجا عن فكرة أخرى هى (الشعب المختار) لكنها فكرة جديرة بأن تهضمها وتتمثلها الأديان الأخرى (المقصود توقير الفرد لا فكرة الشعب المختار) .

ويذهب (وات) فى كتابه هذا الى أن لدى كل دين ما يستحق أن تأخذه الأديان الأخرى ، ولدى كل ثقافة ما يستحق أن تستوعبه الثقافات الأخرى ، وهذا ما بدأ يحدث بالفعل على نطاق واسع مما يجعل الاسلام بحكم (هيكله) أو (تركيبه الخارجى) هو الأقدر على استيعاب ما هو الأكثر عددا والأعلى قيمة . والأكثر انتشارا لو تخلى معتنقوه عن التعصب ، وتوسعوا فى فهم عبارة (خاتم الأديان) أو (الدين الخاتم) ولم يجمدوا معناها ، فليس معنى أنه (خاتم الأديان) أن ينغلق على نفسه مستغنيا تماما عن تجارب الآخرين .

والأمر الذى قد يدهش كثيرين أن (وات) يعتبر أن الاسلام شارك المسيحية الأوربية فى الثقافة اليونانية

باستيعابه كثيرا من مفرداتها ، وتقبله للعلم اليونانى والفلسفة اليونانية ، ومن هنا فالاسلام أقرب للغرب من اليهودية ـ فيما يقول وات ـ ومع أن العهد القديم يشكل جزءا من الكتاب المقدس المسيحى ، الا أن اليهودية ذات طابع (شرقى Oriental) أكثر من الاسلام بكثير ٠

★★★

ولا شك أن تشجيع الهيئة المصرية العامة للكتاب كان له دور مهم فى حفزى على ترجمة مجموعة كتب (وات) وهذا الكتاب باكورة هذه الترجمات وعلى الله قصد السبيل ٠

د ٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ

مقدمة المؤلف

يختلف هذا الكتاب عن كتبي الأخرى التي تتناول الاسلام ، فهو ليس ممعنا في الأكاديمية ، وانما ضمنته كثيرا جدا من انطباعاتي الشخصية ، فهو محاولة لتقرير ما وصلت اليه ـ بعد ما يزيد عن ثلاثين عاما من البحث والدراسة ـ في مجال العلاقة بين الاسلام والمسيحية ، ومن هنا فقد تضمن الكتاب بعض التفاصيل الشخصية ·

لقد بدأ اهتمامي بالاسلام بسبب علاقة شخصية ، ففي خريف سنة ١٩٣٧ أتى طالب من لاهور ليشاركني شقتي لستة أشهر أو ثمانية ، وكان هذا الطالب يدرس الطب البيطري ، وكان ينتمي للطائفة الأحمدية كما كان محبا للنقاش والجدل ، وقد أزكى ما يثيره من قضايا وما يسوقه من براهين على مائدة العشاء رغبتي واهتمامي في دراسة الاسلام · وهكذا بدأت صلتي بالاسلام على نحو من الأنحاء بالجوار · وكان لدي احساس بالاضافة لذلك أنني لا أحاور (أو أواجه) هذا الطالب اللاهوري فحسب ، وانما أحاور نظاما فكريا استمر طوال قرون · ان هذه النظرة المتأملة العميقة لمسألة العلاقات الاسلامية المسيحية فتنتني فتنة لا فكاك منها ، وحدث أن كنت عند منعطف في مجرى حياتي ، فكان هذا الاهتمام الجديد أمرا ضروريا على أية حال ومن

ثم فقد اتخذت قرارا أدى بشكل نهائى الى امضائى فترة ثلاث سنوات فى القدس (التى كانت يومئذ تحت الانتداب البريطانى) كاختصاصى فى الشئون العربية والاسلامية فى الأسقفية الانجليكانية هناك Anglican-bishop وكان من السهل آن انطلق من هذا الموقع فى العمل الأكاديمى الذى استغرقنى منذ سنة ١٩٤٧ خاصة المحاضرات فى مجال اللغة العربية وآدابها والبحث فى مختلف جوانب الدين الاسلامى ٠

وانطوى هذا العمل على مفارقة أو تناقض فى تعاملى مع دين آخر (غير المسيحية) ، فقد بدا هذا أمرا فى حاجة الى حل لما يسببه من توتر فى أعماق الشخص، لكن الحل بالنسبة لى لم يزد عن الاقدام نحو الجديد بشكل أعمق وبروح أرقى ، وبنظرة حيادية لا تنحاز لأى من الدينين (بدون تعصب) رغم أننى على أرض الواقع مسيحى أواصل ممارسة ما تفرضه على المسيحية ٠ ولقد عبرت فى كتبى عن مراحل تقدمى فى هذا الاتجاه (ارتقائى الى هذا المستوى) ، وهذا واضح فى كتابى The Reality of God الصادر ١٩٥٧ ، وكتابى The Cure for human thoughts الصادر ١٩٥٩ وكتابى The Truth in the Religions الصادر سنة ١٩٦٣ بالاضافة لفصول فى كتب أخرى ومقالات بالدوريات ، ويحمل الكتاب الذى يطالعه القارىء الآن الخط نفسه من التفكير وان كان يطور الأفكار ويصل بها الى أماد أبعد رغم أنه ــ أى هذا الكتاب ــ لا يتحدث بشكل أساسى عن المسيحية أو الأديان بشكل عام وانما عن الاسلام ٠

وربما يعود أصل هذا الكتاب الى الوقت الذى نشر فيه ثورنتون L. S. Thornton كتابه الموسوم باسم

Revelation in the Modern Work ١٩٥٠ فقد عرضت له فى دورية Philosophical Querterly(مجلد ٣ ، ص ٩٠ وما بعدها) كما خططت لكتابة مقـال أتنـاول فيه أفكار ثورنتون عن الاسلام ، لكننى فى الحقيقة لم أكتب هذا المقال أبدا ، وانما ضمنت أفكاره فى كتبى الآنف ذكرها • وعلى أية حال فبعد ظهور كتابى the truth of the religions حدث ما دعانى لكتابة شىء عن الاسلام مستخدما مفاهيم ثورنتون • وشيئا فشيئا اتخـذ مخططى ملامحه ، فقـد جمعت خلال زيارتى للكلية الجامعية فى مكريرى Macerere Univ. College فى اوغندا سنة ١٩٦٧ كثيرا من التفاصيل وكتبتها بسرعة فى الشهور التى أعقبت عودتى • واننى شاكر جدا للاستاذ نول كنج Noel King (يعمـل الآن «١٩٦٩» فى جامعة كاليفورنيا) وزملائه فى قسم الدراسـات الدينية لامدادى بمعلومات ملائمة لمؤلفى هذا ، وقد حاولت من خلال العنوان الذى اخترته أن أعبر عن كونى مدينا لكتاب ليونيل ثورنتون Lionel Thornton .

ان هدفى الأساسى هو أن أقدم الاسـلام بأفضل شـكل مبسط للقـارىء الأوربى والأمريكى الذى ينظـر للأمـور بمنظور دينى أو بمنظور علمانى • وانى أقصـد بذلك أن أبطل مفعول الآثار الباقيـة من دعايات حـروب العصـور الوسطى (الحروب الصليبية) كمـا أننى حاولت أن أجعـل القارىء يتحقق على نحو أفضل من ذى قبل من أهمية الاسلام التى تجلت طوال مئات السنين التى أعقبت حروب العصـور الوسطى هذه • والهدف الثانى هو أن أوضح للمسلمين أن الدارسين الغربيين ليسوا بالضرورة معادين للاسـلام كدين بل انه من الممكن أن نجمع بين هذه الاتجاهات •

وبينما كنت أكتب هذا التمهيد وقعت فى يدى المحاضرة الافتتاحية التى ألقاها وليم أ . بجلفلد William A. Bijlefeld باعتباره أستاذا للاسلاميات فى معهد هارتفورد اللاهوتى Harfard Seminary عن العالم الاسلامى مجلد (٥٩ ، ص ص ١ ـ ٢٧) وقد أشار فى محاضرته الى محاولتى الاجابة عن هذا السؤال « أكان محمد ﷺ نبيا ؟ » فى كتابى الموسوم باسم Muhammad Prophet and Statesman ص ٢٣٧ وما بعدها ، وذكر أن محاولتى هذه تخرج عن نطاق موضوع تاريخ الأديان ، وذكر أننا لا يجب أن نستجيب لدعوة القرآن (الكريم) بضرورة طاعة الله ورسوله (نبيه) الا من خلال مفهوم القرآن (الكريم) للنبوة Prophethood والواقع أننى فصلت فصلا واضحا بين ما هو اكاديمى وما هو شخصى ، وفى هذا رد على النقطة الأولى التى أثارها (تناولى لموضوع) نبوة محمد ﷺ ، لكننى لا أوافق أبدا ، على النقطة الثانية التى أثارها ، فالحوار ـ كما أرى ـ يتضمن الاستعداد للقبول الايجابى بمقولات الدين الأخر رغم عدم التحول اليه ، وبدون شىء من الاستعداد ليتعلم أصحاب كل دين من أصحاب الأديان الأخرى ، يصبح الحوار نوعا من الهداية المعطلة . ان هذا الكتاب يحاول أن يعطى براءة لحوار حر (مفتوح) من هذا النوع .

اننى آمل أن يكون هذا التوضيح عن أسس هذا الكتاب معينا للقارىء لتقدير ما نهدف اليه .

و . منتجمرى وات

ادنبرج ، أغسطس ١٩٦٩

ملحــوظة :

عند الاشــارة لأرقام آيات قرآنيــة اعتمــدنا الأرقام الواردة فى طبعة المصحف المصرية ، واذا اختلفت هذه الأرقام مع آرقام طبعة فلوجل Flügel ذكرنا أيضا أرقام هــذه الأخيرة بعد شرطة مائلة · أما فى الكشاف فعند الاشــارة لآية لم نورد الا أرقام الطبعة المصرية ·

الاقتراب من الموضوع

١ ـ القضـــايا

إحدى الحقائق الكبرى عن أواخر القرن العشرين هى أن العالم أصبح « متداخل الأديان » أو « متشابك الأديان » « inter-religious » World فمنذ الحرب العالمية الثانية ــ على نحو خاص ــ اختلط أصحاب الديانات المختلفة بعضهم ببعضهم الآخر بدرجة لم يشهدها تاريخ العالم من قبــل ٠ وقد حدث شيء كهذا فى الامبراطورية الرومانية خلال قرون المسيحية الثلاثة الأولى ٠ فقد كانت أديان جــديدة مختلفــة تتصارع بقصد السيطرة والهيمنــة من خــلال المؤسســات الامبراطورية فى روما ٠ فالأديان القديمة لم تكن قد تطورت بالسرعة الكافيــة لتقدم للناس الدعم الذى يحتــاجونه فى مواجهة التوترات فى الحياة الحضرية داخل الامبراطورية ، وبدأت الأديان الجديدة فى ملء هذا الفراغ ٠ وبطبيعة الحال فان المعــركة بين الأديان عــلى الهيمنــة والســيادة زمن الامبراطورية ، وهو الصراع الذى انتصرت فيه المسيحية ، يعتبر أقل كثيرا من حيث الدرجة من المواجهة التى يشهدها عالم تداخل الأديان فى أيامنا هذه ٠ لقد كانت المجتمعــات الانسانية ــ قبــل أن تحس بالتأثير الأوربى ــ مقســمة الى وحدات دينية وثقافية كبرى وكانت كل وحــدة من هــذه الوحدات تعيش حياتها بشكل منعزل انعزالا يكاد يكون تاما

عن الوحدات الأخرى ، وظل هذا الوضع قائما لعدة قرون ، ومر كسر هذه العزلة بمراحل منها اكتشـاف فاسكو داجاما للطريق البحرى الى الهند سنة ١٤٩٨ كما كانت حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ مرحلة مهمة لكسر طوق الانعزال هـذا خاصة بالنسبة للشرق الأوسط الاسلامى Islamic middle East ومنذ هذه الفترة تكفـل التطـور التـكنولوجى الاوربى ، والتطور السريع المذهل فى وسائل الاتصال ــ بتوحيد العالم على الصعيد المادى ، بينما معظم دول العالم تعد الآن أعضاء مستقلة فى مؤسسة ذات طابع أوربى هى هيئة الأمم المتحدة ، هذا هو الهيكل (الشكل) الذى تجرى من خلاله المواجهة بين أديان العالم ٠

ان مضامين هذه الحقيقة الـكبرى لا تتضـح الا ببطء، وأحد هذه المضامين أنه يتحتم علينا أن نحـدث ثـورة فى تفكيرنا شبيهة بتلك الثورة التى أحدثهـا كـوبرنيكس فى مضمار العلم والتفكير Copernican revolution ــ ثورة تنقلنا من كون « آوربا » محور تفكيرنا الى كون « العالم » هو محور هذا التفكير

« From being Europe Centred to Being World-Centred »

فالحضارة الأوربية (أو العالم المسيحى Christendom) كانت ولفترة طويلة تتصرف كما لو أنها الوحيـدة التى تسـتحق الاهتمام واعتبر الأوربيون أنفسهم هم وحدهم ــ من بين كل البشر ــ الجديرين بالاعتبار ٠ (ينظر الكتـاب المعاصرون لحضارة أمريكا الشـمالية باعتبـارها امتـدادا للحضـارة الأوربية ، ويرى آخـرون ضرورة النظر اليهـا كحضـارة مستقلة) ، وفى القرن التاسع عشر كانت الثقافة الأوربية حضـارة European Culture was Civilization ، وكلما امتدت

(تقدمت) تكنولوجيا وسياسيا ، أصبحت مناطق أخرى من العالم « متحضرة civilized » ، ونتيجة لهذه الفكرة أهمل بالفعل تاريخ الحضارات العالمية الكبرى قبل اتصالها بأوربا ٠

وعاملت الحضارة الأوربية أديان العالم المعاملة نفسها فكانت تنظر الى التطور الدينى الرئيسى (أو الأساسى) للجنس البشرى من خلال نظرها للمسيحية وان كانت قد اعطت مساحة قليلة من الاهتمام لليهودية ٠ وفيما عدا ذلك كان الأوربيون ينظرون اليه باعتباره غير متطور وبدائى فهو أفضل قليلا من أديان الشعوب الواقعة على حدود فلسطين والتى تعامل معها الأنبياء الوارد ذكرهم فى التوراة ــ بقسوة وكما اختفت هذه الأديان ولم يبق منها سوى اليهودية كذلك اختفت الأديان « غير العقلانية irrational » والأديان « غير المتزنة عاطفيا emotional » داخل الامبراطورية الرومانية ، أو تم استيعابها داخل المسيحية « تشربتها العقيدة المسيحية الجديدة » ، ومن هنا فهناك افتراض مؤداه أن الأديان الأخرى الآن (غير المسيحية) بما فى ذلك الأديان الكبرى سوف تخلى مكانها سريعا للمسيحية ٠

لقد شهدت الحقب الوسطى من القرن العشرين تغييرات ثورية فى هذه الاتجاهات أو على الأقل كان هذا التغير الثورى فى الاتجاهات بين قادة الفكر ، فمن الناحية السياسية تم قبول غير الأوربيين كأنداد مساوين للأوربيين ، وأصبح لهيئة الأمم المتحدة أمين عام آسيوى ، وأصبح تاريخ العالم يظهر الآن بوضوح قيام امبراطوريات وحضارات لا علاقة لها البتة بأوربا ، كما أصبح الذين يتناولون تاريخ العالم

يبينون لنا كيف سقطت هذه الامبراطوريات والحضارات ،
وأصبح الأوربيون على وعى ـ وان كان بدرجة أقل وضوحا
أن هناك أديانا أخرى غير المسيحية قد حققت فى الماضى
انجازات روحية لا يمكن نسيانها ويقول علماء اللاهوت
المسيحى المتطورون الآن ان أتباع هذه الديانات (غير
المسيحية) لابد أنهم اليوم يبحثون عن « الخلاص Salvation »
من خلال تراثهم الدينى الخاص « وليس من خلال فكرة
الخلاص المسيحية » وهذا أمر طبيعى · وشىء كهذه المقولة
التى أوردها اللاهوتيون المسيحيون التقدميون كامن فى فكرة
« الحوار » بين الأديان ، وهى فكرة أضحت شائعة ومقبولة
فاللقاءات بين أصحاب الأديان المختلفة · تتم بين « أنداد »
متساوين ·

وعلى آية حال فلقاءات الأديان لم تعد مسألة تنظير أو
موضوعا لنظريات ، ولكنها تؤدى الى اثارة قضايا على
المستوى العملى ، فالقس الانجليزى أو الكاهن الاسكتلندى
قد يجد من بين المستمعين لعظاته من له جيران باكستانيون
وأنهم ينظرون لهؤلاء الجيران كأناس طيبين جدا لا يختلفون
عنهم ، ومن هنا فانه يتعين عليه أن يهتبل هذه الفرصة
ليساعدهم فى تقبل أفكار جديدة عن العلاقة بين المسيحية
والأديان الأخرى ·.وقد يكون الأبرشيون (أتباع الأبرشية
Parishioners) قد توارثوا فكرة أن كل من هم غير
مسيحيين لا يزيدون عن كونهم أفضل قليلا من الجماعات
البدائية التى لم تتعد مرحلة الهمجية ، لكن أفكار هؤلاء
الابرشيين بدأت تنهار وتتساقط حولهم شذر مذر اذ انهم
قد اكتشفوا أن غير المسيحيين يمكنهم أن يعيشوا حياة
حضارية راقية وانهم مهتمون ـ بعمق ـ برفاهية أبنائهم

وأنهم يخضعون معتقداتهم لبناء عقلى (أو سببى) مثلهم فى ذلك مثل المسيحيين · لكل هذه الأسباب فان الحقيقة الكبرى المتمثلة فى « عالم متداخل الأديان inter-religious World » بسبيلها الى التأثير فى حياتنا اليومية بشكل متزايد ·

لقد أصبح المسيحيون العاديون ، وليس علماء اللاهوت فقط ـ يلتقون بغير المسيحيين فى حياتهم اليومية وسيكون عليهم آن يتعاملوا معهم كأنداد كما سيتحتم عليهم اليوم أو غدا آن يبتغوا السبيل الى من يرشدهم الى المضامين العقلية (الفكرية) الكامنة وراء تصرفاتهم ·

ولقد زاد من تعقد مشكلات « تداخل الأديان inter-religions » حقيقة كبرى من حقائق هذا القرن يمكن أن نسميها الاستشراف العلمى أو النظرة العلمية للأمور the Scientific Outlook ونعنى بها العقلية الحديثة التى تعتمد على انجازات العلم وتتقبل طرائقه ومناهجه وتعتبرها قابلة للتطبيق فى مجالات أخرى كثيرة ، ويميل بعض الناس الى تجاوز « النظرة العلمية أو الاستشراف العلمى » ويتعاملون مع العلم باعتباره نوعا من الدين قادرا على آن يقدم للانسان اجابات لكل أسئلته أو قضاياه الأعمق ، لكن هذه النظرة تعتبر « شيئا » آخر أكثر من « الاستشراف العلمى » المقصود هنا · ولابد أن نبين ـ بطبيعة الحال ـ آن « النظرة العلمية » لا يمكن أن ترتبط برباط كامل ومحكم بأى نظام فكرى محدد definite intellectual system طالما ان هناك اختلافات بين المفسرين أو الشارحين للنظرة العلمية (الاستشراف العلمى) رغم أن بينهم ـ فى الوقت

نفسه ـ كثيرا مما يتفقون عليه • وقد بينا فى هذه الدراسة ضرورة قبول النتائج المؤكدة للعلم وكذلك كثيرا من الفروض العلمية المعتمدة كما أنه يتحتم علينا قبول جدوى المنهج العلمى فى معظم مجالات الحياة مع أن هذه المناهج قد لا تصلح لمجالات بعينها وأهمها مجال القيم Values. ان قبولنا للمنهج العلمى واعترافنا بجدواه يؤدى بنا الى نظرة علمانية Secular view للعالم حيث لا مجال للقيم الدينية والأخلاقية. وكثير من المسيحيين الآن يقبلون كثيرا من جوانب هذه النظرة العلمانية للعالم ، ويحتفظون فى الوقت نفسه بعقائد دينية بعينها تبدو متناقضة مع نظرتهم العلمانية الآنف ذكرها أو يؤدى وضعهما متجاورين ـ العقائد الدينية والنظرة العلمانية ـ الى نوع من المفارقة. ويشعر المتدينون من مختلف الأديان بصعوبة الجمع بين النظريتين (الموقفين) بأشكال مختلفة •

وتركز هذه الدراسة على أفكار أساسية يؤمن بها الكاتب تماما وهى أن المناطق الثقافية (الحضارية) المختلفة فى العالم والتى ظلت منعزلة بعضها عن البعض الآخر حتى زمن قريب نسبيا ، يختلف بعضها عن بعضها الآخر اختلافا جذريا فى توجهاتها العقلية ونظرتها الفكرية intellectual Outlook وهو أمر يعنى ما هو أكثر من اختلاف المعتقد الدينى • ففى كل منطقة ثقافية (حضارية) ـ وقد اعتبرنا هنا مصطلح المنطقة الثقافية أو الحضارية مطابقا لمنطقة يشغلها معتنقو احدى الديانات الكبرى ـ تنطوى المعتقدات على نظام فكرى متكامل (على بناء شامل للفكر) يتم وضع تفاصيله على

أساس طائفة من المقولات Categories تستخدم فى تحليل التجربة الانسانية · ولما كانت هذه المقولات تختلف جزريا من دين الى دين فمن الصعب ، بل ومستحيل حقا ، أن نقارن الصيغ الدينية بشكل ذى جدوى · ولنضرب أمثلة ببعض الصيغ الدينية المسيحية والاسلامية ذات المعنى الواحد فى ظاهر الأمر، فعبارة « ارادة الله أو مشيئته « the Will of God موجودة فى الديانتين ، لكن ارتباطها بحياة كل من المسيحيين والمسلمين مختلف،فبالنسبة للمسيحى عادة ما تعنى ارادة الله المفهوم المعنوى للارادة the moral will كما تجلت فى الوصايا العشر Commandments أو تتجلى فى الفطرة السليمة للفرد (الحدس أو البديهة) (فارادة الله بالنسبة لى فيما يتعلق بعمل) · بينما نجد أن المسلم يطبقها على كل ما يحدث، فكل ما يحدث انما يحدث بارادةالله ومشيئته · ومرة أخرى نجد أن الدين بالنسبة للمسلم يغطى تقريبا كل جوانب الحياة بينما هو بالنسبة للمسيحى الأوربى العادى لا يغطى الا جانبا يسيرا منها ، مع أن كلمة (الدين) العربية هى المقابل لكلمة religion الانجليزية الا أن المفهومين مختلفان كما رأينا · لا يمكننا اذن عقد مقارنة رغم أن الألفاظ واحدة ، ومن هنا فليس ثمة معيار أو مقياس Criterion بسيط للفصل بين ما هو حقيقى صادق ، وما هو زائف خادع ·

٤

والآن فلنفترض أن المسيحى جون سميث بدأ الحديث مع جاره الباكستانى محمد أحمد فى موضوعات دينية ، فانهما سرعان ما يصلان الى طريق مسدود لأنهما سيكتشفان

انهما يستخدمان الالفاظ ولكن بمعان مختلفة ، ولما كانا لا يمتلكان الوقت الكافى ولا التدريب الفلسفى ولا الرغبة فى الغوص لما هو أعمق، فربما اتفقا على شىء واحد وهو أن يختلفا ، أما اذا قررا الاستمرار فى الحوار فربما وجدا ــ على أية حال ــ أرضية مشتركة من خلال اتصالهما معا بالنظرة العلميــة أو استشرافهما لمنهج البحث العلمى فتلك رغم ما تثيره من تعقيدات تجعل تواصلهما أيسر ، وتمكن أحدهما من فهم الآخر • فكلاهما سيحاول ربط دينه برؤيته للفكر العلمى العالمى ، ومع أن هذا يسبب صعوبات لكليهما الا أنه يتيح لهما أرضــية مشتركة ، فكلاهما ــ المسـيحى والمسلم ــ غارق حتى أذنيه فى الحضارة المادية material Culture للعالم المعــاصر التى أفرزت النظرة العلميــة ، وقد يمـكن للطرفين أن يتواصلا ويفهم أحدهما الآخر على مستوى النظرة العلمية للأمور وعلى مستوى النظرة العلمانية ، خاصــة اذا كانت لديهما الثقة الكافية فيما يقدمانه من حلول شخصية •

وتحاول هذه الدراسة أن تتناول جانبا واحدا من قضية التداخل بين الأديان interreligious problem وهو بالتحديد العلاقة بين المسيحية والاسلام ، ويضيق مجال التناول ليصبح مفهوم الاسلام للوحى بالاضافة لأمور متصلة بهذا الموضوع ، ان جزءا من هدف هذه الدراسة هو تعريف المسيحيين الذين لم يدركوا حتى الآن أن الوحى الاسلامى (الرسالة الاسلامية islamic revelation) مســألة لابد من تناولهــا بجــدية ، فالاسلام منافس قوى للمسيحية فى قيادة عالم اليــوم ، ان جاز لنا استخدام مثل هذه المصطلحات الاستراتيجية • ولابد أن نتحقق من أن كثيرا من عقائد الآباء عن تفوق المسيحية لم يكن فى الواقع سوى مجرد اعتقاد فى تفوق الحضارة الأوربية

المادية ، أما على المستوى الدينى فالحقيقة أن الاســلام كان دوما ندا للمسيحية فالاسلام مثله مثل المسيحية لديه «كتاب» لعالمنا المعاصر (★) .

وعلى أية حال ، فان منهج هــذه الدراسة ليس مجــرد مقارنة مباشرة بين الفكر المسيحى والفكر الاسلامى ، وانما هو محاولة للربط بينهما من خــلال نظرة عالميــة محــايدة مرتبطة باستشراف علمى Scientific Outlook ، والنظرة المحايدة المجردة التى نتبناها هنا لا تعنى معاداة الدين .

٢ ـ حديث تمهيدى عن الوحى

يعتقد المسلمون أن القرآن (الكريم) كتاب أوحى به الله (سبحانه وتعالى) ، وهذا يعنى أنه كلام الله وصل الى محمد (ﷺ) بواسطة مَلَك ، فالقرآن الكريم ليس بأى حال من الأحوال كلام محمد ولا هو نتاج تفكيره ، انما هو كلام الله وحده قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه ، ومن هنا فان محمدا ليس أكثر من «رسول» اختاره الله لحمل هذه الرسالة، الى أهل مكة أولا ثم لــكل العرب ومن هنــا فهو قرآن عربى مبين ، وهناك اشارات فى القرآن (الكريم) الى أنه موجه للجنس البشرى قاطبة ، وقد تأكد ذلك عمليــا بانتشــــار

(★) المترجم : نفضل هنا ايراد العبارات الانجليزية كما هى :

« ... It must be realized that much of our father's belief in the superiority of christianity was a blief in the Superiority of European material culture, and that simply as religions christianity and Islam are roughly on an equal footing, the Islam just as much as christianity-has a (gospel) for the modern world. »

الاسلام فى العالم كله وقبله بشر من مختلف الأجناس « من كل الأجناس تقريبا « by men of nearly every race

وهذه الفكرة نفسها عن « الوحى » اعتنقها مسيحيون كثيرون عبر القرون، فاعتبروا كلمات الكتاب المقدس bible هى كلمات الله نفسه « the word of God Himself الا انهم ــ عادة ــ لا يفترضون أن كلمات الله قد جلبها مصدر خارجى ممثل فى ملك أو ملائكة يملونها على كتاب الأناجيل ، وانما يلقى فى روع هؤلاء الكتاب أن ما يكتبونه انما هو كلام الله حقا • فالأنبياء الوارد ذكرهم فى العهد القديم (التوراة) يعلنون دون تردد « هكذا يقول الرب ••• » لذا فلابد أنهم كانوا يعتقدون أن ما ينطقون به من كلمات انما هى بمعنى من المعانى كلمات الله حقا • وعلى أية حال فان مفهوم « الوحى » قد تعدل باعتبار أن المسيحيين يعتبرون حياة المسيح وأفعاله بمثابة وحى أو الهام revelatory •• حقيقة ان المسيح يسمى أيضا (كلمة الله) وقد أصبح لهذه النظرة ثقل وقيمة ، ومن هنا فقد كان هناك احساس بأن المفهوم السابق (احساس كتاب الأناجيل بأن الروح القدس تلبسهم وان ما يكتبونه هو كلام الله) ان هو الا مفهوم حرفى ، ومن ثم فقد كان هناك تخل أو ترك ــ الى حد ما ــ لهذا المفهوم التقليدى عن الوحى عند المسيحيين (★) •

فالاتجاه الأساسى فى الفكر المسيحى الحديث هو اعتبار الوحى بمثابة أفعال الرب activity of God والرب يوحى

(★) النص الانجليزى :

Indeed, Jesus is Called « the Word of God ». Where this point of view is given Weight, the previous conception of revelation is felt to be verbal and mechanical, and is partly abandoned ».

حتى ــ فالوحى هذا وعلى is revealing himself تفســـــه

ان اتخذ شكل الكلمة المنطوقة أو المكتــوبة (لغة) لابد أن يُفهم باعتباره فعلا من أفعال الرب God's act (١) وثمــة طريقة آخرى للتعبير عن الوحى بأن يقال انه نوع من الفعل المقدس يتجلى به الله بذاته فى الانسان، وبذلك يتم استحضار استجابة الانسان وتعاونه (٢) وقد أصبحت مثل هذه الأفكار عن الوحى مقبولة ، أما النظرة القديمة والتى تعتبر الوحى « وديعة صدق وحقيقـــة مدخــرة أو مكنــوزة فى الكتــاب المقدس(٣)»(★) فقدأصبحت الآن نظرة غير مكتملة، فهى غير مخطئة ولكنها ناقصة تحتاج الى مزيد من التوضيح • فالوحى هو فعل الله تجاه البشر ومن المتوقع أن يستجيب البشر لهذا الفعل ، وهو بهذا المعنى ضد المفهوم المجرد الخالى من الحياة والذى ينطبق على الكلمـــة المكتــوبة بمعزل عن رد الفعـــل البشرى • وهذا المفهوم للوحى باعتبـــاره « فعـــلا مقدســـا « divine activity ليس غريبا على الاسلام رغم أنه لم يحظ باهتمام كبير من علماء المسلمين • ويمكن أن يقـــال ان هذا المفهوم متضمن (بضـــم الميم) فى الرؤية الاســـلامية التقليدية فطالما أن الله ــ وفقا لهذه النظرة ــ قد اختار محمدا (ﷺ) فى وقت بعينه لينقل رسالة لشـــعب مكة فى المقـــام الأول تماما كما اختار قبـــل ذلك آنبيـــاء كثيرين آخـــرين لشعوب أخرى . فان الله (سبحانه) يكون بذلك فعالا (ليس بمعزل) باختياره محمدا (ﷺ) وبتحميله رسالة ، وبتوجيه هذه الرسالة للبشر • وبمرور الوقت لم يعد محمد (ﷺ) مجرد « نذير » أو « مبلغ رسالة » ، وانما كان عليه كرسول

(★) النص : « Is a deposit of truth laid up in Scripture ».

لله ونبى أن يوجه بشكل أو بآخر أمور جماعة المسلمين ، ويمكن اعتبار فعله هذا (مسلكه العملى أو سنته) مظهرا من مظاهر ارادة الله (الوحى العملى) (★) . وسواء آمن البشر بهذه الرسالة أو لم يؤمنوا فمن المؤكد أن تصورنا أو تخيلنا لاستجابة بشرية (رد فعل بشرى) أمر قائم . وفى الأجزاء الأخيرة من القرآن « الكريم » نجد تعليمات وأوامر بتوجيه الاستجابات المستمرة للجماعة (ردود الفعل المستمرة الصادرة عن الجماعة) ومن هنا فنظرة المسيحيين للوحى وهو ما تناولناه فى السطور السابقة يمكن أن تنطبق تماما على مفهوم الوحى عند المسلمين ، فالوحى « هو نوع من الفعل المقدس يعرف الله سبحانه من خلاله ذاته للانسان فيستجيب له الانسان ويتفاعل معه » (★★) والكلمة الوحيدة (أو المصطلح الوحيد) الذى قد يعترض عليه المسلم هو « يعرف الله ذاته من خلاله Communicate himself » لكن التأمل العميق يمكن أن يزيل هذه الاشكالية ، فثمة اصرار اسلامى على أن القرآن (الكريم) غير مخلوق ، وانما هو كلام الله ، وهذا يعنى أن الله (سبحانه) يريد أن يوصل رسالة من داخل ذاته of his inner being الى البشر ، . وهذا يؤدى بالمسلمين الى النظر للقرآن الكريم نظرة لا تجعله منفصلا أو منعزلا عن الله سبحانه وانما كجزء من الكل الأوسع الذى يضم الوحى المقدس واستجابة البشر له (رد الفعل البشرى ازاءه) وتعتبر الاستجابة البشرية للقرآن الكريم ــ فيما يرى علماء

(★) النص : ... form of God's activity.

(★★) النص : It is a more of divine activity by which the Creator Communicates himself to man, and by such doing, evokes man's response and cooperation).

المسلمين، فيالوقت نفسه وسيلة من وسائل الفعل المقدس ، ومن هنا فان هذه الطريقة فى تفسير الاستجابة البشرية للقرأن الكريم لا تلغى أو لا تبطل كون ارادة الله سبحانه (فى القرأن) والاستجابة البشرية لها تمثلان على نحو ما كلا متكاملا ، فالقرأن الكريم يحقق رسالته أو هدفه بين البشر (فالبشر لازمون للرسالة) فمن الصعوبة بمكان أن نقول ان القرآن (الكريم) مجرد أداة للذات الالهية ، ذلك لأنه ـ أى القرآن ـ كلام الله ، والكلام ليس ـ بالضبط ـ مجرد أداة . ويمكن للمرء أن يقول ان القرآن الكريم هو المظهر الخارجي « external » form ، للارادة الالهية أو هو تجسيد لهـا « embodiment »

ويبدو من المطلوب فى هذا الصدد أن نقول شيئا عن الموقف الشخصى الذى اتخذه بالنسبة للموضوعات التى يناقشها هذا الكتاب طالما أن الحيدة الكاملة والموضوعية المطلقة أمر صعب • اننى أعتقد أن القرآن (الكريم) بمعنى من المعانى صادر عن الله وبالتالى فهو وحى

« I would Say, then, that I hold the Quran to be in Some sense the product of a divine initiative and therefore revelation »

وآمل أن يتضح من السياق ما أقصده بقولى « .معنى من المعانى » وهذا الوضع ـ وفقا لما أفهم باعتبارى من هواة البحث فى اللاهوت المسيحى ـ متفق مع بعض الاتجاهات الحديثة جدا فى الفكر المسيحى خاصة بين اللاهوتيين من الأروام الكاثوليك (٤) وعلى أية حال ، فان هذا الاتجاه بعيد تماما عن المنطلق الفكرى للمسيحية التقليدية ، وسيجد بعض القراء صعوبة فى التكيف مع هذا المنطلق الفكرى (يقصد

القراء من بعض المسيحيين) لكن هذه الصعوبات ستكون أقل أهمية لدى المسيحيين الأكثر ميلا الى العلمانية والاتجاهات العلمية خاصة ممن يأخذون بالأفكار الاجتماعية ويوظفونها للشرح والتوضيح وممن يستطيعون النظر للدولة المسيحية christiendom باعتبارها هى « التنظيم التاريخى للمسيحية « the historical organism of christianity » والاعتراف بأنها كيان تكوّن عبر التاريخ على النحو نفسه الذى تشكل من خلاله « النظام التاريخى للاسلام The historical organism of Islam » فكما رأى المسيحيون أن تاريخهم شهد « حوارا بين المسيحية وبين العلمانيين المناهضين للدين ، فان هذا يعنى أنه من المستحيل الاستمرار فى الأداء بوجود « وحى » او « رسالة » أو « ديانة » revelation مسيحية دون الاعتراف « بشىء » من الصحة « للوحى » أو الرسالة » أو « الديانة » الاسلامية (★) ٠

والمنهج الذى اتخذه فى هذه الدراسة هو أن أصل بقدر ما استطيع الى مستوى الحقيقة الخالصة ، ولن أتعرض للقرآن (الكريم) باعتباره من انتاج (تأليف) محمد ، وانما باعتباره وحيا، وعلى أية حال فانه سيكون من الضرورى أن نميز بين التأكيدات الفعلية (الحقيقية) الواردة فى القرآن (الكريم) من ناحية وبين الاستدلالات أو الاستنتاجات التى وصل اليها العلماء والدارسون المسلمون الذى ظهروا على التوالى فى فترات لاحقة لنزول (القرآن الكريم) ٠

(★) النص : In so far, too as christians are in dialogue with anti-religious secularists, they will find it impossible to maintain the claims of the christian revelation without admitting some validity to the islamic revelation.

٣ ـ الفهم المتكامل للموقف

لقد أكدنا فيما سبق أن الكتب المقدسة المكتوبة لا ينبغى النظر اليها كظاهرة معزولة وانما كظاهرة متفاعلة مع البشر الذين من أجلهم كانت هذه الكتب ، فالمسيحية خاصة ـ لابد من النظر اليها كتطور عضوى من دين بنى اسرائيل Israelite religion كما تجلى فى العهد القديم (التوراة) أو بالأحرى امتداد أو تطور عضوى من دين ابراهيم السابق على دين بنى اسرائيل • وهذا التطور (العضوى) أو الامتداد (العضوى) لا يعنى أن المسيحية غدت « انضج » وانما يعنى أيضا مزيدا من الانتشار متمثلا فى زيادة عدد معتنقى المسيحية ، ان هذا « النمو growth » يشبه نمو الكائن الحى ، ومن هنا فقد صاغ ثورنتون L. S. Thornton عبارته « المسيحية التاريخية ككائن حى »(٥) وسيكون من المفيد آن نميز عند تناولنا للدين ككائن حى متطور بين ما هو « جوهرى » أو بين ما هو « محورى » « مركزى » nucleus وما هو « خارجى » أو قشرى » Outer body

« فالجوهر » أو « القلب » أو « مصدر الطاقة » لا يمكن فصله أو « عزله » للبحث أو للدراسة إلاَّقدْرَ المدة التى تسمح ببقاء الكائن الحى على قيد الحياة • ويبدو أنه من الضرورى آن نسلم بهذا النوع من التفكير لنتمكن من الاستمرار فى مثل هذه المباحث ببساطة ووضوح ، فطالما أن « منظمة » الدين أو « هيكله » أو « بناءه العضوى » ينمو ويمتد ، فان طرائقنا فى التفكير تتطلب الشىء نفسه ، فالمنظمة الدينية تحاول دائما آن تتوسع وتمتد كما أنها تسعى نحو مزيد من

بلورة الأفكار ، والنضج maturity «فمؤسسة» الدين تحاول ضم أكبر عدد من الناس (دعوة أكبر عدد لاعتناق هذا الدين أو ذاك) كما تحاول اخضاع أكبر قدر من مظاهر الحياة وفعالياتها «لسطوة» الدين أو «سلطانه» أو «اشرافه» under the Control of the religion كما تحاول مد تأثير الدين الى مجتمعات أخرى لا تدين بالدين ذاته · وفى كل هذه الأحوال تتحول دوائر الامتداد والتوسع حول « قلب » أو « مركز » تتحد معه أو تتكامل ·

ويمكننا أن نطلق على المكون الأساسى ، أو « القلب » أو « التشكيل الأول » · مصطلح endosoma (بالنسبة للمسيحية ما هو داخل الكنيسة) وذلك لتمييزه عن « الهيكل الخارجى » أو « الامتداد » وهو ما يمكن أن نطلق عليه ectosoma ونعنى به « البيئة أو المحيط » الخاضع « لاشراف » و « ادارة » و « تنظيم » الدين كمؤسسة · ولتوضيح الفكرة فان ما نعنى به endosoma · يتمثل بالنسبة لمؤسسة الأسرة فى أعضائها أو أفراد الأسرة أنفسهم، وما نعنى به ectosoma · نقصد به الحديقة وبقية المنزل وهى « مناطق » يدينها أفراد الأسرة،كما أن هذا المصطلح يشتمل أيضا على أشخاص آخرين يؤدون خدمات لهذه الأسرة ويرتبطون بها ، وفى حالة الدين كمؤسسة أو « منظمة » فان مصطلح ectosoma سيشتمل على أشخاص تأثروا بالتعاليم الدينية وقد يفكرون فى الانضمام لمجتمع المتدينين « جماعة المتدينين » ولكنهم ليسوا ضمنه بالفعل أو ليسوا محسوبين كأعضاء فيه ، فالمسيحية الأولى قد انتشرت كثيرا بين جماعات « تخاف الله » كانت مرتبطة بالمعابد اليهودية فى فى الامبراطورية الرومانية (وكانت هذه الجماعات بمثابة

الامتداد الخارجي ectosoma لليهودية وسرعان ما تحولت الى عصب endosoma الديانة الجديدة وهى المسيحية) ، وقد يشتمل مصطلح ectosoma كما نعنيه هنا على جوانب الحياة التى تخضع على نحو ما لتأثيرات الدين ، فقبل أن تصبح الامبراطورية الرومانية مسيحية بالفعل من الناحية الرسمية كانت فى الواقع ميدانا رحبا للتأثيرات المسيحية او كانت بمثابة ملعب تمارس فيه المسيحية تأثيراتها أو أنها كانت مسيحية على نحو ما رغم عدم تمسحها رسميا .

ومثل هذه المصطلحات ـ ربما ستساعدنا فى ربط ما هو علمى بما هو دينى ، ووفقا لما ورد فى سفر التكوين فان الله (سبحانه) قد خلق الانسان ليتحكم ويسيطر على كل ما على الأرض ، وأن يستخرج طعامه مما عليها من حيوان ونبات ، فعلاقة الانسان بالطبيعة « مسألة دينية » و « مسألة علمية » أيضا ، فليس صدفة أن كثيرا من الأعضاء الأوائل للجمعية الملكية Royal Society فى لندن كانوا من رجال الدين .

وبهذه الطريقة يمكن النظر للبحوث العلمية المعاصرة من خلال علماء لهم عقليات دينية ، ولكن ـ من الناحية العملية ـ نجد أن تغييرا قد طرأ على علاقة أولئك المرتبطين بالبحوث العلمية بجوهر المسيحية (ما هو أساس فى المسيحية)، فقد بدأ المسيحيون التابعون للبحوث العلمية فى الانفصال أو الابتعاد (أو الاحساس بالغربة وعدم التكيف مع القيادات الفكرية التقليدية للمسيحية)لأسباب لا داعى لمناقشتها هنا ، وأن هذه الغربة (أو الانفصال أو عدم التآلف estrangement) مستمرة بل تتسع (بمعنى أن الفجوة بين العلماء المسيحيين

ودينهم تزداد باستمرار) وبالتالى فقد أصبح البحث العلمى ليس فى « البؤرة » بالنسبة للفكر المسيحى (انزاح البحث العلمى من مركز الاهتمام الدينى المسيحى ليصبح على الأطراف)(★) فلم يعد الفكر المسيحى يهتم ــ بشكل مباشر ــ بالقوى أو الطاقة التى يخصصها الانسان للسيطرة على الطبيعة ، ومن المؤكد أن أحد أسباب ذلك يعود للاركسية · فى « ضواحى » أو فى « القرب القريب »

ولنعد الآن للدين الاسلامى · انه يمكننا أن نتحدث عنه بالطريقة نفسها « مؤسسة الاسلام التاريخى » أو الاسلام ككائن متطور عبر التاريخ · ولم ينشأ الاسلام ــ على أية حال ــ من فراغ أو بمعزل عن الأديان الأخرى ، وانما بدأ فى « ضواحى » أو فى « القرب القريب » ectosoma للمسيحية ، فلم تكن شبه الجزيرة العربية خالية من الأفكار المسيحية التى تغلغلت فيها ، خاصة فى مكة والمدينة حيث دعا الرسول للاسلام ، وسرعان ما انتشرت دعوته بالتدريج لتحكم قبضتها على رقعة واسعة جغرافيا وثقافيا · وكان جانب كبير من هذه المناطق التى أحكم الاسلام قبضته عليها (انتشر فيها) مناطق مسيحية ، لا فى الأطراف فحسب وانما فى العمق المسيحى أيضا ، وأصبحت هذه المناطق ــ الآن ــ من صميم ديار الاسلام ، وأصبح للاسلام مناطقه وللمسيحية مناطقها وانفصلت مناطق كل دين عن مناطق الدين الآخر

(★) النص . « ... has moved from the christian endosoma to the ectosoma ».

(أصبح لكل دين منهما جغرافيته المنفصلة لأسباب لا نناقشها هنا) مع وجود تداخل قليل جدا (★) ·

لكن العالم المعاصر ــ كما هو مشاهد ــ قد أصبح بمثابة قرية صغيرة بفعل التقدم العلمى والتكنولوجى فأصبح بذلك فى غالبه ضمن مجال تأثير المسيحية developed in the christian ectosoma ومع هذا فان تأثير المسيحية الفعلى أو تأثير جوهر العقيدة المسيحية nucleus يبدو فى تناقص مستمر رغم محاولات التوسع التى تقوم بها الحركة التبشيرية، وفى الوقت نفسه وجدنا « صحوة » أو « انبعاثا » أو «حركة نهضة » فى معظم أديان العالم الكبرى الأخرى «غير المسيحية» بل وظهرت أيضا أديان جديدة · واذا رجعنا للاسلام وجدنا زيادة فى عدد معتنقيه فى نطاق منطقته الجغرافية ، بل وظهرت حركات دعوة للاسلام فى أوربا · ويمكن أن نعبر عن الفكرة السابقة بأسلوب آخر ، انه نتيجة التقدم التكنولوجى المعاصر فى وسائل الاتصال سيكون هناك نوع من الوحدة الثقافية والفكرية على مستوى العالم عند مستويات معينة ، أما ما سيحدث نتيجة لذلك بالضبط من الناحية العملية فسأتناوله فى أخر الكتاب ·

(★) النص ... and had very little relation with one another.

وفضلنا الترجمة كما وردت بالمتن لان ذلك هو المعنى المقصود كما يتضح من السياق ــ (المترجم) ·

محمد وتجربته مع الوحى

١ ـ الوحى فى القرآن والسنة

يبدأ الذين يتعرضون لهذا الموضوع من الكتاب المعاصرين تناولهم بتجربة محمد المباشرة مع الوحى · ونعنى بذلك التجربة الفعلية بصرف النظر عن التفسيرات ، وهذه التجربة الفعلية لا يمكننا بطبيعة الحال الا الاقتراب منها ، اذ لا يمكن الوصول اليها تماما · وفى كل تجربة فعلية لا مناص من وجود عنصر تفسيرى أو تأويلى · ويمكن الى حد ما تقليص هذا العنصر التأويلى ان لم نستطلع الغاءه تماما أو على الأقل احلال تأويلات أخرى أكثر اتساقا مع النظرة المعاصرة · ومنهجنا فى هذه الدراسة هو الوصول الى المقصود من خلال القرآن والسنة ، ففى فترة قريبة من بداية نزول الوحى على محمد (ﷺ) نجد آيات كريمة فى سورة النجم نوردها فيما يلى :

« ما ضل صاحبكم وما غوى(٢) وما ينطق عن الهوى(٣) ان هو الا وحى يوحى (٤) علمه شديد القوى (٥) ذو مرة فاستوى (٦) وهو بالأفق الأعلى (٧) ثم دنا فتدلى (٨) فكان قاب قوسين أو أدنى (٩) فأوحى الى عبده ما أوحى (١٠) ما كذب الفؤاد ما رأى (١١) أفتمارونه على ما يرى(١٢) ولقد رآه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤) عندها جنة المأوى (١٥) اذ يغشى السدرة ما يغشى (١٦) مازاغ البصر وما طغى(١٧) لقد رأى من آيات ربه الكبرى(١٨) ·· »

من الواضح تماما أن هذا الوصف ليس وصفا علميا (وصفا محددا يمكن قياسه) وان هناك الكثير من الأبعاد الغامضة ذات الطابع السرى ، وقد اعترف الدارسون المسلمون وغير المسلمين بهذا الغموض ، فليس فى هذه الآيات ذكر لوحى نزل على محمد (ﷺ) أو تلقاه محمد (ﷺ) أثناء هذه الرؤيا vision مما يجعلنا نستدل أن تلقيه الوحى لم يكن مرتبطا بهذه الرؤيا أو أية رؤيا .

ففيما يتعلق بالرؤيا الأولى فقد تم وضعها مرة أخرى بايجاز فى السورة رقم ٨١ (التكوير) .

وما صاحبكم بمجنون (٢٢) .

ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣) .

وما هو على الغيب بضنين (٢٤) .

وذلك فى سياق الدفاع عن صدق الوحى ، ولابد هنا أن ندرك تماما معنى كلمة (عبد) فى آيات سورة (النجم) فحتى المفسرون المسلمون الذين يقولون بأن محمدا قد تلقى الوحى عن طريق جبريل لا يوافقون أن المقصود بكلمة (عبده) أن محمدا (ﷺ) عبد لجبريل لأن كلمة عبد تطلق على الشخص العابد (وليس لها دلالة كلمة slave) فالموجود الوحيد الذى يمكن ان يكون محمد عبدا له هوالله . ومن هنا فلابد أن أهل مكة قد فهموا من الآيات أن محمدا قد رأى ربه بالفعل had seen God himself ومن ثم فتلك عقيدة محمد (ﷺ) والمسلمين . فتفسير الرؤيا على هذا النحو أمر طبيعى للغاية ، لكن بمرور الوقت ومن خلال اتصال المسلمين

باليهود والمسيحيين وأيضا من خلال تأملات فى آيات اخرى تحقق المسلمون أنه لا يمكن أن يرى انسان هذا العالم ربه فالآية رقم ١٠٣ من السورة السادسة (الأنعام) تقرر ذلك :

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ...

وثمة تأكيد كذلك أنه خلال هذه الرؤيا كان هناك وحى تلقاه محمد . وقد استخدمنا هنا الفعل الانجليزى « reveal » وهو ترجمة للفعل العربى «أوحى» وهو فعل ورد فى القرآن كثيرا بمعناه الاصطلاحى المرتبط بوحى « نزل على محمد ﷺ أو أوحى اليه » لكن الفعل نفسه قد استخدم أيضا فى غير هذا المعنى الاصطلاحى ، ففى السورة ١٩ (مريم) نجد أن زكريا « أوحى » الى قومه أن يسبحوا ربهم (فخرج على قومه من المحراب فاوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) وقد تعنى الكلمة فى هذا السياق مجرد اشارة باليد أو الراس وقد يكون معناها « أعطى اشارة » أو « حدد علاقة » Signalled وفى الأشعار الجاهلية وجدنا أن « الوحى » يعنى « الكتابة » وغالبا ما كان يشار به للكتابة المحفورة على الحجر (★) . وثمة استخدام طريف يتجلى فى العبارة التالية « وحى العيون حديثها » أو « وحى العيون كلام » . ومعظم المفسرين والمترجمين يتعاملون مع معظم كلمات القرآن باعتبارها « مصطلحات » ذات دلالات خاصة technical ويترجمون

(★) فى لسان العرب (الوحى الاشارة والكتابة والرسالة والالهام والكلام الخفى وكل ما القيته الى غيرك .. وأوحى أيضا كتب ، ويجمع الوحى على وحى - بضم الواو وكسر الحاء وتشديد الياء وفتحها .. والوحى ما يكتب على الحجارة وينقش عليها .. الخ) - (المترجم) .

الفعل « أوحى » للانجليزية reveal ويترجمون « الوحى » بالكلمــــة الانجليزية revelation ولــكن رتشــادر بل Richard Bell ـ عــلى أية حال ـ لا يعتبر هــذه الكلمــة اصطلاحية تماما فى الاستخدام القرآنى ، ويفضل ترجمتها بالفعــل Suggest أما « الوحى » فيجعل له مقابلا انجليزيا suggestion ومن ثم فان « الــوحى » بمعنــاه الواســع يعنى مجرد اتصال Communication أو توصيل أو تبليغ وليس من الضرورى أن يكون ذلك عن طريق أى شىء محدد ودقيق « كالحديث » أو « الكلام » أو « المخاطبة » speech .

وتتضح صعوبة تفسير المصطلح القرآنى فى آيات أخرى ففى السورة ٤٢ (الشورى) نقرأ :

« وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب او يرسل رسولا ، فيوحى باذنه ما يشاء انه عليم حكيم (٥١) وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولــكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم (٥٢) » .

والمعنى الواضح من هاتين الأيتين أن هناك طرقا مختلفة أو وسائل مختلفة للوحى ، وهو الرأى الذى أخذ به علماء مسلمون فى فترات لاحقة وعبارة « من وراء حجاب » المحتمل أنهــا تعنى أن الوحى تم بهـــذه الطريقــة فانه لا يكــون مصحوبا برؤية الله (سبحانه) ومن ناحية أخرى فان الوحى اذا وصل (أو نزل) عن طريق رسول ففى وســع المرء أن يفترض رؤية هذا الرسول ، بافتراض انه ملك ، ولما كنــا نفتقد أى وصف لرؤية الملائكة فان هذا الفرض يصبح موضع

شك لكن هناك احتمال أن يكون محمد (ﷺ) علـــى وعى بوجود ملك على نحو غير مباشر . ويبدو محالا أن نصل الى معان محددة أكثر من ذلك من خلال الآيات القرآنية .

وثمة جانب أخر من جوانب الوحى يمــكن استخلاصـــه من الفعل (نزل) و (أنزل) وكلا الفعلين يمكن أن نضـــع لهما مقابلا انجليزيا هو Send down ، وقد ورد هـــذان الفعلان فى القرآن ثلاث مرات بمعنى أوحى ، والفعل أنزل أو نزل يعنى أن هناك رسلا يحملون رسالة أو وحيا من الله للأنبياء . وفى بعض الأحيان يجرى ذكر هــؤلاء الرســل ــ ببساطة ــ كملائكة كما فى الآيات التالية :

ــ « وما تنتزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا

ــ « وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا) مريم ــ ٦٤ ، والمقصود (بتنزل) أى الملائكة . وفى بعض الأحيان يرتبط الاســم الغامض أو الموجود الغــامض (الروح) بالمــلائكة ، فنحن نقرأ فى الآية الرابعة من السورة ٩٧ (القدر) :

ــ « تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر »

بل وفى بعض الأحيــان يذكر (الروح) بمفرده دون ذكر الملائكة ، كما فى الآية ١٠٢ من السورة ١٦ (النحل) :

ــ « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » .

وأخيرا فبعض الآيات تشــير الى جبريل باعتباره هــو الرسول الذى يأتى بالرسالة (ينزل بها) وهناك افتراض

أنه المقصود بالروح . وفى الآية ٩٧ من السورة الثانية (البقرة) نقرأ :

ـ « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » .

والنتيجة الرئيسية التى نخلص بها من كل هذه المناقشات هى أن التجربة النبوية (مع الوحى) لم تكن فى كل الأحوال واحدة (من النوع نفسه) وانما كانت تختلف من وقت الى وقت آخر . وعلى أية حال فقد اتخذت أخيرا (فى فترة متاخرة) شكلا واحدا . ويمكننا أن نوجز الملامح الرئيسية لهذه التجربة كالتالى :

١ ـ محمد (ﷺ) يشعر وهو فى حالة وعى أن هناك كلمات بعينها تلقى فى روعه أو تحضر فى قلبه أو عقله الواعى .

٢ ـ وأن هذه الكلمات والأفكار لم تكن أبدا نتيجة أى تفكير واع من جانبه .

٣ ـ انه يعتقد أن هذه الكلمات قد ألقيت فى روعه (عقله) من قبل « مندوب » أو « مبعوث » خارجى يتحدث اليه كملك .

٤ ـ انه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله تعالى .

هذه الملامح الأربعة الرئيسة موجودة فى كل حالات الوحى كما وردت فى القرآن الكريم ، مع وجود تحفظين provisos ، ففيما يتعلق بالملمح الأول وجدنا أنه فى بعض الحالات وصلت الكلمات الى عقل الرسول أو قلبه لأنه

« سمعها » heard them وفيما يتعلق بالملمح الثـالث فان « المبعوث » أو « المندوب » الخارجى لم يكن فى كل الأحـوال « ملكا » ، وربما كانت الملامح الأساسـية للـوحى يمـكن اختصارها فى العناصر الثلاثة الآتية : ان الكلمات المنزلة على محمـد (ﷺ) كانت تحضر فى عقله الـواعى ، وأن تفكيره الشخصى لم يكن له دور فى ذلك ، وأن يقينا جازما كان يتملك فؤاده أن هذه الكلمات هى من الله .

وهذه الملامح نفسها تتضح من خلال أحاديث الرسـول مع وجود بعض التفاصيل الأخرى ، ولن نتعرض بالتفصيل لأحاديث الرسول فيما يتعلق بالوحى فهى لا تضيف شـيئا جوهريا لما ورد فى القرآن (الكريم) بالاضافة الى أن معظم العلماء المسلمين المعاصرين باتوا يتشككون فى مثـل هـذه الأحاديث (أو بعضها بمعنى أنهم يعتبرونهـا موضـوعة) وهناك حديث يروى بأشكال مختلفة يفيد أن جبريل التقى بالرسول وعرفه بنفسه ذاكرا انه جبريل ، ثم أشار للرسول ذاكرا أنه ــ أى محمد ــ رسول الله ، ثم قال له : «اقرأ» فقال محمد « ما أقرأ ؟ » فقال جبريل (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم) وهذه الآيات تمثل بداية السورة ٩٦ (العلق) وهى السورة التى يعتقد أنها أول سورة نزلت، وربما أمكننا تصور ارتباط هـذه التجربة بالرؤية الأولى الواردة فى السـورة ٥٣ (النجم) (١) وقد ذكر الرسـول (ﷺ) أن الوحى كان يأتيه أحيانا « مثل صلصلة الجرس »

وأحيانا كان الملك يتخذ هيئة بشرية ويخاطب الرسول (ﷺ)، فيحفظ عن ظهر قلب ما يقوله ، وقد أخبرتنا زوجته

خديجة رضى الله عنها كيف انه اذا نزل عليه الوحى تصبب عرقا حتى فى اليوم الشديد برده(٢)، ومع أن الأحوال الفيزيقية الفيزيقية والنفسية المصاحبة للوحى مسألة شائقة ، وقد تكون موثقة لكن لا حاجة بنا لمناقشتها هنا فهى — حتى لو كانت أخبارها ثابتة موثقة لا تقدم لنا برهانا على أن محمدا (ﷺ) تلقى وحيه من السماء ، كما أنها ان كانت أخبارا غير موثقة فهى لا تصلح برهانا يدحض نبوته ·

ومن بين الملامح الثلاثة لتجربة الوحى التى مر بها محمد (ﷺ) فان الملمحين الأولين قد صيغا بالفعل فى مصطلحات محايدة ولم تتدخل فيهما التفاسير الا بدرجة قليلة ، فقد وجد محمد الكلمات أو المحتوى الشفهى حاضرا فى وعيه فلما تمت كتابته شكل النص القرآنى الذى بين أيدينا · وكان محمد واعيا تماما بأنه لا دخل لتفكيره الواعى فى هذه الرسالة القرآنية التى تصله ، وبتعبير آخر فقد كان يعتقد انه يمكنه أن يميز (أو يفصل) بين هذه الرسالة القرآنية وبين تفكيره الواعى ·

فوصف تجربة الوحى توقفت الى حد كبير عند المستوى السيكولوجى أما بقية الملمح — على أية حال — فهو الاعتقاد بأن المحتوى أو الرسالة قد أرسلها الله سبحانه ، فهذا أمر تفسيرى أو اجتهادى وليس لدينا عليه دليل حسى ، بل وربما ليس لدينا حتى امكانية تخيله · وربما كان مما يتمشى مع الطريقة الحديثة فى التفكير أن نقول ان « محتوى » الوحى وصل الى « شعور » محمد أو « وعيه » من « لا شعوره » · وقد تبدو هذه الصياغة محايدة نسبيا ، لكنها ببساطة

لا تصلح لأنها لم تدلنا على « مصدر » الوحى أو الجهة التى وصلنا منها • ومن ناحية أخرى فاننا اذا افترضنا صحة نظرية فرويد ويونج عن اللاشعور فاننا نكون قد أقحمنا عنصرا تفسيريا ، وقد أجلنا كل ما يتعلق بالجوانب السيكلوجية والتوحيدية theistic والتأويلية فى تجربة محمد مع الوحى الى الفصل التاسع • وتكون تداعيات افكارنا حتى هذا الفصل معتمدة على قبول الملمحين الأولين من تجربة محمد ﷺ مع الوحى ، وهو الأمر الذى يعنى أن القرآن الكريم لم يكن ـ بأية حال من الأحوال ـ نتاج تفكير محمد
« ... and were not in any way the product of his own thinking. »

وهذا يعنى أنه سيكون من الخطأ أن نقول فى مجال حديثنا عن آيات القرآن الكريم أن محمدا قال(★) ومن ناحية أخرى فانه يمكننا أن نفترض مع كل العلماء المسلمين ، انه مادامت الآيات القرآنية قد ظهرت فى عقل محمد وقلبه بطريقة غامضة فانه ـ أى محمد ـ قد قبلها على أنها حقائق ، ومن هنا فان القرآن يقدم لنا أضواء كاشفة على فكر محمد وأكثر من هذا فمادام القرآن يخاطب محمدا أو المسلمين أو معاصريهم من الوثنيين ، فمن المفترض أنه يقدم لنا طرائق تفكير هؤلاء الذين يخاطبهم •

٢ ـ امكانية المراجعة

لم يكن من الممكن أن تثار قضية مراجعة القرآن الكريم (اعادة النظر فيه) فى ضوء مفهوم الوحى كما نزل على محمد

(★) النص :
This will mean that if will be incorrect to say of a Quranic verse that muhammed Said Such and Such a thing ».

(ﷺ)، ذلك المفهوم الذى تحدثنا عنه آنفا(٣) • الا أن بعض الدارسين الأوربيين فى الماضى تحدثوا كما لو أن محمدا قد فعل ذلك ، وهذه الطريقة فى الحديث تدعو للأسف ، فهى طريقة غير علمية لم تضع فى اعتبارها الملامح الأساسية الظاهرة لتجربة محمد (ﷺ) فى تلقى الوحى • لكن فى مجتمعنا المعاصر الذى يسوده جو التداخل بين الأديان (interreligious) يحسن بغير المسلمين أن يتجنبوا الحديث والتفكير على هذا النحو ، ومع هذا تبقى عدة طرق للحديث عن امكانية « المراجعة » فى النص القرآنى ، وأبسط طريقة هى نزول وحى جديد يلحق بوحى سابق ، فعلى سبيل المثال من الممكن أن نتصور أن بعض الآيات التى تحوى نقدا لليهود والمسيحيين ، كانت فى الأساس موجهة ضد اليهود ، لأن مجتمع المسلمين فى المدينة شهد فى هذه المرحلة الباكرة معارضات يهودية كثيرة ، ولم يلق من الناحية العملية معارضات من المسيحيين ، لكن فى وقت لاحق عندما ظهرت المعارضة المسيحية كان هناك احتمال أن تنزل آيات أخرى (أو الآيات نفسها) مع اضافة المسيحيين (أو النصارى) وأثبت محمد (ﷺ) أو القائمون على جمع القرآن الكريم بعد ذلك الصيغة النهائية والكاملة للآية أو الآيات ، وما نقوله هنا مجرد استنتاج وليس لدينا ما يثبت أن ذلك قد حدث ، انه مجرد افتراض ، وعلى أية حال ، فليس فى هذا الافتراض شىء يناقض عقائد المسلمين الأساسية •

ويحدثنا القرآن الكريم ذاته عن عملية مساوية أو معادلة للمراجعة ، فهناك آيات بنى عليها الدارسون المسلمون نظرية « الناسخ والمنسوخ » theory of abrogation التى حققها الباحثون المسلمون • وتعنى هذه النظرية أن

بعض أوامر الله سبحانه الواردة فى القرآن (الكريم) كان المقصـود منها أن تطبق لفترة محـددة ، فالآيات الأولى من السورة ٧٣ (المزمل) تأمر المسلمين فى قضاء معظم الليل فى الصلاة ، وكان هذا مطلوبا فى مكة المكرمة ، أما وقد أصبح المسلمون فى المدينة فقد نزلت الآيات الأخيرة من السـورة فنسخت أياتها الأولى (الآيات التى فى صدرها) • وعلى أية حال ، فقد ظلت الآيات المنسوخة والآيات الناسخة معا فى النص القرآنى •

وقد ورد الفعل (نسـخ) بهـذا المعنى فى القرآن وقد أعطيناه مقابلا انجليزيا هو abrogate ، وان كان الفعل Cancel بمعناه العام يبدو أكثر ملاءمة •

ـ « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » البقرة / ١٠٦ •

ـ « وما أرسـلنا من قبلك من رسـول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحـكم الله آياته والله عليم حـكيم (٥٢) ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفى شقاق بعيد (٥٣) » الحج / ٥٢ ـ ٥٣ •

وقد استخدم بعض المترجمين فى ترجمة (اذا تمنى • الخ) الفعل الانجليزى recite لتصبح الصياغة الانجليزية هكذا : هكذا :

« Before you (Mohammad) we sent no messenger nor prophet, but that, when he recited (verses), Satan threw Something into his recitation, So God cancelled what Satan threw in, then God adjusts His verses ... »

والواقع أن الكلمتين recitation, recite ليستا مناسبتين للمعنى ، فهما فى هذا السياق يبدوان وكأنهما يشيران الى تجربة الوحى الخاصة بمحمد (ﷺ) ، ولكن التفسير الدقيق لا يؤكد هذا ٠

ـ النقطة الثانية فيما يتعلق بهذا الأمر عادة ما يتم توضيحها بقصة الآيات الشيطانية(٤) ومؤدى هذه القصة أنه بينما كان محمد (ﷺ) منشغلا بأمر تيسير دينه الجديد لأهل مكة ليقبلوا تلقى وحيا (سورة النجم / الآيتان ١٩ ـ ٢٠) :

ـ « افرأيتم اللات والعزى (١٩) ومناة الثالثة الأخرى (٢٠) ٠٠٠) فتدخل الشيطان وألقى على لسان الرسول هذه الكلمات (تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهم لترتجى) فاغتبر وثنيو مكة أن هذا ترخيص لهم بتوسيط اللاة والعزى ومناة بينهم وبين الله ، وأن شفاعة هذه الآلهة مطلوبة ٠ لكن سرعان ما اتضح أن هذا لا يتفق مع مبدأ التوحيد الاسلامى ، وتلقى الرسول الوحى الحقيقى الذى يكمل الآيتين كالتالى : (ألكم الذكر وله الأنثى (٢١) تلك اذن قسمة ضيزى (٢٢) ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى (٢٣) ٠٠) وأيات الغرانيق الشيطانية ليست مدرجة فى القرآن الكريم الآن مما يؤكد أنها لم تكن فى أى وقت من الأوقات جزءا منه ٠

وبصرف النظر عن هذه الأمثلة ذات الألفاظ الاصطلاحية (فعل نسخ) هناك آيات أخرى تحمل أفكارا شبيهة :

ـ « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»/ سورة ١٣ (الرعد) / آية ٣٩ .

ـ « واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون » النحل / ١٠١ .

ـ « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذى أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا » سورة ١٧ (الاسراء) آية ٨٦ .

ويقدم لنا القرآن (الكريم) تصورا لامكانيــة نسيان محمد (ﷺ) لبعض ما أوحى اليه ، وهذا لا يعنى ضعفا منه أو فشلا أو عدم قدرة على تحمل المسئولية وانما لا يكون ذلك الا بأمر الله (الآية ١٠٦ من سورة البقرة ـ سبق ايراد نصها فى الصفحات السابقة) وهناك آيات أخرى ذات دلالة منها :

ـ « سنقرئك فلا تنسى (٦) الا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى (٧) ... » سورة ٨٧ (الأعلى) .

ـ ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا (٢٣) الا أن يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا (٢٤) الكهف .

وبهذه الطرائق كان القرآن وبهــذا المعنى ـ خاضعا للمراجعة فالله سبحانه كان « يُنْسِى » ما يشاء من الآيات ، وكان « يمحو » ما يشاء « ويُثْبت » ، وكان « يَنْسَخُ » ما يشاء من آيات ويأتى بخير مما نَسَخَ أو مِثْله ، وهــكذا يصـــبح « الفرض » الذى فرضناه فى صدر هذه الفقرة من البحث عن امكانية مراجعة القرآن أمرا واقعا وان اســتخدم القــرآن الكريم ألفاظا اصطلاحية خاصة لهــذه المراجعة ، أوردناها ـ أى الألفاظ الاصطلاحية ـ آنفا .

وربما كان أهم ما فى الموضوع أن الوحى كان (يتكيف) أو (يتواءم) مع الحاجات المتغيرة للمجتمع وفى الوقت نفسه فان الاستجابة الايجابية الأولى التى أبداها المسلمون الأول للوحى الأول هى التى صاغت المجتمع الاسلامى . وطالما كان هذا المجتمع يتطور ويواجه الصعوبات فقد كان فى حاجة الى مزيد من التوجيه والارشاد وكان هذا يعنى مزيدا من الوحى يتلقاه النبى من وقت الى آخر . ماذا يمكننا أن نطلق على هذه العملية غير أنها عملية (مواءمة) أو (تكيف) بين الوحى وحياة المجتمع النامى ، انها بالتأكيد كذلك .

٣ ـ جمع القرآن

هناك مرويات مشهورة عن الجمع الأول للقرآن ، وأكثرها تداولا أن عمر بن الخطاب (الذى تولى الخلافة بعد ذلك فى الفترة من ٦٣٤ الى ٦٤٤م) لاحظ أن عددا كبيرا من القراء أو الحفاظ قد مات فى معركة اليمامة (حوالى ٦٣٣م) فخاف من ضياع بعض القرآن من الصدور ، فاقترح على أبى بكر الصديق (الخليفة يومئذ) أن يكلف بجمع القرآن ، فعهد أبو بكر بهذه المهمة الى زيد بن ثابت الذى شرع يجمعه من قطع البردى والأحجار البيض الرقاق وأصول الجريد والأكتاف والجلود وألواح الخشب وصدور الرجال فلما أتم الجمع فى أوراق Leaves متساوية الحجم دفع بها الى أبى بكر فلما حضرته الوفاة عهد بها الى عمر الذى عهد بها الى ابنته حفصة .

وظل هذا المجموع حتى سنة ٦٥٠م حيث حدث خلاف فى عهد عثمان بن عفان فى « النص » الذى يجب التقيد به ،

فعهد عثمان بن عفان الى زيد وثلاثة من أهـل مكة بنسـخ نسخة أخرى من المصحف الذى عند حفصة ، ثم أمر باعداد نسخ أخرى وتم ارسال نسخة الى المراكز الرئيسية فى الدولة الاسلامية وأمر باتلاف النسخ الأخرى.والمصـاحف التى بين أيدينا الآن هى النسخة الرسمية التى وزعها عثمان ، وعـلى أية حال فان كثيرا من بقايا مصاحف الفترة السـابقة عـلى مصحف عثمان ظلت باقية ، ولعل أشـهرها (أى المصـاحف السابقة على مصحف عثمان) هو مصحف ابن مسعود ، وثمة قراءات مختلفة من هذه المصاحف السابقة على مصحف عثمان أوردها المفسرون فى تفاسـيرهم · وقد درس البـاحثون المسلمون القراءات المختلفة فى المصاحف السابقة على مصحف عثمان وثمة كتاب مهم فى هذا الموضوع هو كتاب أبى بكر عبد الله بن داود سليمان بن الأشعث السجستانى (المتـوفى ٩٢٨م / ٣١٦هـ) والذى حققه وأشفعه بدراسة أرثر جفرى Arthur Jeffery نشرهـا فى مبحثـه عن تاريـخ القـرآن Materials for the history of the text of the Qura'n. الذى نشر فى ليدن سنة ١٩٣٧ ·

ومن الواضح أن النتيجة النهائية لكل هذه العملية التى وصفت أو سميت بأنها (جَمْع) هى وجود المصاحف التى بين آيدينا الآن · لكنه من غير الواضـح ماهيـة هـذه العملية بالضبط · وربما كانت كلمة (جمع) قد استخدمت لورودها فى آيات قرآنية مهمة ·

ــ « لا تحرك به لسانك لتعجل به (١٦) ان علينا جمعه وقرآنه (١٧) فاذا قرأناه فاتبع قرآنه (١٨) ثم ان علينـا بيانه (١٩) » سورة القيامة ·

ان كثيرا من المعـانى غامض فى هذه الآيات ، وواجه المفسرون المسلمون بعض الصعوبات فى ايجـاد تفسير لهـا فالمتواتر أنه لم يكن هناك جمع للقرآن قبل زيد ٠ وعلى أية حال فمن الممكن أن يكون التفسير الطبيعى لهذه الآيات أن محمدا (ﷺ) مادام يتبع تلاوة من يتلو عليـه (جبريل) فان الله متكفل بجمع الآيات المتفرقة أو التى أوحى بها فى أوقات مختلفة ليجعلها فى سياق واحد ٠ واذا لم يكن محمد (ﷺ) هو الذى رتب القرآن بناء عـلى وحى نزل عليـه ، فمن الصعب أن نتصور زيدا أو أى مسلم آخر يقوم بهـذا العمل ٠

ومن هنا فان كثيرا من السور قد اتخذت شكلها الذى هى عليه منذ أيام محمد نفسه ٠ وثمة اعتقاد أن هناك سـورة واحدة هى التى نزلت دفعة واحدة.لكن التحدى الذى وجهه القرآن الكريم لأعدائه (٥) بأن يأتوا بسورة من مثله يشير الى أن المسلمين ــ فى ذلك الوقت ــ كان لديهم بالفعل بعض السور القرآنية الكاملة (يفترض أنها محفوظة فى صدورهم) وأن محمدا (ﷺ) قد جمع هذه السور من آيات متفرقات سبق أن نزلت ٠ وهذا لا ينفى جهد زيد ، فحتى لو أن أربعة أخماس القرآن قد جرى ترتيب آياته زمن محمد (ﷺ) فربما وجد زيد عددا كبيرا من النصوص (السور) التى تتألف السورة منها من آيتين أو ثلاث ولم يكن أمر تجميع أو ترتيب هـذه النصوص بالأمر السهل ، كما كانت هناك صعوبة فى سور يحفظها الرجال « المحفوظة فى صدور الرجال » حيث كانت بدايات السور واحدة ــ أحيانا ــ ونهاياتها فيهـا شىء من الاختلاف عن بداياتها ، وهو أمر يمكن أن يدركه القارىء المعاصر ، ومن المفترض أن هناك وحيا بدأ بالطريقة نفسها

لكنه انتهى بشكل مختلف (★) ، وكان من أعمال الجامعين أيضا ترتيب السور ، وأن كانت الكتابات التى تناولت مصحف ابن مسعود قررت أن السور فيه كانت مرتبة ترتيبا مختلفا .

وليس من الضرورى أن نناقش بالتفصيل هنا مصداقية الروايات عن عمليتى « الجمع » التى تعرض لها القرآن . فالدارسون الأوربيون المعاصرون يشككون كثيرا فيما يتعلق بعملية « الجمع » التى تمت فى عهد أبى بكر الصديق ، خاصة فيما يتعلق بأن « الصحف » Leaves التى أودعت لدى حفصة أخيرا لم تكن هى النسخة المعتمدة أو الرسمية official بأى حال من الأحوال . خاصة وأنه كان على زيد أن يجمع كثيرا من النصوص أو الآيات المتفرقة ، وأن هذا الجمع أو هذه النصوص لم تكن رسمية (أو معتمدة). كل هذا — بلا شك — أوقع على عاتق زيد مهاما ثقيلة قبل أن يكون مصحف عثمان جاهزا (قبل أن يصبح النص العثمانى) جاهزا ، وكان من بين أعمال المعاونين المكيين لزيد هو استيعاب (هضم) اللهجات المغايرة فى لهجة قريش . وما يجب التركيز عليه هنا هو أن الوعى بالحاجة الى نص قرآنى محدد يعد فى حد ذاته بمثابة اعتراف بأهمية الدور الذى يلعبه القرآن فى حياة المجتمع . ولم يكن لدى الرجال المسئولين عن ادارة أمور الدولة الاسلامية الوليدة سريعة التوسع وقت للتمعن الأكاديمى وانما كانوا فى حاجة ماسة لنص قرآنى محدد لأنهم تحققوا من أن مجتمع المسلمين كان يعتمد فى تجاوبه المستمر على النص القرآنى الموحى من الله .

(★) المعنى غير واضح .
Presumably there were in fact revelations which begun in the same way but ended differently.

ومع أن مصحف عثمان لم يحذف منه شيء مما كان فى المصاحف السابقة فانه لاقى قبولا عاما من المسلمين ، وعلى أية حال ، فبمرور الوقت ظهرت اختلافات كثيرة فى قراءات مصحف عثمان . ويرجع ذلك تقريبا الى طبيعة الكتابة العربية فى هذه الفترة ، فلم تكن تكتب الا الحروف الصامتة ولم تكن الكتابة منقوطة للتمييز بين الحروف المتشابهة فى رسمها مما فتح الطريق للقراءات المختلفة ، كما أن أواخر الآيات لم يكن محددا بعلامات خاصة ، لكن بمرور الوقت تحسنت الكتابة العربية وكتبت المصاحف بخط أكثر انضباطا لكن قبل ذلك حدثت خلافات فى القراءات أصبحت بشكل عام مقبولة على نطاق واسع . وقد وصف ابن مجاهد (المتوفى ٩٣٥) التطورات الحادثة فى هذا المجال حتى استقرار الأمر عند سبع قراءات معتمدة واعتمدت أيضا ثلاث قراءات أخرى ، الا أن قراءة عاصم عن حفص أصبحت هى الأكثر انتشارا .

وأخيرا يجب التركيز على أنه رغم كثرة القراءات فان أيا منها لم يؤد الى جنوح معانى القرآن بحيث تجعلها بعيدة عن المعانى المفهومة من القراءات الأخرى .

والشيء نفسه يمكن أن يقال بشأن المصاحف السابقة على مصحف عثمان فلم تكن الخلافات بينها وبين مصحف عثمان ذات شأن بحيث تحدث ردود أفعال مختلفة فى المجتمع الاسلامى ، وقد أشرنا سابقا لدراسة جفرى عن هذه المصاحف ، وسرى اتجاه بامكانية قراءة القرآن الكريم بأى طريقة كانت بحيث تتطابق مع الحروف الصامتة المكتوبة لكن هذا الاتجاه لاقى اعتراضا وأصبح من غير المسموح أن يقرأ أحد بغير واحدة من القراءات المعتمدة المشار اليها آنفا .

قروض الـوحى القرآنى

١ ـ مضامين القرآن العربى

وردت عبارة « قرآنا عربيا » فى القرآن الكريم نفسه ، خمس مرات للدلالة على الوحى النازل عـلى محمد (ﷺ) ، ولهذه العبارة « مضامين » لم يحققهـا المسـلمون حتى الآن تحقيقا كاملا ، لكنها ـ أى هذه العبارة ـ ذات أهمية كبرى فى عالمنا المعاصر المتداخل الأديان interreligious world فالنقطة الأساسية هى أن القرآن (الكريم) يخاطب من خلال محمد ـ شعبا يفهم العربية ومن ثم لابد أن يكون واضحا لهـم ، وهذا يعنى أكثر كثيرا من مجرد استخدام الكلمات التى كانت معروفة للعرب فى بواكير القرن السادس للميلاد · فكل حياة العرب متضمنة (بتشـديد الميم وفتحها) فى اسـتخدامهم للغة ، خاصة كوسيط ثقافى وفكرى ، وكوسـيلة تحـدد طريقتهم المحددة فى التفـكير ، ونظرتهم الخاصـة للعـالم وقيمهم الخلقية والجمالية ، بل وأفكارهم التاريخية · لقـد اتفق الباحثون المسلمون منذ مدة طويلة عـلى أن القـرآن (الكريم) نص غير قابل للترجمة ، وعندما يفكر المرء فى كثير من الجوانب الفريدة لحياة العرب ، فانه قد يتفق مـع الباحثين المسلمين فى هذا الرأى ، فالفهـم الأصـيل للقرآن يتطلب تآلفا وتفاعلا مع طبيعة الحيـاة العربيـة خاصة فى الصحراء كما يتطلب تفهما لطرائق العرب فى التفكير ·

فكل لغة تحتفظ بتجارب الماضى التى تطورت فى نطاق بنية ثقافية لها خصائصها • واللغة العربية — على نحو خاص — ارتبطت ارتباطا وثيقا بحياة العرب فى الصحراء بكل ما فيها من مفاجآت وتقلبات وصعوبات تجعل أهلها قادرين على تحمل المشاق ، كما تحتم عليهم ضرورة الترابط فى مجموعات عشائرية kin-groups ، لكن اللغة العربية ليست مرتبطة بحياة الصحراء فحسب ، أو بتعبير آخر ليست لغة صحراوية بالمعنى الضيق للكلمة ، فالروايات التى لا تخلو من حقائق تخبرنا عن حياة زراعية باكرة قبل أن تشرع المنطقة فى التصحر ، كما تخبرنا عن انهيار نظام الرى فى اليمن وهجرة قبائل مختلفة من هذا اليمن الذى كان سعيدا • وهذه التجارب لابد أن نفترض أنها تركت آثارا فى مضامين الكلمات المختلفة ، كما أن كثيرا من العرب ارتبطوا بالأعمال التجارية ، فقد كان تجار مكة الكبار يتحكمون فى القوافل التى كانت تتجه بانتظام الى الشام والى اليمن ، وارتبطت القوافل المتجهة الى اليمن بطرق التجارة المتجهة الى جزر الهند والمتجهة الى شرق أفريقيا ، وقد تركت هذه التجارة أيضا بصماتها على اللغة العربية •

وعلى هذا فاللغة العربية قد ارتبطت بوسط ثقافى خاص يمتاز بكثير من الملامح التى تميزه عن الأوساط الثقافية الأخرى • وهذه الحقيقة ذات أهمية كبرى خاصة فى عالم متداخل الأديان ، انها تمنى انه لا وجود « لانسان معيارى» Standard » man » انما هناك أناس معياريون Standard men •• أى أن هناك أنماط كثيرة معيارية يمثل كل نمط منها منطقة ثقافية أو حضارية محددة ، وحتى فى العالم الاسلامى هناك اختلافات محلية داخل الكيان

الثقافى الواحد ، حتى أن الذين يوجهون للعالم الاسلامى نقدا غير ودى يقولون ان هذا التباين أكثر ما يكون وضوحا فى الاسلام حتى انه يمكن القول أن لكل بلد اسلامى اسلامه «الخاص» أو بتعبير آخر هناك اسلام «مختلف» فى كل دولة اسلامية عن اسلام الدول الأخرى • وفى بعض الأحيان فان هذه الاختلافات قد تعبر عن نفسها على شكل مذاهب ، وفى أحيان أخرى تعبر عن نفسها بأشكال أخرى • وحتى المتحدثون باللغة العربية يختلفون من بلد الى بلد ، فنطق القاهرى ابن الطبقة الوسطى يختلف بشكل واضح عن ساكن مدينة فى وسط شبه الجزيرة العربية كالرياض أو حائل • لكن لأغراض هذه الدراسة نجد من الضرورى أن نتغاضى عن مثل هذه الاختلافات فى نطاق البيئة الثقافية العربية ، فاهتمامنا الأساسى هو « ما هو عام » بين كل العرب أو على الأقل بين المسلمين المتحدثين باللغة العربية •

يؤكد القرآن (الكريم) أن الرسالة التى حملها محمد (ﷺ) لشعبه كانت هى نفسها الرسالة التى حملها الأنبياء الآخرون لشعوبهم ، وعلى أية حال فان هذا التماثل ينطبق على أساسيات الرسالة كالايمان بالله واليوم الآخر وبالأنبياء والملائكة والكتب المنزلة وقد يرجع بعض الباحثين والعلماء المسلمين الاختلاف بين القرآن (الكريم) وكل من العهدين القديم والجديد الى « التحريف Corruption » الذى أحدثه اليهود والنصارى فى كتبهم ، لكن يبدو أن ما ذكره القرآن (الكريم) نفسه عن هذا « التحريف » أقل كثيرا مما ورد فى نظريات العلماء المسلمين المتأخرين (١) • وعلى أية حال ، فبصرف النظر تماما عن هذه النظرية فان القرآن (الكريم) يوضح بجلاء أنه ليس مجرد تكرار للمحتوى

التفصيلى للكتب السماوية الأخرى فكثير مما ورد فى القرآن موجه أساسا للعرب ، فالسورة رقم ١٠٦ (سورة قريش) تخاطب ــ على نحو خاص ــ قبيلة قريش ، وكثير من آيات القرآن توضح للمسلمين الحوادث المختلفة التى مرت بالمجتمع الاسلامى الأول كالانتصار الكبير فى بدر ، والتراجع فى أحد ، والمسلك الشائن للبدو وغير ذلك • وهـذه كلهـا اشارات للأحداث والمواقف التى شهدها الاسلام في مرحلته الأولى ولا يمكن أن تكون تكرارا لما ورد فى الكتب السماوية السابقة •

والمشكلة الأساسية هنا هى الصلة بين « العالمية المقدسة » و « الخصوصية البشرية » ، لكن هذه المشكلة يمكن أن تعرض بشكل آخر يحلها فلا تعود مشكلة ، فقد يقال مثلا ان القرآن قد تناول أحداثا محددة حدثت زمن النبى لأنها أحداث يجرى مثلها فى التجربة الانسانية عامة • وبذلك يمكن القول ان الاشارات القرآنية « الخاصة » أو « اللصيقة » بالعرب لا تنفى أنه عالمى النزعة أو ذو طبيعة عالمية • فالقرآن يخاطب البشر عامة وليس الانسان العربى فى الوسط الثقافى أو الحضارى العربى فحسب • وتلك حجة قوية لأن الاسلام قد انتشر بالفعل انتشارا واسعا خارج نطاق الوسط الثقافى العربى بمعناه الضيق أو الأصلى فاعتنقته أجناس مختلفة من أوساط ثقافية مختلفة • وعلى أية حال فهناك رد مختصر على القول بأن الاسلام دين للناس كافة ، اذ أن هناك مناطق ثقافية (حضارية) لازالت تسودها أديان كبرى غير الاسلام • وليس من المحال ــ بطبيعة الحال ــ أن يأتى يوم يتحول سكان هذه المناطق فى غالبيتهم الى الاسلام، لكنه من الممكن أيضا أن يفشل الاسلام فى اقامة أى مركز

حقيقى له فى هذه الأنحاء • وعلى أية حال فان الاسـلام قد تخطى حدود المنطقة العربيـة فى المـاضى وانتشر خـلالها انتشارا واسعا ، وليس هناك فى الحقيقة ما يشير الى عـدم امكانية تحقيقه لمزيد من الانتشار •

وعلى أية حال فثمـة عنصران يجب أن نضـعهما فى الاعتبار هنا فيما يتعلق بانتشار الاسلام فى الماضى • أحدهما هو احتمال أن تكون المناطق غير العربيـة التى انتشر فيهـا الاسلام كانت ــ من الناحية الثقافيـة ــ شـبيهة بالمنـاطق العربية ، وهل سهل هذا ــ لو كان حقيقيا ــ عملية انتشار الاسلام ؟ والعنصر الثـانى هـو الحقيقة المـؤكدة والتى لا يعتريهـا شـك والتى مُؤدّاها أنه فى المناطق التى سـاد فيها الاسلام تأثرت الثقـافة المحليـة تأثرا كبيرا بالثقـافة العربية بل وأخلت مكانها لهذه الثقافة العربية ــ أى حلت الثقافة العربية محل الثقافة المحلية • وفيما يتعلق بالعنصر الأول فمن الواضح أن تباينا ثقافيـا معينا سيعوق عمليـة انتشار الاسلام

It is obvious that certain cultural dissimilarities will hinder the spread of Islam.

ولنضرب أمثلة ، فهناك قبائل بعينها فى شرق أفريقيـا تعتقد أن عملية الختـان تؤثر سـلبا على الطاقة الجنسـية للرجل ، واذا استمر الاعتقاد فى هذا الأمر ، لصعب عـلى الرجال اعتناق الإسلام ، وعلى مستوى أعمق يبدو أن الذين يعتنقون مبـدأ الثّنْوية الذى يعنى أن الانسـان زوح يغلفها جسـد dualistic Conception سيجدون صعوبة فى تقبل التعاليم القرآنية المبنية على أساس أن الانسان كل واحـد monistic بحيث لا يقل الجسـد أهميـة عن الروح •

حقيقة أن بعض المسلمين ـ بمرور الوقت ـ قد تقبل الفلسفة اليونانية التى سادت فكرة الثنوية فيها ، لكن النظريات اليونانية ـ فى خاتمة المطاف ـ لم تكن مقبولة لجمهور المسلمين • نخلص من هذا الى أن هناك مناطق ثقافية بعينها كانت أكثر ترحيبا بالاسلام من مناطق أخرى ، لكن العنصر الأول ليس منفصلا تماما عن الثانى •

ان انتشار ما يمكن تسميته بالعقلية القرآنية فى المناطق التى سادها الاسلام ظاهرة جديرة بالدراسة التفصيلية تماما كدراسة التطورات المقارنة فى المناطق الثقافية الأخرى • فقد أدى التوسع العسكرى للعرب الى انتشار الجنس العربى خاصة عندما ساد الانتماء الأبوى وحده « when only descent in the male line was taken into account ».

وانتشرت أيضا اللغة العربية حتى بين أولئك الذين لم يدّعوا انحدارهم من أصول عربية كما انتشرت بين غير المسلمين كقبط مصر ، وحتى المسلمين الذين احتفظوا بلغاتهم الأصلية دخلت مفردات عربية كثيرة اليها ، وهذا واضح فى التركية والفارسية والأوردية والمالاوية والسواحلية ولغة الحوصة (الهوسا) ، وهؤلاء المسلمون الذين احتفظوا بلغاتهم الأصلية لابد أنهم احتفظوا بجانب ذلك بشىء من عقليتهم الأولى (طريقة تفكيرهم الأولى) ، ولا نستطيع أن نتحدث كثيرا وبالتفصيل عن ذلك حتى نقوم ويقوم غيرنا بمزيد من الدراسات المفصّلة فى هذا الموضوع ، لكن الحقيقة أن هناك انطباعا لدى الباحثين أن هناك عَبْر العالم الاسلامى كله ما يمكن أن نعتبره على نحو ما عقلية اسلامية عامة Common islamic mentality

نخلص من كل هذا الى وجود منطقة أو نطاق ثقافى محدد وواضح يختلف فى بقية المناطق أو النطاقات الثقافية الأخرى فى عالمنا المعاصر • ونقصد بهذا النطاق الثقافى المحدد والواضح ذلك النطاق الذى صاغ ثقافته اللغة العربية وظهر فيه القرآن العربى للمرة الأولى • ففى هذا النطاق بدأ الاسلام دينا أكثر قبولا وأكثر بعثا على الرضا من الأديان الأخرى فكان بالفعل دينا ملائما لعقليتهم ، وهذا لا يدعو للدهشة مادام الدين يساعد فى تشكيل « العقلية » أو تكوينها • وما هو مهم بالنسبة لدراستنا هذه هو العلاقة بين القرآن وهذه العقلية الاسلامية خاصة علاقته بالعقلية العربية التى تطورت منها العقلية الاسلامية ، فعلاقة القرآن الخاصة بالعقلية العربية واضحة من الصياغة التى وصف بها القرآن فى القرآن ذاته ، « قرآنا عربيا » •

واذا قبضنا بشدة على هذه الحقيقة « كون القرآن يخاطب فى المقام الأول عرب بواكير القرن السابع للميلاد » لأمكننا أن نسرد « مصادر sources » • الفكر القرآنى التى لابد أن المسلمين كانوا أقل معارضة لها اذا قارناهم بالدارسين الأوربيين فى أزمنة سابقة ، وقد يقال ان الباحثين فى القرن التاسع عشر ربما تنتابهم الهواجس ويعتريهم القلق عندما يشرعون فى البحث فى موضوع المصادر « المقصود مصادر القرآن الكريم » (★) • لقد كانت فكرة التطوير بلا أساس ، وبسبب تشوش فى الأفكار ، ذى اتجاه خاص،كان هناك افتراض انك اذا بحثت فى أصل الأشياء أو ظهر لك منشؤها واتضحت لك جذورها فانك

(★) ما بين القوسين توضيح من المترجم •

تكون قد امتلكت مفاتيح مهمة تفتح لك ابوابا تفضى الى حقيقتها ومعرفة كنهها • ان المغالطة الكامنة فى هذه النظرة تتضح اذا نظرنا الى « مصادر » شكسبير مثلا فى هملت Hamlet — القصة — وهى المادة التى يفترض أنه قرأها • وعندما نقارن « المصادر » بالعمل النهائى ، فانه سيكون لدينا امكانية النظر بعمق أكثر لعمل شكسبير ، كما سيزداد تقديرنا لعبقريته ، لكن شيئا — بالفعل — لم يُضف الى تقديرنا للمسرحية ذاتها •

ان شيئا كهذا ينطبق على القرآن (الكريم) يؤيد أن نضع فى عقولنا أنه — أى القرآن — لا ينبغى النظر اليه باعتباره نتاج عبقرية بشرية • وهذا يعنى أننا لا نستطيع الحديث عن « مصادر » القرآن نفسه ، ومن ناحية أخرى ، فمادام القرآن موجها — فى الأساس — للعرب المعاصرين لمحمد (ﷺ) ، فمن المنطقى أن نسأل — حتى من وجهة نظر مسلم حسن الاسلام — الى أى مدى تأثرت العقلية العربية المعاصرة لمحمد (ﷺ) بالأفكار اليهودية والمسيحية ، أو غيرها من الافكار التى كانت موجودة فى الشرق الأوسط آنئذ ؟ لقد كان عرب كثيرون على اتصال بالامبراطورية البيزنطية على نحو أو آخر ، وكانوا — بلا شك — قد تعرفوا من خلال هذه الصلات على الأفكار اليونانية والفكر المسيحى ، ويمكن أيضا تتبع التأثيرات الفارسية فى لغة الشعر الجاهلى ، وتعلم أهل المدينة أشياء كثيرة من اليهود المستقرين هناك • فهذه « المصادر » التى كونت العقلية العربية قبل الاسلام لا تخبرنا بالكثير عن هذه العقلية ، لكنها تسهم — قليلا — فى فهمنا للعمليات الثقافية فى هذا العصر • انها لا تدلنا على شىء يساعدنا لمعرفة كيفية (نزول) القرآن على محمد ،

وعلى أية حال فلابد من الافتراض أن القـرآن وهـو يوجه خطابا للعرب فى موقعهم هذا ، قد تأثروا على نحو ما بأفكار يهودية ومسيحية ، وأنهم كانوا على وعى بالحضارات الكبرى خارج شـبه الجـزيرة العربيـة ، وعيا يشـوبه شىء من الغموض ٠

٢ ـ فـروض نمطيـة

يمـكن تمييز العقلية العربية عن غيرها من العقليـات ـ التى هى بدورها مختلفـة بعضـها عن بعضـها الآخر ـ بالافتراضـات النمطيـة Categorial presuppositions وهذه الفروض ليست موضوعا متصلا بمحتوى تفكير العرب، وانما بطريقـة التفـكير أو بالقـوالب التى يتقـولب فيها التفـكير ٠ فقوالب الأفكار هـذه عامة جـدا So general حتى أن الانسـان العـادى الذى يعيش فى مجتمع له نفس عقليته ـ لا يكون فى العادة واعيا بالدور الذى تلعبه هـذه القوالب التى يصب فيها تفكيره فى مسـار فكرى أو بتعبير آخر لا يكون واعيا بتأثير هذه القولبـة فى تفـكيره ٠ وقد ينطبق هذا مع بعض التجاوز على الباحثين الأكاديميين ٠ وفى عالمنا المعـاصر ـ عـلى أية حال ـ حيث يلتقى المـرء ببشر كثيرين من أوساط ثقافية مختلفة نجد أن المناقشات تطول والحجج تتعارض الى أن يتحقق المختلفون من أن اختلافاتهم الأساسية تعود الى اختلافهم فى « قوالب » التفـكير ، انهـا اختلافات نمطية Categorial ones بالمعنى الذى شرحناه هنا ٠ لذا فلابد من النظر للصفحات التالية باعتبارها مقالا مبدئيا فى هذا المجال (قوالب التفكير أو نمطياته) وسنشرح بعض نقاط هذا الموضوع من خلال القرآن الكريم بينما بعضـها

الأخـر كالاتجـاه الى الاتســاق المنطقى Logical consistency لم يظهر ـ حقيقة ـ الا فى فترة متأخرة • ومن الطبيعى أن كثيرا من عناصر هذا الموضوع سترتبط ارتباطا وثيقا بملامح النحو العربى (خصائص القواعد اللغوية فى اللغة العربية) •

ويمكننا أن نعطى أولوية « للعلاقات الشـخصية » فى التفـكير العربى • فالأوربيون الذين لهم صـلات بالعـرب حتى من الـذين يقطنـــون المـــدن الـــكبرى فى الشرق الأوسط يلاحظون أنهم أكثر وعيـا وحساسية بالعـلاقات الشخصية من الأوربيين العاديين ، وقد يكون هـذا راجعـا ـ بطبيعة الحال ـ الى أنهـم كأمة لم يعيشـوا مادية المجتمع التكنولوجى المتقدم ، وربما لا يكـون عبثـا أن نضـع فى اعتبارنا الظاهرة النحـوية كمؤشر لشىء يبـدو أساسيا فى العقلية العربية ، فالجملة الانجليزية البسيطة (He brought the thing to John) تصبح فى العربية (he come to John with the thing) أى (أتاه بشىء) ومن المعتاد فى العربيـة استخدام أفعال القـدوم أو الاتيان والذهاب مع الشـخص كهدف مباشر • واذا جاز لنا أن نعمم من هذا لقلنا انه اذا كان نشاطى أو عملى يؤثر فى « شخص » و « شىء » فالأولوية هنا «للشخص» باعتباره هدفا مباشرا للفعل direct object of the verb أو « باعثـا مباشرا للفعـل » أو « مفعولا به أول للفعل » فى حين يعتبر « الشىء » هو الباعث الثـانوى أو غير المباشر أو هو « المفعول به الثانى » « indirect object » وفى الانجليزية ـ من ناحيـة أخـرى ـ تعطى الأولـوية « للشىء » ثم ياتى « الشـخص » فى المقـام الثانى ، لـكن هنـاك ـ بطبيعة الحـال ـ امكانيـة أن نقول بالانجليزية (He approached John with a gift) لـكن معظم الأفعـال

البسيطة الخاصة بالحركة هي أفعال لازمة (غير متعدية intransitive) وفي هذه الحالات تبدو اللغة العربية أكثر اهتماما بالتوجه للشخص وأقل احتفاء « بالشيء » من الانجليزية ، ولابد أن هذا الاتجاه النحوى يرجع فى جذوره للفكرة الأساسية السائدة فى العلاقات البشرية (أو النشاط الانسانى العربى) *.

وربما ارتبط بهذا الاختلاف التخليل العربى للجانب المؤقت للنشاط (أو العمل) كما يتبدى فى نظام الأزمنة فى النحو ، فنحن الأوزبيين نميل الى التفكير فى الزمن فى فئات (أنماط) الماضى والحاضر والمستقبل ونجد هذه الصيغ أو الأزمنة أو الأنماط النحوية أو الفئات الزمنية فى صيغنا النحوية .

وقد يوصف هذا كفكرة خطية أو رياضية للزمن linear or mathematical conception of time

والآن فانه يمكننا مع بعض التجاوز أن نحلل الصيغ النحوية العربية المتعلقة بالزمن الى ماض ومضارع ومستقبل ، لكن اذا بدأ المرء بالصيغ نفسها فانها ستقوده (أو توجهه أو تؤدى به) الى تحليل مختلف تماما ، أعنى تحليلا فى « الفعل الكامل » Completed action والفعل غير الكامل incompleted action ، أو « التام » و « غير التام » ، فالصيغ التى تشير الى « الفعل غير التام » يمكن استخدامها لتشير الى الماضى والحاضر والمستقبل ، والصيغ التى تشير الى « الفعل أو الحدث التام » يمكن استخدامها للمستقبل اذا

(★) النص In these cases, then, Arabic would appear to be more person-directed and less thing-directed than English.

اعتبر هذا الفعل (فى المستقبل) بمثابة الفعل الذى تحقق بالفعـل (مع أنه فى المسـتقبل) من منطلق أنه سـيتحقق لا محالة · وكنقيض للمفهوم الأوربى المجرد للزمن ، فان هذا التحليـل يبدو معتمـدا على فكرة الزمنى التجريبى أو الزمن كما أثبتته التجربة أو مفهـوم المتحـدث عن الزمن experienced time (وهو عكس المفهوم الأوربى المجرد عن الزمن الذى تحدثنـا عنـه لتـونا) ففى مضمار التجـربة الانسـانية هنـاك زمن التخطيط (أو الاعداد planning) وزمن الانجاز أو التنفيذ ، أو ــ بشكل أعم ــ زمن لم تكن الحياة فيه محددة أو معروفة ، وزمن تحددت فيـه الحيـاة وأصبحت معروفة ، المرء قد يحاول الربط ــ شيئا ما ــ بين هـذه الأفكار وحيـاة العـرب فى الصـحراء حيث الخطط ــ غالبا ــ ما يتضح أنها كانت خطأ فانبثق عن ذلك فكرة أن التخطيط الكثير أمر لا فائدة منه (لا جدوى من التخطيط) وأن هناك فاصلا حادا بين مرحلة الاعداد ومرحلة التنفيذ أو بين الوجود أو الحياة فى مرحلة التصور ، والوجود أو الحياة فى مرحلة الواقع indeterminate &determined

وثمة بعد آخر للنشـاط الانسـانى وهو الفصل بين ما هو مبنى للمعلوم active وما هو مبنى للمجهول passive وربما كان هناك وعى أساسى فى الصحراء بأن ثمة حدودا ضيقة يمكن للانسان أن يكون فيها فعالا أو بتعبير آخر هناك وعى واضح بالضعف البشرى أو بعدم امكانية الانسان عـلى فعل الكثير ، فنحن فى أوربا نعتقـد أن « الانسـان يقترح لكن الله هو يقدر ويقرر » man proposes, but God disposes لكن خبرة العربى وتجاربه تجعل هـذا المثـل الأوربى أبعد ما يكون عن التحقيق ، فالعربى يعتقـد أن رزق الانسـان

محدد سلفا (مقدر) وكذلك اجله (موعـد وفاته) ومهما بذل الانسان من جهد فذلك لن يغير من أمر الرزق أو الأجل شيئا • ولابد ان هذه التجربة قد أثرت فى مجمل الأفكار عن كون الانسان فاعلا acting أو كونه مؤثرا أو أداة قوة being

agent ، فالفاعل أو المؤثر يسهم بقيامه بعمل شيء ما بتحويل الخطة الى انجاز أو الفكرة الى عمـل أو المشروع الى واقـع « by which indeterminate passes into determined ».

لكن الانجاز المتحقق أو العملى الناتج عن فكرة لا يكون بالضرورة محققا لغايات وأهداف الفاعل agent • وربمـا تفسر لنا هذه الفكرة معنى « المسئولية » كما هى سائدة بين كثير من المسلمين ، فالمسئولية عند هؤلاء مسألة « شكلية » أو « خارجيـة » أو « فيزيقيـة » external or physical وحتى اليوم فانه اذا سار سائق التاكسى فوق طفل (صدمه) فان هـذا يعتبر حدثا عاديا وسيتطوع كثيرون قائلين بأن ما حدث هو خطأ الطفل ، ولأن سائق التاكسى سيتحتم عليه دفع الدية blood money حتى لو أدت الصدمة الى الوفاة •

وثمـة ملمح لافت للنظر عن الصيغ الفعليـة فى اللغة العربيـة (أو صـيغ الـكلام (verbal forms) التى تقابلها الصـيغة التى نسمـيها فى الانجليزية Passive (وفقا لسـياق المعنى كمـا يريده المـؤلف فان تعبير المبنى للمجهـول لا يصـلح ترجمـة للكلمة الانجليزية Passive المترجم) فهذه الصيغة لا يستخدمها ألعربى الا اذا كان الفاعل مجهولا ، ومن هنا فان جملة (قتل زيد ـ بضم القاف) تترجم عادة بالجملة الانجليزية (Zlayd was killed) لكن الأفضل ترجمتها بالجملة الانجليزية التالية (Someone killed Zayd)

واذا أراد أحد أن يذكر اسم القاتل فانه لا يستخدم هذه الصياغة ، فلا أحد يمكنه أن يقول بالعربية (قتل زيد بواسطة أسود) وانما ينبغى له أن يستخدم الفعل المبنى للمعلوم (قتل أسود زيدا) ، وقد تكون هناك صلة بين هذه النقطة التى نتناولها ونقطة تناولناها قبل ذلك وهى (الأولوية للشخص لا للشىء) ، فأن نقول (بواسطة زيد) فاننا بذلك نكون وكأننا نعامل زيدا كما لو كان (أداة) أو (آلة) • ما معنى هذا ؟ أو ماذا يمكن أن يكون متضمنا فى هذه الفكرة ؟ ان قدرة الانسان يمكن النظر اليها أو التفكير فها كشىء منفصل دون الرجوع الى أهدافه أو غاياته أو بتعبير آخر أن سعى الانسان لا علاقة له بنجاحه •

وارتبطت القوالب والأنماط الفكرية كذلك بمفهوم الانضباط أو الانتظام من ناحية والفوضى أو الصدفة أو عدم الانضباط من ناحية أخرى • فعلى عكس الناس فى المجتمعات الزراعية التى تعتمد على الدورات الزراعية والفصول نجد أن البدوى العربى يبدو أقل وعيا بانضباط الطبيعة ، فالأمطار فى شبه الجزيرة العربية ليس لها قاعدة ، وقد تكون كثيرة فى أحد الوديان شحيحة فى واد آخر غير بعيد عن الوادى الذى غمرته المياه ، وقد يعترى المنطقة جفاف فى العام التالى • لذا فحركة البدو تختلف من عام الى عام ، وفى ظل هذه الظروف لا يدهش المرء من كونهم ـ أى العرب ـ على دراية قليلة بانضباط الطبيعة واتساقها وقوانينها •

وقد يكون غياب فكرة الانضباط سببا فى ظهور نمط التفكير الذرى أو الجزئى أو غير المترابط Atomistic الذى ظهر فى التفكير الاسلامى فى حقب متأخرة ، وهذا الاتجاه الذرى ينحو بصاحبه الى النظر للاحداث فرادى

منعزلة ، لا كجزء من عمليــة مستمرة • انه ينظر للحــدث
كشيء انبثق هكذا فجأة ومن فراغ وبشكل منفصل أو منعزل
عن غيره ، فالتفكير الذرى أو الجزئى فى ذروته أو فى حالته
القصوى يؤدى ــ على ســبيل المثال ــ الى أن الشــجرة الماثلة
أمامى فى هذه اللحظة سوف لن تكون فى الموضــع نفسه فى
اللحظة التالية الا اذا خلق الله وجــودها فى هـــذه اللحظة
المستقبلية (الا أن يشاء الله) (★) ، وربما كان هذا التفكير
الذرى أو اللحظى أو الجزئى أو غير المتواصل يعود لأسباب
أخرى كالفكرة الاسلامية عن الله (ســبحانه) لــكن أيا كان
السبب ، فقد لعب هذا النوع من التفكير دورا مهما فى علم
التوحيد وعلم الفقه عن المســلمين ، اذ جرى التركيز عــلى
عدم الاستمرارية فى الطبيعة (على التقدم الوئيــد المطرد
فى خط Linear Progress) • وربما كان ذلك لأنهم
كانوا يفكرون فى الطبيعة باعتبارها لا تتســم بالاستمرار
discontinuity ومن هنـــا كان تركيزهم كثــيرا عـــلى
الحـــاجة للاســـتمرار فى شـــئون البشر ، وكمـــا هـــو
معروف جيدا فان الجانب الأكبر من المجتمعات الاســـلامية
تعتبر نفسها مجتمعات سنية لأنها تدعى اتباعها لسنة محمد
(ﷺ) بمعنى الاقتداء بما صدر عنه من قول أو فعــل أو
تقرير ، وعلى أية حال فان هذه الفكرة تعود الى فترة ما قبل
الاســلام (العصر الجــاهلى) فقــد كانت القبيلة البــدوية
محافظة جدا وتدرك أن أمنها ورخاءها يعتمد على اتباعهـــا
(سنن) الأجداد أو السير على نهجهم فى التعامل مع مختلف
مشاكل الحياة • والآن فان السنة تعنى فى الأساس الطريق
المطروقة a beaten tract أو المعروفة أو الخالية من

(★) ما بين القوسين محاولة توضيح من المترجم •

المفاجآت الخطرة ، واذا تمعن الانسان أدرك أن من الأهمية بمكان للمسافر في الصحراء أن يسير في طريق مطروقة لأنه ان ضل عنها أو شرد منها ، فقد يفقد حياته ، وتلون هذه الفكرة بشكل واضح التفكير الاسلامي في عصور لاحقة • ويطلق على الهرطقات الفقهية والتوحيدية اسم (البدع) ، فالعبارة الأولى المستخدمة للتعبير عن فكرة « قانون الطبيعة » كانت هي « سنة الله »•

وهكذا وصل المسلمون الى طريق جديد في النظر الى العلاقة بين الأشياء والأشخاص : فالأشياء شاردة ضالة لا يعتمد عليها وهي غير جديرة بالثقة ، بينما الانضباط أو الانتظام والثبات والبقاء والاستمرارية تتجلى بشكل واضح أكثر ما تكون في الارادة الانسانية human will ، أما الانضباط أو الاتساق أو الانتظام regularity في الطبيعة فالله هو الذى يضفيه عليها على نحو ما يضفي الانسان الاتساق على الأشياء (مع فارق في أن ارادة الله ليس فوقها ارادة) •

وهذه الأفكار وردت جميعا في المفهوم القرآني عن العملية التاريخية أو على الأقل في بعض جوانبها ، فبالنسبة للتاريخ البدوى العربي ليس أكثر من ارتفاع وسقوط أو ظهور وتلاشي العديد من القبائل • وليس هناك وعي بأى خط مستمر لتطور يجرى خلاله هذا التاريخ ، والتواريخ التقريبية للقبائل المختلفة يصعب التحقق من أهميتها ، فالتاريخ كان ـ بشكل أساسي ـ مجرد تكرار • لموضوعات بعينها ، وفي القرآن نجد أن فكرة التوحيد قد أثرت في هذا البناء Pattern فنجد أن قبيلة ما قد ارتفعت وحققت رخاء وازدهارا فلما أتاها رسول من الله عصوه فعاقبهم الله

بابادتهم ابادة كاملة . وتكرر روايات على هذا النحو ، قبيلة تكون فى رخاء ثم يلحقهـا العقـاب الالهى بسـبب كفـرهم وعصيانهم ، وهى فكرة ذات جذور عميقة فى الأفكار السامية وتحتل أحيانا مكانا مهما فى تفاسير العهد القديم (التوراة)، وقديجوز القول انها صياغة أساسية أو نمط أساسى تصـاغ على أساسه ــ حقا ــ العمليات المؤقتة (الزائلة أو التى لا تتسم بالخلود) بشكل متشابه أو موحد Uniformity or indeed Unity(٢)

ودراسة هذه النقطة من حيث علاقتها بالاسـلام مسـألة قد تكون جديرة بالدراسة ، لكنها خارجة عن موضوعنا هنا .

مسألة أخرى مرتبطة بالعقلية العربية ذات صلة بدرجة الترابط المنطقى أو وَثَاقة المكون المنطقى Logical Consistency ففى زمننا العلمى الحديث يفترض أنه اذا كانت النظرية غير متسقة مع نفسها (غير خالية من التناقض الداخلى فيها) فانها بالتأكيد نظرية خاطئة ، وثمة فروض أخرى أساسية لكنها لم تحظ بالدرجة نفسها من القبول كالفرض السابق (وجـود تنـاقض داخلى فى نظـرية يعنى أنها خاطئـة) والفرض الرئيسى فى هذه الفروض هو أن التفكير البشرى يعد أداة كافية للتعامل مع الأشـياء التى يسـمى الانسـان لمعرفتها ، وفى بعض المجالات خاصـة التى تدرسـها العلوم المختلفة Science يبدو هذا الفرض مقبولا (الفرض الذى مؤداه كفـاية العقـل البشرى للتعـامل مع الأشياء المـراد معرفتها) .

لكن هناك مجالات أخـرى ــ عـلى أية حال ــ كالمجالات الجمالية (المتعلقة بالجمـال أو علم الجمـال) والمجـالات الأخلاقية (أو المتعلقة بالقيم) وكالمجالات التى تتناول معنى

الحياة ــ يبدو المكون المنطقى فيها أقل أهمية ، فنحن لا نطلب من الشاعر أن يكون منطقيا بالضرورة أو أن تكون قصيدته ذات مكون منطقى Logically Consistent فمثل هذا المطلب يكون مناسبا عندما يتعامل المرء مع المفاهيم المجردة ، واذا أراد المفكر أن يقدم لنا نظرية فى الكونيات (الكوزمولوجيا) فى مصطلحات مجــردة ، فاننـــا نطلب منــه بنـــاء منطقيـــا Consistency ، وعـــلى أية حال ، فان أفكارنا المجــردة ــ دائما ــ ينقصها ثراء الوجود الحقيقى وتعقيداته ، فالعقل البشرى رغم قوته الهائلة يعتريه كثير من أوجه القصور ، وكثير من هذا قد أدركه الفقهاء الحنابلة المســلمون عنــدما تجنبوا الافكار المجردة التى تناولهـــا الأشـــاعرة وغيرهم ، وتعلقوا بالمعانى الظاهرة وبالمصطلحات المحددة كما وردت فى القرآن (الكريم) وأحاديث الرسول (ﷺ) ، ونخلص من هــذا أنه اذا اكتشــفنا شــيئا من عــدم التناســق المنطقى inconsistency فى القرآن (الــكريم) فهــذا دليل عـــلى ثرائه وخصوبته ، ودليل على سمو مثمر (تجاوز) يعلو فوق الفكر المجرد العاقر أو غير المجد barren Conceptual thought ومن هنـــا قد نجــد (معنيين) أو (تقــريرين) مختلفين مختلفين inconsistent لأن أحـــدهما فقط لا يعبر عن الحقيقة بشكل تام ٠

والنقطة الأخيرة هو اتجاه العرب فى استخدام الأسماء names أو ــ بشكل أعم ــ المحتوى الفعلى أو اللفظى ٠

وهناك شعوب أخرى ــ بطبيعة الحال ــ تشترك مع العرب فيما سنذكره بهذا الصدد ٠ فقد كان هناك شعور بالاضافة لأمور أخرى ــ أن علاقة الاسم بالشىء (علاقة الاسم بالمسمى)

ليست حادثة أو اصطلاحية accidental or Conventional
وانما هناك ما يشبه الرباط أو المواءمة أو الالتصـاق بين الشيء ومسماه • ويظهر هذا فى القرآن الكريم فى قصة آدم وكيف أنه أعطى الأشياء مسمياتها •

ـ (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين (٣١) قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحـكيم (٣٢) قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (٣٣) سورة البقرة •

وفى سفر التكوين (التوراة) نجد أيضـا قصـة كيفية اعطائه الأشياء أسماءها •

ـ (••• وقال الرب الاله ليس جيـدا أن يكون آدم وحده فأصنع له معينا نظيره ، وجبل الرب الاله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها • وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها، فدعا آدم بأسماء جميع البهـائم وطيـور السـماء وجميع حيوانات البرية •••) •

سفر التكوين / الاصحاح الثانى / الفقرات من ١٨ الى ٢١ •

مما ورد فى القرآن (الـكريم) وفى سـفر التـكوين (التوراة) يظهر أن الأسـماء أو المسـميات ليست مجـرد « اتفاق » أو « اصطلاح » ، فقد تعلم آدم الأسماء من الله قبل

أن ينطق بها ويخبر الملائكة بأمرها ، فمعرفة الأسماء هنا يفترض أنها تنطوى أيضا على معرفة الأشياء أو الطبيعة الحقيقية للأشياء ويمكن أن نفترض أن هذا الربط بين الشيء واسمه عائد الى عقلية العرب قبل الاسلام .

ومما لا شك فيه أن بعض جوانب هذه الفكرة هو جعل المسلمين بعد ذلك يتمسكون بالمعنى اللفظى الضيق للأحاديث (النبوية) ويلتصقون بها التصاقا شديدا ويجدون أنه من غير المرغوب فيه تقديم معناها بألفاظ أخرى أو عرضها من خلال حكايات أو طرائف . فمن منطلق الدين الاسلامى ، هناك دائما شيئا الهيا في اللغة ، وهذا أمر حقيقى Something God given about language وعندما تحدى محمد (ﷺ) أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التى أوحيت اليه ، كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدى لأن السور التى تلاها محمد هى من عند الله وما كان لبشر أن يتحدى الله ، وليس من شك فى أنه ليس من قبيل الصدفة أيضا أن كلمة (آية) تعنى علامة على القدرة الالهية وتعنى أيضا فقرة من الوحى (الآية بمعناها الاصطلاحى كجزء من سورة) .

ولم تكن الفروض التى قدمناها آنفا عن القرآن قائمة على دراسة حصرية شاملة للموضوع ، لكنها تكفى – على أية حال – لتوضيح – ما نعنيه عند الحديث عن عقلية العرب قبل الاسلام وفى بواكيره (فجر الاسلام) ، وهى أى هذه الفروض آنفة الذكر تعد حججا قوية للعلماء العرب فيما ذهبوا اليه من استحالة ترجمة القرآن (الكريم) من العربية الى أية لغة أخرى (رغم محاولة تقديم ترجمات تفسيرية أو ترجمات لمعانى القرآن الكريم فى هذه الأيام وهى محاولات

مسموح بها، وكانت حقيقة مسألة ضرورية ومرغوبا فيها) ٠
والنتائج التى توصلنا اليها هنا ليست ـ بطبيعة الحال ـ
قصرا على العقلية العربية ، فمن المفترض أننا نؤمن بأن لكل
نطاق ثقافى كبير فروضه المحددة سلفا ٠

٣ ـ عن الكونيات (الكوزمولوجيا)

تعتبر الفروض النمطية (المقولبة) هى الملامح
الواضحة المحددة للعقلية العربية قبل الاسلام ، وكان للعرب
أيضا رؤيتهم للعالم من حولهم ، ولسنا فى حاجة للافتراض
بأن رؤيتهم تلك كانت تمثل نظاما متماسكا مترابطا ٠ وثمة
اعتبارات عامة بالاضافة لدراسة القرآن الكريم توضح أن
شبه الجزيرة العربية قد شهدت مزيجا من الأفكار من مصادر
شتى ٠ لقد كان الأساس بلا شك معتمدا على نظرة أجيال
الساميين الأوائل التى كانت بدورها معتمدة على الافتراضات
الكونية (الكوزمولوجية) الواردة فى العهد القديم ،
وبالاضافة لهذا كانت هناك أفكار يهودية متأخرة (فى فترات
لاحقة) وأخرى مسيحية يونانية وثالثة فارسية زرادشتية ،
لقد كان هذا المزيج جميعا حاضرا فى عقول معاصرى محمد
(ﷺ) الذين توجه القرآن الكريم ـ فى المقام الأول ـ
بخطابه لهم ٠

ولابد أن نصنف معظم العرب المعاصرين لمحمد (ﷺ)
كوثنيين سواء منهم ساكنو المدن (الحضر) أم البدو ، رغم
أن دينهم المؤثر (الفعال) هو الوثنية القبلية tribal
paganism (كما سنشير الى ذلك فى مواضع أخرى من هذه
الدراسة) ، وفيما يتعلق بالكونيات (الأفكار الكوزمولوجية)

فقد اعتقدوا أن كثيرا من أوجه حياة الانسان ـ كمصدر رزقه وسنة وفاته وسعادته أو شقاؤه ـ مقررة سلفا من قبل قوة لا مفر من حكمها يطلقون عليها « الدهر » أو « الزمن » أو « الأيام » ، وهي قوى « غير مقدسة » وبالتالى لا يتوجهون اليها بالعبادة ، وانما هى قوى « كونية » أو « طبيعية » أو « كوزمولوجية » . ونجد فى القرآن (الكريم) اشارة الى عقيدتهم تلك :

ـ « وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون» سورة (الجاثية) / آية ٢٤ .

وهذه الفكرة الكوزمولوجية التى مؤداها أن رزق الانسان وعمره ومدى سعادته أو شقائه مسألة محددة سلفا وبالتالى فليس هناك ما يمكنه عمله لتغييرها ، انتقلت الى الاسلام الذى أجرى تغييرا واحدا على الفكرة بأن جعل الله سبحانه وتعالى هو الدهر . وقد كان هناك بعض التردد فيما يتعلق بعدم قدرة الانسان على تغيير قدره النهائى ، فكثيرون يعتقدون أن ذهاب الانسان للفردوس أو للجحيم يعتمد على ما اذا كان يطيع الله أم لا ، مع أنهم يقيدون بصرامة حرية الانسان الا أن هناك كثيرين أيضا يعتقدون أن الانسان ـ بمعنى من المعانى ـ مسئول عن أفعاله . وبذلك فانالقرآن (الكريم) لم يقر أفكارا كونية (كوزمولوجية) سابقة على الاسلام فحسب وانما أدخل أيضا بعضها فى تعاليمه .

ويتضح أيضا من القرآن الكريم ـ على أية حال ـ أن العرب الوثنيين لم يكونوا جميعا على رؤية واحدة ، فبعضهم على الأقل اعتقد فى وجود اله علوى قادر Supreme deity

or high God ، أما غالبهم فقــد كان يعتقد فى جــدوى التوســل للآلهة المحليــة Local deities ومع هذا فان ألمت بهم شدة شديدة جأروا للاله العلوى القادر ، فاذا ما انقضت الشدة عادوا كما كانوا ، وقد ورد هــذا المعنى فى القرآن الكريم ٠

ــ « واذا مس الانســان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منــه نسى ما كان يدعو اليه من قبــل وجعــل الله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار » سورة الزمر / آية ٨ ٠

ــ « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون » سورة ٢٩ (العنكبوت) آية ٦٥ ٠

ومن هــذ الاعتقاد فى الاله الأعــلى Supreme deity كان الانتقال الى عبادة الله (الواحد) مسألة سهلة بلا شك ، وعندما توجه القرآن لأهل مكة طالبا منهم عبادة رب الكعبة أو اله الكعبة أو رب البيت كان من المفترض أن كثيرين منهم قد اقتنعوا بهذا التعبير فعلا ٠

« لايلاف قريش (١)

ايلافهم رحلة الشتاء والصيف (٢)

فليعبدوا رب هذا البيت (٣) ٠٠ »

سورة قريش / آيات من ١ الى ٣ ٠

ومن ناحية أخرى فان أهل مكة سواء منهــم من عــرف الاله الأعظم أو من لم يعرفه ــ توجهوا بشىء من العبادة قل

أم كثر للأصنام ، وقد هاجم القرآن الكريم هذه العبادة باستمرار باعتبار الكفار يجعلون منها - أى من هذه الأصنام - « أندادا » أو « شركاء » لله.وفى بعض الأحيان كانت الآلهة الوثنية ينظر اليها كجن وهذا بلا شك عائد فى جانب منه للفكر السائد قبل الاسلام وفى أحيان أخرى كان الحديث عنها ككائنات ذات أصل بشرى ٠

وكان الاعتقاد فى مختلف أنواع الكائنات الروحية (غير البشرية) جزءا من الكوزمولوجيا العربية القديمة (جزءا من فكرة العرب عن الكون) وكان يطلق على هذه الكائنات الروحية أسم شامل هو الجن والمفرد جِنِّى الذى أشير اليه فى الترجمة الانجليزية لألف ليلة وليلة بالكلمة « Genie » والكلمة تشير الى كائنات قد تكون خيرة وقد تكون شريرة ، وقد تناولت السورة رقم ٧٢ (الجن) جانبا من أحوال الجن الذين قيل ان نفرا منهم قد سمع القرآن فقالوا « انا سمعنا قرآنا عجبا » « يهدى الى الرشد » ٠ وأن هؤلاء الجن قد آمنوا برسالة محمد وقالوا اننا آمنا به « ولن نشرك بربنا أحدا » ومع هذا لم يسلم كل الجن فمنهم مَن سيدخل جهنم ، وبالاضافة للجن ككائنات غير بشرية هناك أيضا الملائكة الذين لا يمثلون الا الخير ، وحديث القرآن الكريم عن الملائكة بكثرة يجعلنا نفترض أن فكرة الملائكة كانت معروفة مطروقة بين العرب الذين يتوجه اليهم القرآن الكريم بخطابه ، ويميل الدارسون المحدثون الى أن الأفكار عن الملائكة قد وصلت لشبه الجزيرة العربية من مصادر يهودية ومسيحية قبل البعثة المحمدية ٠ وقد سهل اعتقاد العرب فى الملائكة اعتقادهم القديم فى الجن وكان ينظر للملائكة كنوع من الجن (؟!) ، أما الفكرة عن « الشيطان »

الذى هو شر خالص فقد كانت معروفة أيضا فى شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام من مصادر يهودية ومسيحية ٠

وهناك اشارات فى القرآن الكريم الى الصورة البسيطة التي كان عرب ما قبل الاسلام يتصورونها للكون (للعالم) فالأرض مبسوطة كالبساط فى الخيمة (والأرض وما طحاها) سورة الشمس آية ٦(★)والسماء كأنها سقف أو خيمة فوقها ـ أى فوق الأرض (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) سورة ٢١ الأنبياء آية ٣٢ والله هو الذى يمسك بالسماء فيمنعها من أن تسقط على الأرض٠ (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه ان الله بالناس لرءوف رحيم) سورة ٢٢ (الحج) آية ٦٥ ، وفى آية تبدو محيرة الى حد ما يتضح أن الله سبحانه قد جعل فى الأرض جبالا حتى لا تهتز أو تميل ٠

ـ « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون » النحل / آية ١٥ ٠ وربما كان ذلك كالقطع الثقيلة التى تلقى على أطراف البساط حتى لا يطير بفعل الرياح ٠ كل هذا ، يفترض أن مصدره هو النظرة

(★) لكن هذا لا يمنع بطبيعة الحال وجود آيات ذات سبق علمى باهر ، والتبسيط الشديد الوارد فى بعض الآيات للظواهر العلمية يعتبر نوعا من الاعجاز ، فالله سبحانه يتلطف مع عبيده بايصال المعانى لهم بما لا يصطدم مع المرحلة الحضارية التى يحيونها ، وهذا ما وضحه (وات) فى مواضع أخرى ـ (المترجم) ٠

البدوية ، وعلى أية حال فاننا نجد فى آيات أخرى حديثا عن أن الله قد خلق سبع سماوات ٠

ــ « فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصــابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم »

سورة فصلت ، آية ١٢ ٠

يفترض أن هذه الفكرة قد دخلت شبه الجزيرة العربية من بعض المناطق التى تغلغلت فيها الفلسفة اليونانية والعلم اليونانى ٠

لقد كتب كثيرون عن الأفكار اليهــودية والمســيحية فى القرآن (الكريم) ، وسيكون كافيا هنا أن نذكر أن بعض الأفكار عن الكون (الكوزمولوجيا) كما وردت فى التراث اليهودى والمسيحى والزرادشتى كانت قد وجــدت طريقهــا لبعض مناطق شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام ٠ وهذا أمر طبيعى خاصة اذا علمنا أنه كان لليهود والنصــارى وجــود فعلى فى شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وان أهل مكة كانوا على صلات بالامبراطوريات : البيزنطية والفارســية والحبشية ، ولم يكن غريبــا أن يلجــأ محمــد (ﷺ) لفهم ما يحدث له أثناء تجربة الوحى الأولى لأشخاص مثل ورقة بن نوفل الذى كان لديه علم قليل عن الوحى فى التراثين اليهودى والمسيحى ، وكان ورقة هذا ابن عم زوجة محمد (ﷺ) ، خديجة بنت خويلد ، وقد تكون معلومات هؤلاء الأشــخاص الذين لجأ لهم محمد (ﷺ) بسيطة وغامضة لكنها أسهمت فى فهمه لمهمته الخاصة ٠ وعــلى أية حال فمما هــو جــدير بالملاحظة ان الكلمة التى استخدمت على نطاق واسع فى بداية

الأمر ، لم تكن هى الكلمة اليهودية المسيحية (نبى) وانما كلمة أخرى شائعة فى اللغة العربية (رسول) ، ولم تكن اليهودية والمسيحيه هما المصدر الوحيد لفكرة (النبوة) أو (الرسالة) فى شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام، ومن السهل تبين التأثيرات الفارسية الزرادشتية فى أفكار عرب شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام عن الكون (الكوزمولوجيا العربية) فى تتبع الأفكار عن (الخير) و (الشر) أو (النور) و (الظلمة) وبالتالى تبلور الفكرة عن (الشيطان) أو (ابليس) ٠

فاذا تركنا الكوزمولوجيا الغربية تحتم علينا تتبع نظرة العربى « للمجتمع الانسانى » أو فكرته عنه ، وهى مسألة واضحة فى القرآن ، فالملمح الأساسى للتكوين الاجتماعى Social structure فى شبه الجزيرة العربية كان هو (القوم) ، والقوم يمثلون خير تمثيل فى الكلمة الانجليزية tribe ، مع أنها تترجم أحيانا بالكلمة People التى تعنى شعبا أو أمة ٠ وكان من الطبيعى أن يتخيل العربى أن «البناء الاجتماعى» الذى ألفه فى الصحراء والذى عرفه فى مدن كمكة والمدينة هو بناء اجتماعى عالمى موجود فى العالم المتحضر ٠ ومن هنا فان القرآن الكريم يحدثنا دائما عن هذا النبى أو ذاك الرسول الذى أرسل الى « قوم » كذا أو « قوم » كيت ٠ فهذا التركيب الاجتماعى والاتجاهات المرتبطة به كان واضحا فى قصص الأنبياء كما وردت فى القرآن ، ففى قصة يوسف نجد أن اخوته يشكون من أن أباهم لا يعاملهم بالمعاملة نفسها التى يعامل بها يوسف وأخاه مع أنهم « عصبة » وهى كلمة تعنى أنهم من أصل واحد (من أب واحد وأم واحدة) وأنهم متضامنون ٠

ـ « اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منـا ونحن عصبة ان أبانا لفى ضلال مبين » يوسف / آية ٨ ٠

وفى الوقت نفسه فانهم عندما كانوا يحثون أباهم ليدع يوسف ليذهب معهم ذكروا أنهم « عصبة » وهذا يجعل الذئب لا يجرؤ على الاقتراب منهم ومن أخيهم ٠

ـ «قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون» سورة يوسف / آية ١٤ ٠

ومرة أخرى نجد أن فكره « الاجارة » بمعنى تقـديم الحماية للجار أو تقديم الحماية عـلى نحـو ما يقدمها المرء لجاره قد انتقل معناها بشكل مجازى الى الله سبحانه وتعالى٠

ـ « يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنـوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم » الأحقاف / آية ٣١ ٠

ـ « قل أرأيتم ان أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم » سورة الملك / آية ٢٨ ٠

ـ « قل انى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا » سورة الجن / آية ٢٢ ٠

وفكرة الاجارة فكرة غريبة بالنسبة للأوربيين ، ومن هنا فان ترجمة الآية ٨٨ من سورة المؤمنين (٢٣) ٠

« وهو يُجير ولا يُجار عليه ٠٠ » بالكلمات الانجليزية التالية :

« He gives protection, but none gives protection against him »

مسألة غير كافية لنقل المعنى المقصود ٠

٤ ـ الأفكار التاريخية المفترضة

بالاضافة الى أن عرب ما قبل الاسلام كانت لهم أفكارهم عن تكوين المجتمع ، فقد كان لديهم أيضا أفكار عن الماضى القريب والماضى البعيد ، وهى أفكار يمكن أن نصنفها تحت عنوان « الفروض التاريخية » وبطبيعة الحال فقد كانت أفكارهم عن أحداث الماضى مرتبطة بأفكارهم عن التكوين الاجتماعى أى التكوينات الاجتماعية السائدة بينهم · فقد كان لديهم تجارب وخبرات عن الطريقة التى تصل بها القبيلة الى درجة من القوة والنفوذ والرخاء ثم كيفية تدهورها أو حتى اختفائها بعد ذلك ، ويعالج القرآن الكريم مسألة اختفاء القبائل أو قطع دابرها باعتباره عقابا الهيا على آثام اقترفوها ومن هنا فليس هناك فكرة حركة التاريخ فى خط واحد مستمر وانما هناك دائما «قيام» و «سقوط» سواء قيام قبائل وسقوطها أم قيام شعوب وسقوطها ، ويمكن أن نلمح فكرة قليلة لدى عرب ما قبل الاسلام عن الترتيب الزمنى chronological relation للقبائل المختلفة أو الأحداث ، لكننا قد نجد على مستوى القبيلة الواحدة بعض المعلومات عن تتابع مشيخة القبيلة وعن المعارك بين القبائل (أيام العرب) وهذه المعارك تقدم لنا صلات أو روابط بين الأحداث الفرادى، وبشكل عام فالتاريخ عندهم قيام وسقوط للقبائل والشعوب ، وعند الحديث عن قيام قبيلة (أو شعب) وسقوطه ، فان ذلك يكون بمعزل عن القبائل (أو الشعوب) الأخرى ·

ومن المفترض أن أولئك الذين سمعوا القرآن للمرة الأولى كان لديهم معلومات عن وجود عاد وثمود الذين أرسل

الله اليهما هودا وصالحا ، وفى سورة سبأ (سورة رقم ٣٤) آية ١٦ نقرأ :

ــ فأعرضــوا فأرســلنا عليهم ســيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل » وقد فسر المفسرون هذه الآية بأنها اشارة الى انهيار سد مأرب فى اليمن وذكرت الروايات العربية هذا الحدث باعتباره سببا فى هجرة قبائل مختلفة من اليمن وتحولها الى البداوة بعــد أن كانت تعمل فى مجال الزراعة ، وقد عثر الاثاريون عــلى نقشين على الأقل فيهما اشارة الى انهيار نظام الرى وقد تأكد الآن أن انهيار سد مأرب يعد علامة على بداية مرحلة انهــيار حضارية فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، فنحن هنــا نجــد القرآن يشير الى واقعة تاريخية كانت معروفة لمعاصرى محمد ووصلت اليهم بالروايات المتواترة ٠ هناك واقعة أخرى أشار اليها القرآن (الكريم) لكنها أكثر حداثة وهى حادثة أصحاب الفيل الواردة فى السورة ١٠٥ (الفيل) ٠

ــ « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (١)
ألم يجعل كيدهم فى تضليل (٢) ٠
وأرسل عليهم طيرا أبابيل (٣)
ترميهم بحجارة من سجيل (٤)
فجعلهم كعصف مأكول (٥) »

وأصحاب الفيل اشارة الى حملة قادمة من جنوب شــبه الجزيرة العربية يتقدمها فيل وقد وصلت الحملة الى قرب مكة لكنها عادت دون أن تلحق أى خسائر أو أضرار بها (بمكة)، لقد كان أهل مكة وغيرهم يعرفون هذه الواقعة وغيرها قبــل

نزول القرآن الكريم وتناقلوها ، غير أنه لا يمكن الزعم بأن مثل هذا الحدث كان يفسر لهم بطريقة اعجازية (الهيــة) theistic way • وتعتبر الاشـــارة الى حادثة الفيـــل من الاضافات الجديدة الواردة فىالقرآن الكريم والتى سنتناولها فى الفصل التالى (★) •

وبالاضافة للاشارة لأحداث فى شبه الجزيرة العربيـة كانت متداولة بالفعل ، نجد أيضا بعض المعلومات من الجانب التاريخى فى الكتاب المقدس ، ولا شك أن حديثنا الســابق عن الأفكار المتعلقة بالكون (الكوزمولوجيا) ينطبق هنا أيضا، وحتى فى السور القرآنية الأولى كانت هناك اشارات لقصص الكتاب المقدس بشكل ضمنى وغــير تفصيلى مما قد يعنى أن المستمعين (المعاصرين) كان لديهم بعض المعلومات عن هــذه القصص الواردة فى التوراة ، وان كان علينا أن ننظر لهذا الاستنتاج بحذر ، فليس المقصـــود أن كل أهــل مكة كانوا يعرفون بالضبط ــ قصص التوراة وانما بعض أهل مكة ربما لم يزيدوا عن واحد أو اثنين فى البداية ، وعلى أية حال فبعد أن أشار القرآن الى هذه الحكايات التوراتية اندفع المسلمون والمناوئون لهم لمعرفة تفاصيلها بسؤال من يعرفونها تفصيلا، وكان المســلمون ــ بما فيهم محمــد ــ يريدون أن يفهموا القرآن بشكل أفضل ، بينما كان المناوئون يبحثون عن نقاط الضعف لانتقاده (أى القرآن الــكريم) (★★) • لقد زاد

(★) المقصود بالاضافات الجديدة انها من الوقائع التى لم ترد فى العهدين القديم او الجديد ــ (المترجم) •

(★★) من الواضح هنا ان المؤلف يؤمن تماما ان القرآن وحى من الله ، بدليل قوله ان محمدا يحاول فهم القرآن ، ولدقة المعنى نورد النص الانجليزى :

« The Muslim (including Muhammad) would to understand the Quran better, whereas the opponents would be looking for points to criticize. »

انتشار الحكايات التوراتية فى مكة والمدينة زمن محمـد ، ومن الطبيعى أن نتوقع أن زيادة المعرفة بها لابد أن ينعكس فى القرآن الكريم (المترجم : من حيث تناوله لها بالتأييد أو النقد أو التعديل) ولا شك أن (مُنْزِل) القرآن الكريم كان يضع فى اعتباره طبيعة الناس الذين يتوجه اليهم القرآن بالحديث ، أولئك الناس الذين لم تصل اليهم المعرفة إلا شفاهة فليس هناك ما يدعونا الى الافتراض — حتى بالنسبة ليهود المدينة — بوجود مؤسسة لتلقى المعرفة المنظمة أو الأكاديمية فيما يتعلق بالتـوراة ، فقليلون هم الذين كانـوا يعرفون القراءة وربما قرأ هؤلاء بعضا من العهدين القديم والجديد ومع هذا فان تأثيرهم لم يكن كبيرا على هذه القصص التوراتية بصورتها التى كانت تتناقل (بضم التاء) بها شفهيا . وفى حالات كثيرة كانت القصص كما يرويها القرآن أو كما يشير اليها لا تماثل القصص التوراتية وانما تماثل ما هو وارد فى بعض الأعمال الثانوية المتعلقة بالعقيدة اليهودية ، فبعض قصص التـوراة تشبه ما هـو وارد فى المـدراش **midrash** (وهو التفسير اليهودى التقليدى للتوراة) وما أورده القرآن عن معجزة تحويل الطين الى طير :

— « ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتـكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وأبرىء الأكمة والأبرص وأحيى الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » آل عمران / آية ٤٩ .

هذه المعجزة لم ترد فى أى انجيل من الأناجيل المعتمدة لدى المسيحيين ، وانما وردت فى بعض الـوثائق الروحيـة **heretical Gnostic documents** ، وليس مدعاة للدهشة

أن تكـون قصصـا كهـذه معروفة للنـاس العـاديين فى شبه الجزيرة العربية ، فلم ينزل القرآن (الكريم) باللغـة العربية فحسب وانما تعامل مع واقع فكرى كان سائدا فى شبه الجزيرة العربيـة ، ومن خـلال أفكار كانت معـروفة للعرب آنئذ ، ولم يكن ذلك ليقلل من شأن القرآن ولا يحط من قدره بأية حال من الأحوال « it is surely not in any way derogetory to suggest that the Quran ... ».

ومن المتوقع أن ينظر المسلمون أثنـاء سـنوات البعثة الأولى الى الحكايات التوراتية عـلى نحـو غير متكامل وانما كأحداث فردية تماما كما ينظرون الى أحداث التاريخ القبلى، ولم يكن الأمر فى هذا يختلف عند المناوئين للمسلمين ، وربما لم يكونوا على دراية بالتتابع الزمنى والضـبط التـاريخى للحكايات كما وردت فى التوراة والانجيل ، وربما لم يكونوا على وعى بالعلاقات الزمنيـة أو حتى الاثنيـة بين أنبيـاء التوراة ، وكلما زادت معلومات المسلمين العامة عن التوراة زادت معارفهم عن شخصياتها وأحداثها ، وقد أشار القرآن لأحداث تاريخية فى آيات تعود لأواخر الحقبة المكية وأواخر الحقبة المدنية ، واذا وضعنا هذا التحليل الذى ذكرناه فى اعتبارنا سهل علينا التعامل مع بعض الألفاظ الواردة فى القرآن (الكريم) ، فقول (يا أخت هارون) الموجه الى أم المسيح عليه السلام مريم :

ـ « يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » مريم / آية ٢٨ ٠

٠ يبدو أن خلطا ما حدث مع مريم Miriam أخت هارون وموسى، وقد حاول علماء المسلمين حل هذا الاشكال٠ الواقع أن الناس العاديين من أهـل مكة كانوا وقت نزول القـرآن

يخلطون بين المرأتين (أم عيسى عليه السلام) من ناحيـــة وأخت هارون وموسى من ناحية أخرى ·

وبالاضافة للمعلومات المتعلقة بتـاريخ شـبه الجزيرة العربية وبعض حوادث التوراة أشار القرآن لبعض احـداث التـاريخ المعاصر (وقت نزوله) اذ كان من الضرورى أن يكون أتباع محمـد (ﷺ) عـلى وعى بما يدور حـولهم وبالاحداث التى يشاركون فى صنعها · فقد أشـار القرآن الكريم فى آياته المكيـة الى ثراء أهـل مكة وقوافلهم ، وفى الايات المدنية غلب الجـانب التفسـيرى للأحـداث ذلك أن المسلمين كانوا يعرفون (ما) حدث لكنهم كانوا يريدون معرفة (لماذا ؟) حدث ، فما سبب هزيمة أحد ، وما هدف الله سبحانه من ذلك ·

كان هدفنا من هذا الفصـل هـو أن نؤكد أن القرآن الكريم لم ينزل فى مساحة من الفراغ الفكرى وانما تعـامل مع حياة فكرية خصبة متشابكة مع أننا اكتفينا بضرب الأمثلة ولم نتناول وصف الحياة العقلية وطبيعة التفكير العربى قبل الاسلام تفصيلا وعلى نحو شامل · عـلى أية حال فان هـذا الفصل يكون قد أدى غرضه اذ وضح الفكرة التالية وهى أن القرآن (الكريم) العربى لم ينزل فى فراغ وانما تعامل مع حياة عقلية عربية متشابكة خصبة ذات منابع شتى Complex

الجـديد فى المحتـوى القرآنى

١ ـ الصلة بالموقف المعاصر

شهدت بدايات القرن العشرين صرعة (مودة) تقديم القرآن (الكريم) للقارىء الأوربى باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسـيحية بالاضـافة لقليـل من الزيادات المحددة ، ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة · والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التى سادت فترة الحروب الصليبية عندما كان على أوربا الغربية التى كانت ترتعد فرائصها من جيوش الاسلام ـ أن تقوى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الاسلام · واذا نظرنا للأمور بعيدة عن سياقها التاريخى حتى بصدد مجرد المقارنة بين القرآن والتوراة والانجليل لوصلنا لنتائج خاطئة ، وعلى أية حال فافتراض أن محمدا قام بدعوته فى فراغ أى دون مراعاة لظروف العالم وقتها فرض غير علمى. عندما ننظر للقـرآن والعهدين (القديم والجديد) فى السياق التاريخى نجد أن الأمور تسير فى منحى آخر أو تصل بنا الى نتائج أخرى أو تتخذ ملامح مختلفة ، فنبى العهد القديم ـ هو بدوره ـ لم يحدثنـا من فراغ عقلى ، وانمـا راعى الحيـاة العقليـة والثقافية السائدة وبالمقياس نفسه يجب أن ننظر الى محمد ودعوته ، فالرسالة الأصيلة والجـديدة لـكل نبى هى تلك الرسالة التى تتواءم مع كثير من الأفكار وتعبر عن نفسـها

باستخدام مصطلح هذه الأفكار السائدة وتتعامل مع القضايا المعاصرة لها ٠

وفى كتابى « محمد فى مكة » حاولت ان ابين كيف أن فحوى الآيات القرآنية الاولى كانت متوائمة مع الوضـع أو الموقف فى مكة حيث بدا محمد دعوته هناك(١) ، لذا فسيكون كافيا هنا أن ألخص ما فصلته فى كتابى ذاك ٠ ففى الآيات التى اتفق على أنها من بواكير ما نزل نخلص بالأفكار الخمس التالية التى لم تلق معارضة فعلية أو ضمنية :

١ ـ الله هو الأقوى والأكبر ، والله خير ٠

٢ ـ سيبعث الناس يوم القيامة ويمثلون أمام الله ليحاسبهم على أعمالهم فيكافىء المحسن بالجنة ، ويعاقب المذنب بادخاله جهنم ٠

٣ ـ لابد أن يكون الانسان ممتنا لله (شكورا) وأن يعبده ٠

٤ ـ لابد أن يكون الانسان كريما وينفق مما آتاه الله وأن يكون مستقيما ٠

٥ ـ أرسل الله محمدا ليكون للعالمين بشيرا ونذيرا ٠

والآن فان العناصر الأربعة الأولى متفقة مع ما فى اليهودية وما فى المسيحية مع وجود فروق فى الكم لا فى النوع أى فى درجة التركيز فقط لا فى الأفكار ذاتها ، فعلى سبيل المثال فان اليهودية والمسيحية لا تركزان على الكرم أو السخاء أو دفع الصدقات generosity with wealth وعلى أية حال فقد كان الجديد فى الدين الجديد هو العنصر الخامس أى الاعتراف بمحمد (ﷺ) رسولا من الله ، وبطبيعة الحال فان ارسال رسول من الله لهداية البشر ليس أمرا جديدا ،

وانما الجديد فقط هو أن يكون هذا الرسول هو محمد على وجه التحديد .

وعلى آية حال فحتى الأفكار الأخرى اذا ما نظرنا اليها فى سياقها التاريخى فاننا سنجدها لصيقة بشكل خاص بمكة فى هذه الفترة . فقد كانت مكة مركزا تجاريا مزدهرا تصل قوافلها شمالا الى دمشق وجنوبا الى اليمن ، وكان لبعض مشروعاتها التجارية امتدادات أوسع ، وكان تجارها الكبار أثرياء جدا وكانوا يميلون الى الاعتقاد بأن كل شىء تقريبا يمكن تحقيقه بالمال والتخطيط الجيد وكانوا مستغرقين فى جمع الأموال فأهملوا نتيجة لذلك واجباتهم التقليدية الملقاة على عواتقهم كقادة عشائريين يتحتم عليهم الاهتمام بمصالح أفراد عشائرهم أو قبائلهم الأقل ثراء . لقد افتقدوا أخلاق الصحراء المتعارف عليها ولم يبق لديهم منها سوى قانون الأخذ بالثأر والمعاملة بالمثل . والآن فان العناصر الخمسة آنفة الذكر كلها مرتبطة معا فلمواجهة المبالغة فى قوة الانسان ، والفشل فى الاعتراف بقصورها كان لابد من الدعوة الى الله القوى الذى نمتن لأفضاله ونتوجه له بالعبادة . ولمواجهة انهيار الأخلاق أو القيم التقليدية وفشل العقوبات التقليدية فى مواجهة هذا الوضع كان لابد من التأكيد على أن القدر النهائى للانسان لا يتحدد الا يوم الحساب ، وأن كل انسان سيحاسب عما اقترفت يداه ، وسيجرى الحساب له كفرد بصرف النظر عن قبيلته أو عشيرته، ولمواجهة جشع التجار ومباهاتهم بثرواتهم واهمالهم لحاجات عشيرتهم جرى التركيز على سؤال الفرد فى الآخرة عن ماله مم اكتسبه وفيم أفناه ، وهكذا يتضح أن القرآن الكريم وان كان متفقا مع الكتب السابقة عليه الا أنه ركز على أفكار بعينها كانت لصيقة بمكة فى بواكير القرن السابع للميلاد .

أما بالنسبة للعنصر الخامس وهو أن محمدا قد أرسله الله رسولا مبشرا ونذيرا لقومه، فيعتبر فى جانب منه تأكيدا على ضرورة تطبيق رسالته تطبيقا خاصا فى بيئته أى بيئة محمد (ﷺ) والقرآن الكريم نفسه يقرأن رسالته فى أساسياتها هى مجرد تكرار أو اعادة لما ذكرته ديانات التوحيد الأولى ، وأن رسالة محمد (ﷺ) لا تعدو كونها احياء أو انعاشا لديانات التوحيد هذه ، ومع هذا فثمة عدة نقاط تعد بمثابة عناصر أصالة وتميز فى القرآن نظرا لأن فكرة الوحى وتلقى الرسالة قد تطورت فى القرآن الكريم · ولأن جزءا كبيرا من الرسالة الاسلامية كان منصبا على اعلان العصاة والكفار بأنهم سيلقون عذابا فى الآخرة والدنيا لذا فقد كانت الآيات القرآنية الأولى تركز على أن مهمة محمد هى أنه « نذير » وأنه لا يبغى أى طموحات سياسية (لا يريد حكما أو ملكا) لكن بعد الهجرة الى المدينة ــ على أية حال ــ اتسع مفهوم مصطلح « رسول » فاشتمل بالاضافة الى تلقى الوحى من السماء على مهمة ادارة المجتمع الاسلامى بما يتمشى مع رسالة الوحى · وبهذه الطريقة وقعت مهام سياسية على عاتقه ، وقد كان لنبى العهد القديم أيضا مهام سياسية أيضا ، لكن محمدا « رسول الله » قد اتسعت مسئولياته فأصبحت أعظم وأشمل

وعندما نترك أوائل ما نزل من القرآن لنقرأ آخر ما نزل منه يتضح لنا أن به كثيرا من التنظيمات الخاصة بمجتمع المدينة المسلم · وهى تنظيمات أصيلة خاصة فى تفاصيلها ، فقد كان المجتمع الاسلامى ينمو ويتطور تدريجيا خاصة من خلال العمل على تكيف الممارسات العربية الموجودة بالفعل (مع تعاليم الدين الجديد) وحتى لو كانت المثل أو

القيم التى قد يقال انها وجهت عملية التكيف هذه قد شاركت شعوب أخرى فيها على نحو من الأنحاء الا أنها أى هذه المثـل وتلك القيم كان لها مذاقها العربى الخاص • ومن الصعب على أية حال تفحص هذه الأمور بالتفصيل • وسيكون أكثر تنويرا أن ننظر للتطور فى اتجاهات القرآن الى أديان العرب قبل الاسلام •

انه لجدير بالاهتمام أننا لا نجد فى بواكير ما نزل من القرآن هجوما على الأديان الموجودة بالفعـل ، وكان ما دعا اليه الاسلام ممثلا فى العناصر الخمسة التى أوردناها آنفـا مسألة ايجابية ولم يكن هناك ادانة سوى التوعد بعقاب الذين ينكرون حق الله فى أموالهم (البخل أو الشح niggardliness) والذين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر ، فالآية التى تدعو أهل مكة لعبادة رب الكعبة تبدو آملة فى أن الذين يؤمنون بالفعل فى الاله الأعظم a supreme deity سيرون فى تعليمـات القرآن الكريم تأكيدا لما يعتقدونه بالفعـل لكنـه بصورة أوضح وأنقى •

« فليعبدوا رب هذا البيت » قريش / آية ٣

وبتعبير آخر يمكن القول ان القرآن (الـكريم) كان يمهد لانتقال مرن ناعم من الصور الراقية لأديان موجـودة بالفعل لدين جديد (الاسلام) • لقـد جـرى التركيز على مجرد توسيع أفكار موجودة بالفعل ، واضافة أفكار أخـرى مستخلصة مما هو موجود بالفعل ، ولم يعمل الاسلام عـلى انتزاع الأفكار الموجودة فى الأديان السابقة عليه مع أمل فى التلاشى التدريجى للعقائد القديمة المتضاربة مع عقيدة الاسـلام • لـكن تغير هذا الاتجاه أتى مع الهجوم القرآنى

المــرير عــلى الجــوانب الشركيــة فى الأديان الموجــودة
polytheistic aspects of the existing religion.

وقد أعقب ذلك هجــوم ضــار عــلى الدين الاســلامى Muhammad's movement ، وكان هذا الهجوم بلا شك لأسباب متشابكة لكنه كان مرتبطا بحركة احياء للعبــادة الوثنيــة ، ومن هنا كان ما نلاحظة من اصرار الاسلام وحرصه الشديد على أن الله واحد أحد فرد صمد وأنه لا معبود الا هــو وأن ما سواه غير جدير بالعبادة ٠

وعند وصف هذا التطور يستحيل تجنب تعبيرات نرجو أن يفهمها القارىء على نحو مجازى كقولنا ان القرآن(يأمل)، وأن هناك تغيرا أو تطورا حدث فى «اتجاهه» أو «سياسته»، مثل هذه التعبيرات نحن نستخدمها فقط لتوضيح الفــكرة وليس لها أية دلالة أخرى ، فنحن لا نقصــد بقــولنا هذا أن محمدا غير اتجاهه أو سياسته أو أنه كان يأمل ، ليست المسألة حيلة لفظية لتغطية لؤم المقصد Verbal trick ٠

ولنتعجل هنا ببعض ما هو مخصص للفصــل التاســع ، فنقترح على القارىء الأوربى أن ينظر للقــرآن باعتبــاره عملية معبرة عن القوى الاجتماعيــة المؤثرة أو الفاعلة فى المجتمع ككل ٠ وقد يكــون هــذا أمرا خارج وعى محمــد (ﷺ) رغم أنه يعمل من خلاله ، أو بتعبير آخــر لقــد كان القرآن الكريم بأفكاره ومعانيه غير بعيد عن نسيج المجتمع فى ذلك الوقت وأن محمدا (ﷺ) لم يكن مدركا لذلك ومع هذا فقد كانت حركته من خلاله ، ويلاحظ المراقب أن هذه القــوى ــ طالما وجهت المجتمع نحــو مزيد من الازدهار ــ ستتقدم وهذا أمر طبيعى وستعمل عــلى بناء تنظيم جــديد

للمجتمع بعد مواءمة العقائد القديمة مع الدين الجديد . وبمرور الوقت سيصبح واضحا أن القوى الاجتماعية الأخرى المقاومة للتغيير ستكون مرتبطة ومتمسكة بالعقائد القديمة لارتباطها بمصالحها . ولاضعاف هذه القوى والسماح للاصلاح الاجتماعي بأن يأخذ طريقه كان من الضروري ايجاد معيار Criterion للفصل بين مويدى الاصلاح (مؤيدى الدين الجديد) والراغبين في الاحتفاظ بالوضع كما هو عليه ، فكان التركيز على الشرك أو الاشراك بالله أو تعدد الآلهة كحد فاصل ، فالمنكرون له مؤمنون مؤيدون للاصلاح . والمتمسكون به كفرة ورغم ضراوة الهجوم على عبادة الأوثان فان كثيرا مما كان في المعتقدات العربية القديمة قد تم استيعابه وتشربه في الدين الاسلامي . اما الأفكار التي اشترك فيها الاسلام مع اليهودية والمسيحية فقد اتخذت شكلا عربيا واضحا . ولم يركز القرآن الكريم كثيرا على خلق الله للعالم والانسان ولم يشرح تفاصيل عملية الخلق كما لم يركز على أفعال الله «ونشاطه» في العالم في الوقت الحاضر (المترجم : لا يفهم مضمون هذه العبارات الا من قرأ سفر التكوين في العهد القديم حيث تعرض السفر لتفاصيل « حركة » الله سبحانه في الأيام الستة الأولى حتى « استراح » في اليوم السابع ، وقد أنكر القرآن كما هو معروف أن يكون الله سبحانه قد مسه « لغوب » أو تعب) فرغم أن الله رءوف رحيم الا أن نوعا من الغموض قد أحاط به على نحو ما كان يحيط به في مفاهيم عرب ما قبل الاسلام ــ وهناك آيات كثيرة تحدثنا عن هيمنة الله سبحانه التي تؤدى لمولد الانسان ، ويدهش المرء عندما يجد أن هذه الخاصية من خواص الاله الواحد كانت ممثلة في الآلهة السامية وآلهة العرب قبل الاسلام فقد كانت هذه الآلهة هي المتحكمة في

طاقات الذكر والأنثى • وعلى هذا فرغم رفض القرآن (للشرك) أو (تعدد الآلهة) فى شبه الجزيرة العربية ، الا آنه تضمن بعضا من ملامح هذه الديانات القديمة غير وارة فى اليهودية والمسيحية •

فالعلاقة بين الاسلام والدين العربى السائد قبل الاسلام يمكن أن نشبهها بالعلاقة بين دين العهد القديم أو اليهودية old testament religion والدين الكنعانى القديم ، فالاسلام — وكذلك اليهودية — أدانا بشدة كل مظاهر الشرك Polytheism • وفى الوقت نفسه فان الأضحيات الحيوانية (التضحية بالحيوان) كانت موجودة بالفعل فى العقائد الكنعانية السابقة على اليهودية ولم تلغها اليهودية بل انها — أى عادة تقديم الأضاحى الحيوانية — أصبحت تشكل جزءا مهما من عبادات بنى اسرائيل • ولما كانت المسيحية امتدادا للعهد القديم فقد أصبحت (التضحية) أو « الأضحية » عنصرا جوهريا فى العبادة المسيحية حتى أن « صلب » المسيح اعتبر من وجهة نظر المسيح نفسه وأتباعه عملية « تضحية » أو « فداء » Sacrifice (٢) والتشابه بين الاسلام واليهودية فى هذا الصدد ليس مصادفة وانما هو أى تقديم الأضحيات — كامن فى عقائد التوحيد أو الايمان بالاله الواحد Monotheism . •

على أن تفحص العلاقة بين القرآن والبيئة المكية أو العربية عامة يوضح لنا بجلاء أن رسالة الاسلام كانت ملائمة تماما للبشر الذين ظهر محمد بين ظهرانيهم ، ولم تكن مجرد نقل من عقائد سابقة (يهودية أو مسيحية) واذا كان القرآن يحتوى على حقائق تعد بمعنى من المعانى « أبدية » أو سرمدية eternal أو مطلقة فانه قد جرى تكيفها أو مواءمتها

مع الوسط البشرى الذى نزلت فيه ، وربما كان من الأفضل أن نقول ـ فى ضوء انتشار الاسلام انتشارا كبيرا بعد ذلك ـ ان رسالة الاسلام التى وجهت فى البداية لأهل مكة والمدينة كانت تحمل فى طياتها بذور العالمية ، أو أنها كانت منذ البداية أو منذ مضمونها الأول ذات أبعاد عالمية .

٢ ـ تفسير الأحداث الجارية أو المعاصرة

يعد اقناع الناس بأن عقيدتهم تؤيدها الأحداث والوقائع المعاشة أحد وظائف القائد الدينى خاصة اذا كان نبيا ، كما يعد من مهامه تفسير الأحداث التى تبدو مناوئة للعقيدة التى يدعو اليها تفسيرا مرضيا .

وقبل أن نتعرض لتفسير القرآن سيكون من المفيد أن نضرب مثالا من العهد القديم ، فالوقائع فى حكاية خطيئة عخان sin of Achan (يشوع Jushua ـ ٧) يمكن استخدامها لفهم هذا الغرض ، ذلك لأن هذه القصة غير شائعة فى أيامنا هذه ، ولعدم أهمة الموضوع نسبيا بمعنى أنه لا يثير عواطف لاهوتية ، ولأن الجانب الاعجازى أو الخارق للطبيعة يبدو فى حده الأدنى فى تلك القصة ، كما أن هناك شبها بين ما حدث فى هذه الحكاية وما حدث للمسلمين بعد تراجعهم او عدم تحقيقهم انتصارا فى غزوة أحد .

وترجع وقائع هذه القصة بعد دخول بنى اسرائيل فلسطين بفترة وجيزة ، وكان هذا الدخول عبر الأردن ، حيث استولوا على أريحا . لقد ملأهم الغرور لنجاحهم هذا، ولما شرعوا فى مهاجمة موقع صغير هو موقع عاى Ai الذى كان يقع على خط تقدمهم كانت ثقتهم فى أنفسهم قد بلغت مداها

لدرجة أنهم ظنوا أنه ليس من الضرورى أن يشترك جيشهم كله فى الهجوم فاكتفوا بارسال قوة صغيرة قوامها ثلاثة آلاف رجل ، وحدث أن فرت هـذه القـوة مولية الأدبار بعـد أن أصابها رعب شديد ، وأصاب Jushua سخط شديد حتى أنه قضى اليوم كله ساجدا أمام تابوت العهـد يبتهل الى الله حتى أخبره الله سبحانه أن الهزيمة قد حاقت بقومه لأنهـم عصاة أو مخطئون Sinned وفى اليوم التالى اقترع القـوم ليعرفوا من المخطىء أو من هو مرتكب الاثم (الذى أغضب الله) فوقع السهم أو القدح على عخان Achan الذى اعترف بأنه كان قد استولى على ثوب ثمين وبعض الفضـة واسـفين ذهبى من أسلاب (غنـائم) أريحا ، وكانت هـذه الأسـلاب (الغنائم) محرمة على Jushua ومن هنا فقد عزل هـو وأسرته وممتلكاته ودوابه وتم رجمهم حتى تحطمت المتلكات وقتل البشر والدواب ثم أشعلت فيهم النيران ، وبعد ذلك عاود الاسرائيليون الهجوم على عاى Ai فكان هجوما ناجحا لـكن لابد من ملاحظة أن ثلاثين ألفا كمنوا فى الخنـادق أو المكامن بينما قام بقية الجيش بالهجوم الحقيقى ٠

والعنصر المهم فى هذه القصة هو اثبات أن التراجع عن Ai لم يكن بالضرورة بسبب ضعف عسـكرى وانما لسـبب آخر كارتكاب ذنب أو معصية ، وهذه العملية أساسية جدا لاستعادة الثقة وبث العزم ، ووفقا لأفكار دين بدائى فان هذه الخطيئة تعد بمثابة دنس يدنس المجموع كله أو الجماعة كلها أو الجيش كله the whole body ومن ثم فقد كان الاجراء الحاسم الذى تم اتخاذه بمثابة تطهير للبدن كله أو للمجموع كله أو للمجتمع كله ٠ وقد يميل المؤرخ المعـاصر لتوجيه بعض الاستفسارات ، انه يريد أن يعرف هل كانت

طريقة الاقتراع باليد (أو جرى التلاعب فيها) ، وما اذا كان كل واحد تقريبا قد أخذ شيئا (من الأسلاب) حقيقة ، وقد يكون هذا الفرض الأخير هو بالفعل ما حدث ، والعبارة فى الآية ٢٦ التى تعنى أن « الرب رجع عن حمو غضبه »
The lord turned from the fierness of his anger
قد تعنى أنه لم يعد فى المعسكر ــ أى شيء دنس ، لكن العبارة قد تعنى أيضا أن عخان Achan ومقتنيات ــ قد تم لتخلص منه كمثل لكل الخطاة والآثمين وأن مقتنياته قد تم التخلص منها كرمز أو كمثل لكل ما أخذ من الأسلاب المحرمة بغير حق (أسلاب أريحا) ، ومن هنا يكون المعسكر قد طهر من الدنس تماما .

وقد يذكر المؤرخ المعاصر أن الهزيمة راجعة لحقيقة أن معظم المحاربين كانوا يفكرون أساسا فى الأسلاب (الغنائم) بينما عقاب عخان Achan قد ساعد على كبح جماح أى طمع أو جشع أو رغبة فى الاثراء لم يأت وقتها .

ولا يمكن بأى حال أن نقول ان ما ورد فى القرآن الكريم عن واقعة أحد مجرد ترديد لما فى العهد القديم عن القصة التى أوردناها آنفا ، لكن هذا لا يمنعنا من القول بأن هناك تشابها أو حتى مماثلة بين ما ورد فى العهد القديم عن عاى Ai ، وما ورد فى القرآن عن غزوة أحد ، فقد كان المسلمون فخورين وواثقين بعد النصر الذى حققوه فى بدر ، لذا فقد هبطت معنوياتهم كثيرا بعد الاخفاق الذى منوا به فى أحد . ومن وجهة نظر عسكرية فان أحدا لم تكن هزيمة خطيرة حاقت بالمسلمين فأهل مكة قد فشلوا فى الأخذ بثأر كل من قتل منهم ، لكن القضية أن المسلمين كانوا قد اعتبروا انتصارهم فى بدر علامة على أن الله يحارب الى جوارهم أو يحارب عنهم،

ومن هنا كانت ثقتهم بأنفسهم وبأن الله دائما الى جوارهم ، لكن بعد أحد بدأوا يشكون فيما اذا كان الله فعلا يحارب الى جوارهم ومن هنا فقد اهتزت ثقتهم بأنفسهم ، وقد بين القرآن أن هذا التراجع فى أحد ليس عائدا الى تغير فى « موقف » الله عز وجل منهم وانما لمعصية الرماة الذين تركوا أماكنهم طمعا فى الغنائم وقد أدى هذا التفسير بالاضافة الى ثبات موقف محمد (ﷺ) وعدم اهتزازه فى هذه الأزمة الى أن استعاد المسلمون ثقتهم بأنفسهم وبنصر الله ٠

وقد دأب القرآن الكريم على تفسير الأحداث والمواقف الحادثة أثناء نزوله ، ففى بداية الحقبة المكية أكد القرآن أو أشار ضمنا الى ما يتمتع به أهل مكة من ازدهار تجارى عائد فى الحقيقة الى ارادة الله ، وارجاع الأمور الى الله فيما حدث من وقائع فى التاريخ ، كواقعة أصحاب الفيل ، وانهيار أمم مختلفة ربما يعود ذكره للمرة الأولى الى القرآن لكن مثل هذا التفسير (ارجاع الأمور الى الله) كان شائعا بين العرب قبل الاسلام وكان يعد تفسيرا مقبولا لمجريات الأمور، وطوال معظم الفترة المكية كان المسلمون على وعى بما يلاقونه من معارضة وكان هذا مثيرا لاستغرابهم وعجبهم فاذا كان محمد حقا هو رسول الله فلم يلقى هذه المقاومة ؟! وقد أكد القرآن الكريم مرة ومرة أن هذا أمر معتاد فما من رسول الا واجهته معارضة ، وساق ــ أى القرآن الكريم ــ أمثلة من أنبياء العهد القديم كما ضرب أمثلة من تاريخ العرب حيث وضحت هذه الأمثلة أن أنبياء الله لابد أن ينتصروا رغم ما يواجهونه من مقاومة وصعاب ، ولابد أن يحطم الله معارضيهم ٠ ومن هنا فقد كان من المتوقع أن يعتبر القرآن الكريم انتصار المسلمين فى بدر بمثابة عقاب لأهل مكة لكفرهم برسالة محمد ٠

وثمة جانب اخر متعلق بالموقف المعاصر لعب فيه التفسير القرآني دورا مهما ونعني به العلاقة بين المسلمين والمجتمعات اليهودية والمسيحية المستقرة في شبه الجزيرة العربية. وأحد العوامل الفاعلة في هذا الموقف هو اعتراف الاسلام بالتماثل التام (أو المطابقة الكاملة) بينه وبين اليهودية والمسيحية. والعامل الثاني هو النقد الذي وجهه يهود المدينة لمحمد والقرآن وعملهم على تشكيك المسلمين في نبوة محمد وأصالة القرآن ، مما جعلهم يشكلون تهديدا خطيرا للمجتمع الاسلامي النامي . وثمة صعوبات نشأت في أواخر حياة محمد (ﷺ) عندما شرعت بعض القبائل العربية المسيحية في شمال شبه الجزيرة العربية تقاوم الزحف الاسلامي صوب الشام .

وأحد التفسيرات القرآنية لمعاداة اليهود لمحمد ونقدهم له ، أنهم هم أنفسهم قد انحرفوا عن دينهم القويم وهذا القول نفسه ينطبق على المسيحيين اذ ابتعدوا عن المسيحية الصحيحة ، لذا فليس مدعاة للعجب أن اليهود هاجموا القرآن، وكذلك فعل المسيحيون لانحرافهما عن جوهر دينهما في شكله الأصلي الذي أنزله الله ، فالدين الحق الخالص هو دين ابراهيم وليس اليهودية أو النصرانية بشكلهما الحالي (المعاصر لمحمد ﷺ) . هذه النقطة الأخيرة صحيحة تماما بطبيعة الحال فما دام اليهود يعتبرون اما انهم من سلالة يعقوب (يسمى أيضا اسرائيل) أو أنهم أصحاب عقيدة أنزلها الله على موسى (عليه السلام) الذي هو بدوره من سلالة ابراهيم، وقد ربط القرآن (الكريم) ابراهيم واسماعيل بمكة لكنه لم يحدثنا عن أي عرب من نسل اسماعيل رغم أن المسلمين المتأخرين (الذين أتوا بعد عهد الرسالة) قبلوا الانساب التي أوردها العهد القديم بهذا الصدد . وثمة ما يؤكد أن الاسلام كان بمثابة مستودع لدين ابراهيم في مرحلة نقائه

الأولى ، وبهذه الطريقة حمى الاسلام نفسه من الهجوم المبنى على أساس فكرى والذى قد يشنه اليهود أو النصارى بل لقد عملت هذه الفكرة على « الاستمرار » و « الاتصال » مع الدينين الأقدم اليهودية والمسيحية فأصبح الاسلام امتدادا لهما ، وقد لاقى هذا القول ــ كون الاسلام مجرد امتداد لليهودية والمسيحية ــ قبولا من أناس لم يكونوا على علم بالتوراة أو الانجيل ، وفى مرحلة متأخرة نسبيا عندما حصل المتعلمون المسلمون على بعض المعلومات والمعارف عن التوراة والانجيل والتقوا بيهود ومسيحيين حدثوهم عنهما ، كان عليهم ــ أى على هؤلاء المتعلمين المسلمين ــ أن يوسعوا أو يطوروا من النظرية التى مؤداها حدوث تحريف فى التوراة والانجيل .

من كل هذا سيكون واضحا أن التفسير القرآنى للأحداث الجارية والمواقف الطارئة لم يكن مجرد عمل نظرى أو تدريب آكاديمى وانما كان بمثابة الارشاد العملى للمجتمع الاسلامى فى تعامله مع القضايا الفعلية (الحاصلة) ولم يكن هذا الارشاد والتوجيه مجرد تطبيق آلى (خال من الروح) لبعض القواعد وانما كان استجابة فعالة لتحديات قائمة يواجهها المجتمع الاسلامى فعلا ، وهكذا يظهر القرآن أصالته ، ولو لم يكن الا هذه الاستجابة الفعالة لمتطلبات موجودة بالفعل لكفاه دليلا على الأصالة *.

There can be no question but that in these matters the Quran shows originality.

٣ ــ الجدة فى القرآن

لدينا اذن أرضية ثابتة نقف عليها باطمئنان أن القرآن (الكريم) لم يكن مجرد ترديد لأفكار يهودية ومسيحية وانما

كان به اضافات تتسم بالجــدة والأصالة . وعــلى أية حال فنظرة المسلم العامة للقرآن تتضمن اعتقادا بجدة يصعب على معظم الدارسين الأوربيين أن يأخذوا بها ، فالمسلمون ينظرون لما أورده القرآن عن الماضى السحيق خاصة زمن نزول التوراة ــ باعتباره أكثر صحة وأشــد توثيقا من التراث التــاريخى التقليدى وهذا يعنى قناعتهم بأن القرآن مصدر للمعلومات التاريخية ، والآن فان الدارسين ينظرون للقرآن باعتبــاره مصــدرا مهما للمعلومات المعــاصرة لنزوله أما فيما يتعلق بالماضى السحيق فانه ليس أكثر من انعكاس للأفكار التاريخية التى كانت سائدة فى مكة وقت نزوله ومن ذلك القول بأن المسيح (عليه السلام) لم يمت على الصليب ، والسؤال الذى نود طــرحه هنا هو ما اذا كان القرآن الكريم قد قال ذلك بالفعل أم أن ذلك القول قائم على تفسير للقرآن تم فى وقت لاحق ، ان بحثا فى هذا الموضوع يجب أن يبدأ بالآية رقم ٤٩ فى السورة رقم ١١ (هود) .

ــ « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمهــا أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين »

لقد ورد هذا المعنى (الآية) فى آخر الحديث عن قصة نوح حيث تضمنت القصة رفض الله سبحانه وتعالى مســاعدة نوح فى استرداد ابنه (الكافر) ، وكلمات القرآن تريدنا أن نفهم أنه فى هذه الحالة (القصة) فان القــرآن لا يردد قصة معروفة لأهل مكة ، لــكن المعنى المقصــود ليس بهذه البساطة ، وعلى آية حال ، فقد وردت الصياغة نفســها فى مواضع أخرى (من أنباء الغيب نوحيهــا اليك)، وفى كلا الحالتين فان المقصود التركيز عليه ليس هــو جهــل محمــد

بالقصة وانما أنه لم يكن موجودا أثناء جريان حوادث القصة ، وفى قصة زكريا ومريم تخبرنا الآية :

ـ « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون » آل عمران ، آية ٤٤ ٠

والمعنى نفسه ورد فى آخر قصة يوسف :

ـ « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون» سورة ١٢/يوسف/آية١٠٢ ٠

والآن لابد أنه أصبح مستساغا أنه لا توجد عوائق فيلولوجية تحول بيننا وبين أن نفهم هذه الآيات على اعتبار أن القرآن (الكريم) يحيلنا لتفهم المعلومات التاريخية التى لم تكن معروفة من قبل على الأقل لمعظم المستمعين ، كما يمكننا فهم هذه الآيات بمعنى آخر ، وهو الرجوع الى الكتب السماوية السابقة ، فالله قد علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم كما ورد فى السورة ٩٦ آية ٤ ، ٥،وهى أول ما نزل من القرآن، فالأقوام الذين تقوم ثقافتهم علىالرواية الشفهية سيدهشون اذا علموا أنهم عن طريق الكتابة (القلم) سيعرفون أحداث الماضى بشكل ، أوثق ، بالاضافة الى أن كلمة Unseen وهى المقابل الانجليزى للكلمة العربية « الغيب » تعنى فى الواقع شيئا أكثر من « حدث جرى بعيدا عن حضورنا أو رؤيتنا » فثمة تبرير أو تسويغ يجعلنا نعتقد أن المقصود هو المعلومات التى لا نحصل عليها بالطريق الشفهى المعتاد وبذلك يترك الطريق مفتوحا أمام العرب للمعرفة عن طريق الكتب المكتوبة ٠

ومن هنا فليس محالا أن نعتقد أن محمدا (ﷺ) قد تلقى بعض المعلومات عن هذه القصص التى لم يكن يعرفها ممن تلقوا معارفهم من الكتب المكتوبة ، ولم ينكر القرآن فى رده على أهل مكة مثل ذلك ، ففى السورة ١٦ (النحل) آية ١٠٣ نقرأ :

ـ « ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » ويفهم من الآية أن الكتب الأخرى كانت بغير العربية أما القرآن فبلسان عربى مبين ، ونقرأ فى السورة ١٢ (يوسف) الآية رقم ١١١ ٠

ـ « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » اننا نفهم من هذه الآية أنه مادام القرآن الكريم مؤيدا ومثبتا لما نزل قبله من الوحى فلابد أن يكون ما رواه القرآن من قصص وارد فى الكتب السابقة عليه ٠ ومن المؤكد أن القرآن لم يزعم أنه يقدم حكايات لم يعرفها معاصروه وان أولئك الذين يزعمون أنه قدم حكايات غير معروفة انما هم فى الواقع مبتدعون ومتعنتون فى التفسير ، فالجديد فى القرآن بالنسبة لهذه الحكاية هو نوع العظة والعبرة أو « الدرس lesson » المستفاد ٠

ومن هنا فان الآيات الواردة عن « الصلب » يمكن أن نفهم منها باختصار أن مسألة الصلب وردت فى سياق تعداد آثام اليهود ، وكان هذا على النحو التالى :

ـ « وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم الا اتبـاع الظن وما قتلوه يقينا(١٥٧) بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما(١٥٨) وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيـامة يكون عليهم شهيدا(١٥٩) ..» وأول ما يلحظه القارىء أن هذه الأيات ليست هجوما عـلى المسيحية وانما هى دفاع عن المسيحية ضداليهود، فزعم اليهود أنهم قد قتلوا المسياه Messiah (وهو ما يسميه القرآن المسيح وهو اسم لا ندرى معنـاه) انما هو زعم عار من الحقيقة ، لأنه زعم ينطوى على نخو ما على معنى أن المسيحية دين زائف وهو ما رفضه الاسـلام ، فالقرآن (الكريم) عندما يرفض زعم اليهود بأنهم قتلـوا المسيح هو فى الحقيقة يؤكد أن المسيحية دين حقيقى وبعيد عن الزيف ، وما دام الاسلام ينظر للمسيح كنبى ورسول من الله ، فمن المحال أن يحبط عمله ، وهو بالضبط ما كان يريد اليهود قوله بزعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم . ولابد أن هذه الفكرة التى قدمها القرآن (الكريم) عن المسيح كان لها جذور عميقة فى العقلية العربية فى هذه الأيام .

والفكرة التى مفادها أن الانسان المستقيم لابد أن يحقق نجاحا فى هذه الحياة تعد من الأفكار المتداولة فى العهـد القديم(التوراة) فنحن نقرأ مثلا فى سفر المزامير(Psalm 37-25)

« I have been young and now am old, Yet have I not seen the righteous forsaken nor his seed begging bread ».

« أيضا كنت فتى وقد شخت ولم أر صديقا تخلى عنه ، ولا ذرية له تلتمس خبزا ، اليوم كله يترأف ويقرض ونسله للبركة » .

وحتى عندما يثار سؤال كما فى سفر أيوب(Book of Job) مؤداه ما اذا كانت المعاناة تعد ـ دائما ـ نتيجة ارتكاب الاثم فان الرجل المستعين (أيوب Job) لابد أن يحقق الخير فى النهاية • والمسيحى ـ بطبيعة الحال ـ يعتقد أن صلب المسيح يعد انتصارا ولا يعد هزيمة لأنه قد أعقب هـذا الصلب « قيام » المسيح أو « بعثه » كما أعقبه « ميلاد » الكنيسة • لقد كان القرآن الكريم يخاطب أناسا لديهم اقتناع عميق أنه لا يمكن أن تخيب رسالة حملها رسول من رسل الله ، ومن ثم كان انكار زعم اليهود لكن انكار القرآن لزعم اليهود بأنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم (بمعنى أنهم أحبطوا رسالته) قد أعقبه عبارة غامضة وهى «ولكن شبه لهم» « it was made
« a resemblence was made for them أو « to seem to them

ومثل هذه العبارة من المفترض أنهـا السبيل الوحيد لانكار ادعاء اليهود بهزيمة رسول الله (المسـيح) ، ومن المفترض أن هذه الطريقة فى الانكار متفقة مع البيئة العربية فى ذلك الوقت ، لكن ما حدث بعد ذلك أن العلماء المسـلمين فسروا هذه العبارة (ولكن شبه لهم) بما يفيد أن عمليـة الصلب لم تتم ، وربما كانت هنـاك بعض المعلـومات غـير الصحيحة شائعة عن عملية الصلب هذه بين معاصرى محمـد (ﷺ) • انه لأمر أساسى أن القرآن الكريم يؤكد فى هـذه الآيات من خلال صيغ تفكيرية شائعة فى البيئـة العربيـة الصدق الروحى أو الحقائق الروحية المقبولة لدى المسيحيين تماما ، والتى مفادها أن منتهى ما وصل اليه المسيح هو فى الحقيقة انتصار للمسيح وليس لليهودية • ويمكن أن يستمر ـ حتى أيامنا هذه ـ ما فى هـذا « الدرس » القـرآنى أو « العبرة القرآنية » من صحة وأصالة دون أن ندعى أننـا

بذلك تجعل القرآن الكريم مصدرا تاريخيا لأحداث القرن الأول للميلاد • بل اننى لأجد أنه من الأفضل فعلا أن تستمر هذه « العبرة القرانية » حتى أيامنا هذه •

وقبل أن أنهى هذا الفصل يستحسن أن نشير الى أن هذه الآيات المتعلقة « بصلب المسيح » لا تمثل « عائقا » لا يمكن اجتيازه أو « حاجزا » لا يمكن تخطيه ، أو خلافا عقائديا حادا بين المسلمين والمسيحيين ، ولنذكر القارىء المسيحى بالآيات الواردة فى سفر صموئيل الثانى (2 Samuel, 12.9) حيث ثمة تقرير أن داود David قتل أوريا الحثى Uriah بسيف بنى عمون Ammonites .

ان من حق المسيحى أن يتساءل حتى الآن : « من قتل المسيح ؟ » ومن الممكن أن تكون الاجابة أن اليهود لم يقتلوا المسيح ولا الرومان قتلوه، وانما هو نفسه قاتل نفسه بمعنى أنه ــ أى المسيح ــ قبل أن يموت (قبل موته) أو (وافق على موته) ، ومن هنا فهو (الفاعل) الحقيقى وليس اليهود ، وفى ضوء هذا التحليل يمكن أن نفهم النص القرآنى «ولكن شبه لهم » •

تلقى الـــوحى

١ ـ الاستجابة للأنبياء

عديد هو القصص القرآنى الذى يوضح أن اســتجابة الجمــاعة للرسول الذى أرسله الله اليهــا لا تزيد الا قليلا (قبولا أو رفضا) عن الاســتجابة للعمــل الفــردى ، وفى السورة رقم ٢٦ (الشعراء) نجد الآيات من ١٠٥ الى ١٩١ تتناول قصصا متعلقا بنوح وهود وصالح ولوط وشـعيب ، حيث ان كل نبى من هؤلاء يقول لقومه ما معناه : انى رسول الله اليكم فاخشوه واتبعون ، والا لحقكم من الله عذاب أليم، وهذا يتفق مع فكرة « الرسول » كنذير « محذر » ومن هنا فان القصص الوارد فى سورةالشعراء الآنف ذكرها ليس به شيء عن أسباب دعت الناس لقبول الرسالة التحذيرية التى أتى بها النبى « المحذّر » أو « المنذر » ، انها تبدو كما لو أنها « رسالات » أتى بها « الرسل » وأصبحوا مخولين بصلاحيات كاملة من عند أنفسهم لانذار الناس ، وعلى أية حال فربما كانت القصص الواردة فى سورة الشعراء مبسطة لأن سياقها يتجه لمجال (أو موضوع) آخر .

واستخدام كلمة « الغافلون » له دلالة مهمة أيضــا فى هذا السياق المرتبط بذكر « آيات الله God's 'Signs' كمــا فى سورة يونس (سورة ١٠) ، آية ٧ وآية ٩٢ .

ـ(ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون (٧) أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون (٨)) ٠

ـ (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون (٩٢)) ٠

والآن فان كثيرا من أوائل ما نزل من القرآن كان تعدادا « لآيات » أو « علامات » في الطبيعة لاثبات عظمة الله وقدرته وفضله ، وهذه « الآيات » أو «العلامات» واضحة جلية يمكن لكل الناس مشاهدتها أو ملاحظتها ، لكن معظم الناس « غافلون » عنها فلا هم يلاحظون الظواهر ولا هم واعون بمعناها حتى جاء الوحي فنبههم اليها ٠ وبهذه الطريقة فان أولئك الذين كان تفاعلهم مع القرآن ايجابيا سيحظون بفهم أشمل للعالم ، وان كان يظهر من معاني بعض الآيات أيضا أن هناك من يفهمون بعض « غايات » « ومعاني » آيات الله دون أن يعتمدوا في ذلك على « وحي » واضح ٠

وفكرة « الآية » أو « البرهان » أو « المعجزة » Sign الدالة على الصدق شاعت في العقيدة الاسلامية في وقت متأخر ، لكننا لا نجد في القرآن نفسه الا اشارات قليلة لها ، فلا يكاد يكون « للآية » بمعنى المعجزة لاثبات الصدق أثر كبير اللهم في قصة موسى ، فقد ورد ذكر عصا موسى ويده البيضاء من غير سوء في أكثر من موضع :

ـ آية ١٠٧ ، سورة ٧ « الأعراف » (فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين (١٠٧) ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين (١٠٨)) ٠

ـ وأيضا الآيتين ٣٢ و ٣٣ من السورة ٢٦ «الشعراء».

ـ الآية ٤٥ من الشعراء (فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون) .

ويلاحظ ـ على أية حال ـ أن هـذه « الآيات » أو « المعجزات » أو « البراهين » ليست موجهة لبنى اسرائيل لاقناعهم وانما هى موجهة لفرعون كما هو واضح من سفر الخروج فى العهد القديم ـ الاصحاح السابع وما بعده .

ولم يكن محمد (ﷺ) نفسه حريصا على الاتيان بآيات (معجزات) من هذا النوع نفسه لاقناع العرب أنه رسول الله ، وانما قد جرت اشارات كثيرة فى بواكير ما نزل من القرآن دلالة على عظمة الله وقوته ودعمه للمسلمين ولم ترد آيات تدافع عن كون محمد (ﷺ) رسولا حقيقيا ، ومرة أخرى وجدنا أن انتصار المسلمين فى بدر كان دليلا على أن محمدا «نذير» فعلا للمشركين الذين لا يؤمنون بالله وآياته ، فمعركة بدر جرى استخدامها كدليل وبرهان على صحة رسالة محمد ، وقد تناول القرآن الكريم معركة بدر فى هذا السياق : عقاب لأهل مكة ، وبرهان على صدق « الرسالة » ذاتها ، لكننا نجد أن انتصار بدر لم يستخدم بتركيز واضح لتدعيم مركز محمد كرسول ، أو لزيادة نفوذه أو توسيع اختصاصاته (كرسول) (★) لقد كان نصر بدر عاملا زاد من ثقة المسلمين فى أنفسهم ، لكنه ـ أى نصر بدر ـ ربما لم يكن ضروريا لاستخدامه كبرهان أو دليل على صدق محمد

النص :
but there is nowhere any special emphasis on it as validеting his position as messenger

وقد ترجمناها بطريقة شارحة كما يطالع القارىء فى المتن .

ورسالته لأن المسلمين كانوا بالفعل يعتقدون ذلك ويؤمنون أن محمدا صادق فعلا وان رسالة الاسلام هى الحق المبين ٠

ويبدو أن القرآن (الكريم) يقدم لنا منطقين أساسيين من هذا النوع (انتصار بدر) لقبول الوحى (رسالة الاسلام) فأولا نجده يتوقع من الرجال أن يستجيبوا على نحو ايجابى لدعوة محمد لما عرف عنه من استقامة ، وهذه الحقيقة بالاضافة لثقة محمد التى لم تهتز فى رسالته جعلت كثيرين بلا شك يقبلون دعوته ٠ وثانيا أنه كان ينظر للقرآن من خلال بنائه الأدبى كدليل أو برهان يثبت نفسه ، ويؤكد صحته self -authenticating ، بل ولقد تحدى القرآن العرب بالاتيان بسورة من مثله ــ آية ٣٨ ، السورة ١٠ « يونس » (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) و آية ١٣ السورة ١١ « هود » (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) ٠

لكن حدث فى عصور تالية أن جرى نقاش فيما يتعلق باعجاز القرآن inimitability ، وهل هذا الاعجاز فى محتواه أم فى أسلوبه وصياغته الأدبية ٠ والقراء المعاصرون قد يوافقون على أن العرب وقت نزول القرآن الكريم لم يكونوا قادرين على الاتيان بمثله والدارسون المسلمون بشكل عام يركزون بشكل عام على الاعجاز اللغوى أو الأدبى للقرآن الكريم (الاعجاز فى الصياغة أو الاعجاز البلاغى) والمعتقد الأساسى هو أنه مادام القرآن فيه نفحة فوق طاقة البشر فيما يتعلق بصياغته الأدبية ، لذا فهو ليس انتاجا بشريا لذا فهو ــ كما يقال ــ كلام الله ، ومما زاد من تأكيد الطبيعة الاعجازية للقرآن أن محمد (ﷺ) كان أميا ٠

واذا أمكن اعتبار القرآن مصدرا مستقلا للمعلومات عن الماضى السحيق فان هذا سيقوى الاعتقاد فى نظر بعض الناس أنه من مصدر الهى ، لكن القرآن نفسه فى الواقع لم يقدم لنا نفسه ككتاب تاريخى ، بالاضافة الى أنه يجب أن نلاحظ أيضا أن الادعاء بمعرفة أن حدثا ما قد وقع فعلا ــ أمر لا يمكن التحقق من صحته الا اذا ثبت فى وقت لاحق ومن خلال أسباب تاريخية أن رواية الحدث تمت بالفعل كما روى فى القرآن (أو أى كتاب سماوى آخر) ، ومن المؤكد أن الأسانيد التاريخية أو التحقق من الوقائع التاريخية ليس هو الأساس الذى يعتنق الناس على أساسه رسالة القرآن .

والى حد بعيد فان أسس قبول القرآن كانت كلها أسس واعية Conscious grounds ، وعلى أية حال فان الفكرة الحديثة للانسان تعتمد اعتمادا كبيرا على ما هو غير واع أو على اللا وعى unconscious فعندما يحدثنا المؤرخ المعاصر عن العوامل الاجتماعية والاقتصادية التى تفسر بعض الحركات فى الماضى فانه فى الغالب يفكر فى أسس أو منطلقات غير واعية ، أو انه يفكر من خلال العقل اللاواعى ، وقد يكون الشخص واعيا على نحو ما بهذه العوامل المحركة للعمل لكنه فى الغالب ما يكون على غير وعى بها . الا أن المراقب ــ سواء كان معاصرا للأحداث غير مشارك فيها أو كان مؤرخا يتناول حدثا مضى عليه ردح من الزمن ــ هو الذى يرى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للأحداث ، وبالتالى يصيغ نظريات عن تأثيرها ــ أى هذه العوامل ــ فى مسار التاريخ (أو فى العملية التاريخية (Historical process ، وليس من الضرورى بالنسبة لدراستنا لدراستنا الحالية أن نقدم أكثر من الأسس الموجودة التى نعتمد عليها فى قبول أو رفض هذا الوحى (هذه الرسالة) ،

وقد حللت بالتفصيل موقف أهل مكة فى كتـابى الموسـوم
باسم : محمد فى مكة Muhammad at Mecca

كما تناولته أيضا فى القسم الأول من الفصل السابق فى هذا الكتاب كما تناولت العلاقة بين هذه العوامل والفكر الواعى للانسان فى كتابى :

— Islam and the integration of society.
— Truth in the Religions.

٣ ـ فكرة العرب عن المعرفة

طبيعة الاستجابة للقرآن ـ على الأقل خلال القرن الأول من ظهور الاسلام أو نحو ذلك ـ وطبيعة النظرة اليه ، ومكانته ووظيفته فى حياة المجتمع الاسـلامى ، كل ذلك قد تأثر أو تكيف الى حد ما بالفكرة عن المعرفة ، تلك الفـكرة المحـددة التى كانت سائدة بين العرب فى القرن السـابع للميـلاد • وتعتبر كلمة (علم) هى المحور الأساسى الذى تدور حـوله فكرتهـم عن المعـرفة knowledge ، وكلمة علم تترجم الى الانجليزية غالبـا Science وتستخدم فى العربيـة الاسـتخدام نفسـه الذى تسـتخدم فيه كلمة science فى الانجليزية ، ومع هذا فلازال يطلق عـلى علمـاء الدين التقليديين اسم (العلماء) وهو مشتق من الجـذر (علم) الا أنه من غير المـلائم أن ننظر اليهم باعتبـار أن الكلمـة الانجليزية Scientist تنطبق عليهم •

وما يهمنا فى هذه الدراسـة ليس هـو المدى الاجمالى لمعانى كلمة علم ، وانما المعنى المحدد (أو مجموعة المعـانى

المحددة) لهذه الكلمة فى اللغة العربية ، وهو معنى غير بارز فى اللغات الأخرى رغم وجود كلمات ذات صلة بمعناه ٠

فالمعنى المحدد (للمعرفة) أو (العلم) Knowledge فى العربية يمكن أن يشار اليه بالكلمة الانجليزية Wisdom ولنتفق على هذا مؤقتا ٠ انه (العلم أو المعرفة) حكمة بالنظر الى المسلك العام فى الحياة الانسانية ، وأكثر من هذا فالعلم شىء ينظر اليه على اعتبار أن قلة قليلة هى التى تمتلك ناصيته ، وتمثل هذه القلة الحكماء أو أهل الحكمة Sages or men of wisdom أما من ليسوا حكماء أو أهل حكمة فمنهم قلة أيضا تعتبر هى القادرة على « تفهم » أفكار الحكماء able to 'enter into' the thoughts of the Sages

أما الانسان العادى رجلا أو امرأة فلا يمكنه أن يضيف شيئا لمخزون الجنس البشرى من الحكمة ، اذا لا يستطيع ذلك الا الحكيم sage ، وعلى هذا فالدراسة والتعلم وتحصيل المعرفة أصبحت مرادفة أو مماثلة لعملية حفظ أقوال الحكماء ٠ والفكرة المفترضة وراء ذلك هى انه اذا استطاع المرء أن يتذكر بالضبط الكلمات التى تعبر عن الحكمة (التى نطق بها الحكماء وضمنوها حكمتهم) فانه سيكون قادرا على التفكير بهذه الكلمات (من خلال هذه الكلمات) باستمرار (بشكل متواصل) ، واذا ما وقع للانسان بعض الحوادث أو مرت به بعض الأحداث فانه سيتذكر القول المناسب (الحكمة المناسبة) وعلى هذا فان المرء ـ بشكل عام ـ نتيجة ذلك « سيدخل » enter into فى ميدان حكمة الحكماء ، والدخول فى الحكمة عملية أكثر بكثير من مجرد الفهم البسيط والمبدئى لمعانى النص ٠

وكل هذا يناقض تناقضا حادا فكرة الأوربيين عن المعرفة وأعنى بذلك ما يشار اليه فى أوربا بقولنا « المعرفة كمصدر قوة » knowledge as a source of power

فالمعرفة العلمية Scientific knowledge تعطى الانسان القوة للسيطرة على الطبيعة ، لكن معرفة التاريخ والأدب فأقصى ما تعطيه للانسان هو تعميق فهمه للطبيعة البشرية ومعنى هذا أنها تعطى من يمتلك ناصيتها قوة تجعله يسيطر على البشر ، وعلى أية حال فان أشخاصا كثيرين يمكنهم أن يسهموا فى اختزان المعرفة بهذا المعنى · والطالب المتخرج فى الجامعة والذى يعد رسالة للدكتوراه يفترض انه قادر أن يضيف شيئا ما الى كم المعرفة البشرية · وحتى الأشخاص الأقل درجة ممن يعدون رسائل الدكتوراه يمكنهم أن يسهموا فى بناء صرح المعرفة البشرية بالاضافة اليه ، فعلى سبيل المثال يمكن الاضافة للمعرفة بجمع معلومات خاصة أو محددة عن الطيور المحلية أو الفراشات المحلية أو النباتات أو بجمع مواد عن التاريخ الأبرشى ، أو الآثار ، فمثل هذه المعلومات المجمعة تعد مفيدة لتحسين قدرة الأشخاص ذوى الكفاءات الخاصة على صياغة النظريات الشاملة (التى لا يمكن صياغتها الا بانطباق عدد كبير من المفردات عليها) ·

وفكرة المعرفة كمصدر للقوة تؤثر تأثيرا مهما فى الاتجاه الأوربى لدراسة أديان الشعوب الأخرى وتاريخها · فاذا تعين على الأوربى المعاصر أن يدخل فى حرب ضد بعض البلاد الآسيوية فانه سيحتاج الى معرفة الكثير عن ماضيها لأنه يعرف أن هذه المعرفة ستمكنه من أن يتوقع بشكل أفضل ردود أفعال عدوه فى مختلف المواقف · ويعتبر الدين عنصرا من عناصر هذه المعرفة المطلوبة ، وفى بعض الأحيان كانت

الارسالية والتبشيرية المسيحية الأوربية تنحو فى تفكيرها نحوا استراتيجيا ذا طابع عسكرى من حيث انها كانت تضع فى اعتبارها أن معرفة الأديان الأخرى سيساعدها فى تحقيق هدفها وهو تحويل الناس الى المسيحية ، بينما نجد أن الاسلام ـ من ناحية أخرى ـ ينقص أهله الدراسة العميقة للأديان الأخرى . انهم يزدرون مثل هذه الدراسة أو يترفعون عنها . فما دامت المعرفة هى الحكمة وما دامت الأديان الأخرى غير الاسلام ـ وفقا للرؤية الاسلامية ـ بها خلط كثير وأخطاء عديدة ، فمن غير المستحب أن يحصل المسلم على (الحكمة) بدراسة هذه الأديان أو من خلال دراستها حتى لا تسرى اليه عدوى الأفكار المغلوطة . ويتعرض الدارسون المسيحيون للاسلام كثيرا لسؤال متكرر يوجهه اليهم المسلمون هو : لم تجهدون أنفسكم فى دراسة الاسلام ما دمتم لن تتحولوا اليه . وحتى فى العصور الوسطى نجد أن المؤرخين المسلمين قد أهملوا تاريخ الدول غير الاسلامية مع أن المعلومات عنها كانت متاحة لهم ، ويمكن أن نضيف سببا آخر الى جانب نظرة المسلمين للمعرفة على أنها (حكمة) وهو أن روح القبيلة العربية التى تميل (للفخر) جعلت هؤلاء المؤرخين والباحثين المسلمين يهملون تاريخ (القبائل) الأخرى وأديانها .

لقد وضحنا هنا ـ بشكل حاد ـ الفرق بين فكرة العرب عن المعرفة ، وفكرة الأوربيين عنها ، لكن يجب أن نلاحظ أنه لم يكن عند أى منهما مفهوم واحد للمعرفة ، فبالنسبة للأوربى نجد أن دراسة الأدب العظيم يمكن أن تؤدى الى امتلاك (الحكمة) ربما أكثر مما تؤدى الى فهم الطبيعة البشرية ، فالطالب الأوربى يعني بنص كلمات شكسبير

واليوت T. S. Eliot التى يذكرها مع بعض التجاوز ، دون الاكتفاء بعمل ملخصات جامدة للأفكار .

وعلى النحو نفسه فاننا نجد أن التعليم الاسلامى التقليدى يتضمن التوحيد (اللاهوت الفلسفى Philosophical theology) بل وحتى بعض العلوم الطبيعة دون توسع ، وطبيعة مثل هذه العلوم والدراسات تجعل فكرة المعرفة عند المسلمين أقرب ما تكون الى فكرة المعرفة عند الأوربيين ، وتننحى فى مثل هذه المحاولات ، فكرة المعرفة (كحكمة) . ومع ذلك فقد بقى الفاصل العريض بين مفهوم المعرفة فى الثقافتين (الأوربية والاسلامية) والجدير بالملاحظة أننا عندما نقارن بين التعليم الاسلامى التقليدى من ناحية والتعليم الأوربى الحديث من ناحية أخرى نجد أن التعليم الاسلامى التقليدى ظل ــ الى حد كبير ــ قويا وله تأثيره حتى الوقت الحاضر رغم أخذ معظم البلدان الاسلامية بنظم التعليم الأوربى .

وبسبب الاتجاه الاسلامى العام الى (الحكمة) و (الحكماء) أو (أهل الحكمة) اتخذ انتقال المعرفة فى البيئة الاسلامية شكلا محددا ، فقد لعب « حفظ » النص الدقيق لأقوال الحكماء دورا مهما ، سواء تمثلت هذا الحكم فى شخص لقمان الذين تروى الروايات أقواله وقد عاش لقمان فى فترة سابقة على الاسلام ، أو كان واحدا من الرواد الأوائل للحركة الصوفية ، ومن الطبيعى أن ينظر المسلمون لمحمد صلى عليه وسلم باعتباره من (أهل الحكمة) لذا فقد نظروا لأحاديثه بتوقير شديد وتداولوها بينهم ، فأصبحت الأحاديث تشكل جزءا مهما من التراث الفكرى للمسلمين ،

ففى حوالى سنة ٨٠٠ للميلاد تحقق علماء المسلمين من أنه من السهولة بمكان وضع أحاديث (ابتداع أحاديث أو حكايات) عن محمد (ﷺ) لأن كثيرين كانوا يقومون بذلك بالفعل ، بينما كان آخرون يجرون تعـديلات طفيفة فى أحاديث أو روايات حقيقية • لذا فقـد قام هـؤلاء العلمـاء بوضع (مقاييس) أو (معايير) للتمييز بين الأحاديث الصـحيحة true والأحاديث الموضـوعة false ، وكانت هـذه المعايير تعتمد ــ بشـكل أساسى ــ على دقة الراوى وأمانته ويقظة ذاكرته ، وكان تطبيق هذه المعايير (المنهج) يقتضى معرفة أسماء الرواة منـذ عهـد النبى حتى أيام التدوين (حوالى القرن التاسع م) وأدى هذا الى ازدهار أدب التراجم فظهر العديد من كتب التراجم التى تتناول رواة الحـديث أو بتعبير آخر التى تتناول نقلة الحكمة من الماضى •

أما القرآن الكريم ــ كحكمة مقدسة أو حكمة الهية ــ فقد عامله المسلمون بتوقير واهتمام اشد وأعظم ، وعلى أية حال ، فقد كان هناك فارق ذلك أن القرآن كان يسجل فور نزوله وقد جمع رسميا حوالى سنة ٦٥٠م وقد أدت طريقـة الكتابة ، رغم أنها واحدة ــ الى ظهور طرق مختلفة للقراءات بالنسبة لبعض الأيات ، وقد ظلت هـذه القراءات تتـداول شفاهة لفترة طويلة ومن هنا فقد كان تنـاقل القرآن شفاهة فى الآساس ، ومن هنا فانه تنطبق عليـه الأفكار الاسـلامية المتعلقة بتناقل (الحكمة) أو انتقال (الحـكمة) ، بل انه بالنسبة للقرآن على نحو خاص سرى الاعتقاد أنه بحفظـه وترتيله يمكن للانسان ــ تدريجيا ــ أن يدخل عالم الحكمة أو يوغل فيها ، ويعتقد المراقبون (الباحثون) الأوربيـون المتعاطفون أن تكرار ترتيل القرآن بشكل مستمر ترك لدى

المسلمين تأثيرا لاشعوريا رقيقا وحاذقا أثر على كل نظرتهم للحياة ·

وطالما أن الوحي قد كتب وانه تتم استعادته وتذكره ، كما في حالة التوراة والانجليل والقرآن ، فان الاستجابة له تظل متتابعة مستمرة ، فالاستجابة في هذه الحال لا تقتصر على من يستمعون للوحي أول مرة وانما تتواصل الاستجابة وتستمر للأجيال المتعاقبة ، وهذا ينطبق على التوراة (اليهودية) والتوراة والانجيل (المسيحية) لكنه أشد انطباقا على الاسلام (القرآن) بسبب فكرة المسلمين عن (المعرفة) باعتبارها (حكمة) متناقلة ·

ومن هنا فقد أصبح القرآن (الكتاب المقدس الموحى به) عصب الرسالة (الاسلام) وعمودها الفقرى · وهذا التعبير البلاغي الذى استخدمناه ليس فيه كثير من المبالغة · فمادامت الرسالة الاسلامية حية فان وظيفة القرآن تتغير تدريجيا (المترجم : يقصد بما يتواءم مع تطور المجتمع) فالقرآن الذى تلقته الأجيال المتأخرة له رسالة وله تأثير وله استجابة تختلف على نحو ما اختلافا طفيفا عن رسالته وتاثيره والاستجابة التى حظى بهما عندأجيال سابقة، فاستجابة الأجيال المتعاقبة للوحى القرآنى ، لا تختلف كثيرا أو أن الفروق بينها طفيفة كما عبرنا آنفا ، لأن الأجيال المختلفة لا تتلقى القرآن الكريم منفصلا عن التراث الاسلامي عامة ، انها تتلقاه في نطاق ردود فعل الجيل السابق لها ، فالابن الذى يتعلم القرآن الكريم على يد والده يتعلم أيضا مع تعلمه للقرآن شيئا من استجابة والده للقرآن وتفاعله معه واعجابه به وطريقة نظرته اليه ·· الخ وهكذا فان كل جيل تستمر استجابته للقرآن (الكريم) أو أى وحى آخر متأثرة بعاملين : التاريخ

العام للجماعة الدينية منذ ظهور الدين المقصود حتى اللحظة الراهنة ، والموقف المعاصر أو الوضع الحالى الذى تعيشه الجماعة الدينية أو الشعوب التى تؤمن بهذا الدين · ومن الطبيعى اننا لسنا فى حاجة الى التأكيد على أن هذين العاملين يتغيران من جيل الى جيل · دعنا نتخذ سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٦٠ كمثال ، لنجد أن العاملين المشار اليهما قد اختلفا اختلافا كبيرا وشاسعا بالنسبة لكل معتنقى الأديان الكبرى·

فكل جماعة دينية كبرى ، بل وكثير من الجماعات الأخرى ، تتخذ عدتها لنقل معارفها للأجيال المتعاقبة جيلا بعد جيل · ففى العصور البدائية (الأولى) لعب الأب ـ غالبا ـ دور المعلم وغالبا ما يجرى تشبيه العلاقة بين التلميذ والأستاذ بالعلاقة بين الابن والأب ، ولوحظ أن التراث الاسلامى يركز على منحة الذاكرة لكن لا يغفل أيضا مواهب المعلم الأخرى (غير ذاكرته القوية) .صفاته الطيبة خاصة تحرره من تراث الهرطقة ، وكفاءته فى التعامل مع النصوص المقدسة ، فهو ـ أى المعلم ـ لا ينقل هذه النصوص المقدسة فحسب وانما ينقل معها اتجاهات فهمها وكيفية التجاوب معها · فعملية نقل المعرفة (من جيل الى جيل) تعد ـ اذن ـ دورا مهما على المجتمع أن يقوم به (١) ·

ويمكن توضيح قوة فكرة (الحكمة) كمعرفة ، فى الاسلام ، بملاحظة مصير فكرة مناقضة لها · فالغزالى (المتوفى ١١١١م) وهو فقيه وصوفى اسلامى كبير ، خرج بنظرية مؤداها أن أناسا كثيرين من ذوى الاتجاه الصوفى خاضوا تجارب روحية شبيهة بتلك التى خاضها نبى (يمكن مقارنتها بتجارب روحية لنبى) ، وقد استخدم الغزالى كلمة

(ذوق) وهى كلمة يمكن ترجمتها للانجليزية بكلمة « taste »
بمعناها الأصلى أو الأولى ، وقد انطلقت نظرية الغزالى هذه
من التفرقة بين « سماع وصف لمكان أو شخص » مجرد
« سماع » وبين « رؤية هذا المكان أو هذا الشخص » أى
« المعاينة الفعلية » . واستطرد الغزالى انطلاقا من هذا
المنطق أن هناك فرقا بين فهم صفات الحقائق الروحية فى
القرآن والحديث ، « مجرد فهم » وبين الدخول فى « تجارب
روحية مباشرة » معها . فالتجربة الروحية المباشرة
« التذوق » هى — كما قال الغزالى — ما يملكه الصوفية ،
ويبدو أن الغزالى لم يزعم أن هذه التجربة المباشرة (التى
يخوضها الصوفية) تعطى الحقيقة (الكاملة) وانما هى
تتسم بأنها أعمق بسبب التعامل المباشر مع الحقائق القرآنية
والحقائق المرتبطة بالأحاديث النبوية . ويرى معظم الأوربيين
أن هذه نظرية معقولة ، وعلى هذا فلم تحظ نظرية الغزالى
هذه — رغم شهرته — بقبول واسع فى العالم الاسلامى ،
والذى لا شك فيه أن هذا (عدم قبول هذه النظرية) يرجع الى
الى تعارضها مع فكرة «المعرفة كحكمة Knowledge as wisdom »

وقد يبدو غريبا أن فكرة العرب عن المعرفة « كحكمة »
قد انتشرت انتشارا واسعا خارج العالم العربى فأخذت بها
أجناس متعددة ممن اعتنقت الاسلام . ومن هنا يمكن أن
نخلص — بشكل واضح تماما — أن القرآن الكريم يحظى
بقبول واسع بصرف النظر عن لغته لأنه يتناول القضايا
الانسانية ، فالجوانب المتعلقة باللغة تعتبر لا أهمية لها طالما
كان المرء ينشد الحقائق الأساسية للحياة الانسانية ، وطالما
كانت الرسالة الشفهية verbal message للدعوة تلقى
دعما وتأييدا من المجتمع وهو ما ينطبق على الاسلام ، فالبشر

الذين يتعرضـــون لخطر الغرق يتمســـكون بأى منقذ فعال efficient rescuer • وعـــلى أيـة حـــال فان ما قلتـــاه لا يعتبر شرحا كاملا أو تفسيرا كامل العنـــاصر • فعندما تتحول مجموعة بشرية ذات خلفية ثقافية محددة المعـالم الى الاسلام فانها ستوائم اسلامها ــ جزئيا ــ مع خلفيتها الثقافية السابقة ، ولأنهم ــ أى أفراد هذه المجموعة البشرية المتحولة للاسلام ــ قد أصبحوا مسلمين فمن الطبيعى أنهم سيفكرون من خـــلال المصطلحات القرآنيـــة Quranic terms ، ومع هذا فان الآيات التى سيختارونها (يستشهدون بها) والتفســـير الذى سيفهمون من خلاله هذه الآيات سيكون متأثرا بخلفيتهم الثقافية السابقة ، وقد تؤدى هـــذه التطـــورات الى خلافات مريرة بين المجتمع الواحد لأن كل فريق قد يشعر أن الآخرين يهددون شيئا يمكن اعتباره حيويا لحياة المجتمع ككل •

والقضية التى نشـــير اليها هنـــا جـــديرة بمزيد من الدراسة بالنسبة للمسيحية والاسلام على سواء • وقد تناولت بعض جوانبها فى مواضع أخرى (٢) لكنه تناول لا يغنى عن الدراسة المطلوبة التى أنشد القيام بها • ان صلب المشـــكلة هى ان الـــدين او النظـــام الدينى System of religion أو الدين كنظام يتشرب فى طابعه الفكرى العام تناقضات كثيرة وتباينات مختلفة أو بتعبير آخر انه يضم الى هيكله العام نتاج عقليات مختلفة ومتناقضـــة ، وبالنســـبة لدين عظيم تعتنقه أجناس مختلفة تتجلى بعض اختلافات على شكل مذاهب منفصلة أو اتجاهات فى الرأى ، لكن كثيرا من التناقضـــات أو الاختلافات المترسبة عن الخلفيات الثقافية السابقة عـــلى الاسلام يتم استيعابه أو تشربه أو اذابته ، ومن هنا نجدها تختفى • وقد يميـــل البعض الى الظن الى أن المجمـــوعة ذات

العقلية المحددة عندما تدخل دينا جديدا يجدون أن عقليتهم (طريقتهم فى التفكير) قد تأثرت بالعقلية السائدة (نمط التفكير السائد) فى المجموعة الاكبر التى تعتنق هذا الدين الذى اعتنقته هذه الجموعة الجديدة ، قد يكون هذا صحيحا ، لكنه ليس النسق العام الذى يتكرر عادة ، وعلى أية حال ، ففى بعض الحالات نجد قبولا حقيقيا للدين الجديد ونجد أيضا وفى الوقت بنفسه محاولة للتكيف معه أو تكييفه مع المعتنقين الجدد ، فالذى لا شك فيه وهو أمر جدير بالملاحظة أن أن العقلية الفارسية قد شهدت ازدهارا حقيقيا فى الاطار الفكرى الذى قدمته لهم الثقافة العربية الاسلامية ٠

ان الفقرات الاخيرة السابقة ذات صلة بالوضع الحالى ، فالانسان يواجه مشاكله الخاصة لعضو فى جماعة مختلفة ــ دينية وسياسية ولجتماعية ومنزلية ، وتعتبر الجماعة الدينية ــ على نحو من الأنحاء ــ هى الاكثر أهمية لأنها الجماعة الأكثر عددا كما أنها تتناول الجوانب الأساسية ، وكما ذكرنا آنفا فأن الانسان بتعامله مع مشاكله فانما يتأثر بمجمل تاريخ الجماعة الدينية ٠ انه يتفاعل مع الموقف من خلال مصطلح هذا التاريخ وتراثه ، وليس من الضرورى ان يكون هذا التفاعل صارما جلمدا بمعنى أنه يحذو ــ أثناء تفاعله ــ حذو أحداث مرت ، وردود فعل تمت ، بشكل صارم ، وانما (بتكييف) أو (مواءمة) مجرى الحدث القديم مع الظروف الجديدة ، وحينما تكون هناك مشكلة يتعين حلها ، يجرى دائما تفضيل الحل ذى الجذور الممتدة فى تاريخ الكيان البشرى ٠ ولهذا المبدأ مضامين مهمة بالنسبة لفكرة العمل التبشيرى ، فحركة التبشير المسيحية التى بدأت حوالى سنة ١٨٠٠ لم تفرق بين (أَوْرَبة) الشعوب و (هدايتها للمسيحية) ٠ Christianizing & Europeanizing people

فقد كانت الحركة تتوقع الا يعنى التحول مجرد اعتناق المسيحية وهجر الدين القديم ، وانما كانت تتوقع أن يهجر المتحول للمسيحية كل ثقافته القديمة ، وأن يتخلى تماما عن (عقليته) أو نهجه فى التفكير ، وربما كان هذا مقبولا عند التعامل مع مجتمعات بدائية نسبيا ، لكن الأمر يصبح غير مقبول بالمرة بل وخطرا كذلك اذا جرى التعامل بمقتضاه مع مجتمعات الديانات العظمى (غير المسيحية) ٠

وأخيرا يمكننا التمعن فى مسألة نظرية شائقة ٠ وهى أن الكتب السماوية الموحاة تظل هى هى جيلا بعد جيل ، لكن وظيفتها تتغير تغيرا طفيفا ، كما يتغير أيضا بعض جوانب التركيز بمعنى أن كل جيل يركز emphasize على أمر أو جانب قد لا يكون حظى بالتركيز فى جيل سابق ، كما أن التفسير نفسه ، أى تفسير النص يتغير فى بعض جوانبه من جيل الى جيل ٠ والسؤال المطروح هو : هل الصياغة اللفظية لهذه النصوص الدينية تحتمل عدة معان مما يجعلها قابلة للتحقيق على مدى التاريخ ؟ أم أن البشر الذين يقرأون هذه النصوص يرون فى هذه النصوص اللفظية ما ليس فيها ؟ واذا كانت الصيغة الأخيرة هى الأقرب للصواب فمعنى هذا أن البشر يسقطون رؤيتهم (فراستهم insights) على الألفاظ الموجودة فى النص بسبب علاقتها بالمكون التاريخى ٠ وليس هدفا أساسيا فى هذا الفصل أن نجيب عن هذه الأسئلة لكن اثارة هذه القضايا قد يفيدنا عند الانتقال الى مناقشة (التفسير) فى الفصل التالى ٠

تفسير نصوص الوحى

١ ـ التفسير الأساسى

تعتبر الحالة العقلية (التكوين الفكرى السابق) للمستمعين هى الأساس الذى لا مفر من الاعتماد عليه عند تفسير الوحى تفسيرا معاصرا وأساسيا ٠ لقد ناقشنا بالفعل مسألة أن الوحى موجه للمستمعين ولذا فهو يستخدم مصطلحات واقعة فى دائرة فهمهم للعالم والحياة الانسانية وفى حدود تفاعلهم معها (العالم والحياة الانسانية) ٠ دعنا الآن ننظر لهذا الأمر من منظور مختلف ونبين ـ على أية حال ـ كيف قادت العقلية العربية المسلمين الأوائل نحو تفسير النص القرآنى ٠

فالمستمعون لأى نص (موحى به) مرتبطون بتفسيره وفقا لمفردات اللغة التى يتحدثونها ونحوها ٠ الا أنه فى بعض الأحيان يحتاج الوحى للتعبير عن الأفكار غير الشائعة للمستمعين (معاصرى الوحى) ، فيستخدم الكلمات الشائعة بينهم بعد توسيع معناها ، أو اضفاء معنى جديد عليها ٠ ومن ذلك كلمة الوحى التى استخدمها القرآن الكريم ، والتى أصبحت (مصطلحات) دالا على (القرآن) revelation فالمعنى الأساسى للكلمة ـ على أية حال ـ يعنى الاشارة الى indicating ، أو تقديم برهان،أو علامة أو اشارة أو دلالة دلالة making a sign ٠ وكانت كلمة كافر قبل الاسلام

تعنى الجاحد أو المنكر أو غير الشاكر أو غير الممتن وما الى ذلك واستخدمها القرآن الكريم فعلا بهذا المعنى ، ثم أصبحت ذات دلالة اصطلاحية تشير الى (غير الشاكر لله) ثم المنكر لوجود الله أو المنكر لفكرة أن الله هو مصدر الحياة والخير -

وهكذا انحصر معناها فيما تعنيه الكلمة الانجليزية Unbeliever واستخدمها القرآن الكريم بهذا المعني ٠ وثمة كلمة أخرى دالة فى هذا الصدد وهى كلمة (تزكّى) والتى تعنى عادة (تقديم الصّدقات) alms giving أو (التطهر) أو (التخلص من الذنوب) Purification أو (التخلص من الذنوب بتقديم الصدقات والزكوات) Purification Purification by alms giving ، لكن مفتاح الحل يمكن أن نجده فى ملاحظة واحد من المفسرين الأوائل هو ابن زيد ، الذى أورد الطبرى قوله فى تفسيره للآية ١٨ من سورة النازعات (فقل هل لك الى أن تزكى) : « التزكى فى القرآن يعنى الاسلام » وبالتالى فكلمة (التزكى) تُفهم على أنها الأمور الضرورية التى كان يتعين على المسلم القيام بها فى المرحلة المكية كالايمان بالله وايتاء الزكاة والصلاة ، وربما أيضا قيام الليل ، فقد ظلت الكلمة لفترة تشير الى ما كان اتباع محمد يقومون به بالضبط ، الا أنه بمرور الوقت أصبحت الممارسات الدينية فى مجتمع المسلمين أكثر تعقيدا ، فلم يعد قيام الليل فرضا (لازما) بينما فرضت فروض أخرى كصوم رمضان ، وبالتالى لم تعد منظومة الممارسات التى يشار لها بلفظ (التزكى) قائمة كما كانت فقد استخدم أفراد المجتمع المسلم مصطلحات أخرى فضّلوها ، كالايمان ، للمؤمن ، والحنيفى أو الحنيف ، للمسلم ، وبذلك اختفى فعل تزكى

للدلالة على أفعال المسلم بل وأصبح استخدامه التاريخى فى هذه المرحلة السابقة يعتريه شىء من الغموض .

وفيما يتعلق بالتفسير الأساسى أو الأولى يمكن أن يقال انه فى حالة الاشارة لاحداث بعينها فى بعض آيات القرآن الكريم كما فى مطلع السورة ٨٠ / عبس (عبس وتولى (١) ان جاءه الأعمى (٢) .. الخ) فانه يجب أن نفهم أن الذى عبس وتولى هو محمد (ﷺ) كما أنه من المفيد أن نعرف من هو الأعمى المقصود . وكان المسلمون المعاصرون يعرفونه وربما سمعوا بالواقعة فعلا حتى قبل نزول الوحى لكن بالنسبة للذين لم يكونوا مسلمين حتى بعد وفاة محمد (ﷺ) فان الواقعة وظروفها فى حاجة الى شرح وتفسير ، والأمر نفسه ينطبق على قصص الأنبياء السابقين فقد كان معظم أفراد المجتمع الاسلامى لديهم معلومات بسيطة أو سطحية عن هذه القصص لكن معلوماتهم كان يشوبها نقص وقصور عمل على تعويضه واكماله أفراد آخرون ذوو علم أعمق ، وربما لجأ أفراد المجتمع المسلم الى أفراد من خارج هذا المجتمع نفسه كلجوئهم الى يهود أو نصارى انه يمكننا القول اذن أن عملية التفسير الأولى كانت نشاطا عاما قام به المجتمع ككل (كانت عملا جماعيا) .

وكثير من آيات القرآن الكريم تشير الى تجارب عامة خاضها المجتمع الاسلامى كالتصدى لأهل مكة الوثنيين قبل الهجرة ، والتصدى ليهود المدينة وغزوتى : بدر وأحد . وبالنسبة لأولئك الذين كانوا مسلمين وقت نزول الوحى لابد أن يكون الطلب واضحا أما الذين أسلموا فى وقت لاحق فالأمر يحتاج الى معلومات قليلة عن الظروف التاريخية

التى نزل فيها الوحى أو الظروف التاريخية للحدث الذى أشار اليه الوحى (القرآن) وشيئا فشيئا وجدنا الفرد الأكثر ذكاء يعمل على تشكيل صورة للأوضاع التاريخية التى جرت فيها الأحداث والوقائع أو تشكيل صورة تأريخية تتواءم مع الأحداث والوقائع ، رغم أن هذه الصورة التاريخية تكون فى أبسط تكوين فى ظل فكرة العرب عن التاريخ ، أو حيثما تسود الأفكار العربية عن التاريخ ، والتى مؤداها أن الأحداث أو الوقائع تظهر فجأة دون تطور ممهد لها (تظهر دون تمهيد أو تطور ممهد لها episodic) ، وبينما يذكر لنا بعض المفسرين ظروف نزول بعض الآيات (أسباب النزول) الا أن كثيرا من المعلومات عن الظروف التاريخية لنزول بعض الآيات ينقصنا ، بل وثمة تناقض فيما هو موجود منها بالفعل ، بل ان بعض الروايات عن أسباب النزول لا تعدو أن تكون (حدْسا) أو (تخمينا) من قبل باحثين مسلمين أتوا بعد ذلك (فى زمن متأخر) .

وحينما يكون الوحى (القرآن) ممثّلا فى طلب مباشر أو أمر مباشر فان التفسير فى هذه الحال لا يعدو أن يكون فهما للكلمات ، ومثال ذلك ما ورد فى السورة ٧٤ / المدثر (يا أيها المدثر (١) قم فأنذر (٢) وربك فكبر .. الخ) وحتى فى هذه الحال فان فهم هذه الآيات يتأثر بما كان يُشَاهد من فعل محمد (ﷺ) وصحبه . وفى بعض الأحيان يشتمل قصص القرآن على أوامر غير مباشرة اذا كانت الشخصية التى تتناولها القصة جديرة بأن يحذو المسلم حذوها ، مثال ذلك كيفية تصرف يعقوب وبما تحلى به من صبر كما هو واضح من السورة ١٢ (يوسف) آية ١٨ :

ـ « وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » والآية ٨٣ من السورة نفسها (يوسف) ٠

ـ « قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم » ففى مثل هذه الحالات لابد ـ ليكون (الأمر المباشر) قابلا للتطبيق أو التنفيذ أو الاحتذاء أو الاقتداء به ـ من أن يكون الشخص المتلقى على دراية بتاريخ الشخصية الواردة فى القصة (يعقوب عليه السلام فى هذه الحال) حتى يقنع نفسه أنه اذا حاق به السوء أو ألم به سوء الحظ أن يتصرف على نحو ما تصرف يعقوب عليه السلام ٠

هناك اذن معنى لا تكتمل فيه وظيفة الوحى حتى يتضح ـ على الأقل ـ هذا التفسير الأساسى أو المبدئى ، فالله سبحانه ـ كما نعتقد ـ قصد بوحيه المنزل أن يكون فعالا ومؤثرا اذا اتخذ الناس منه موقفا ايجابيا (أو اذا كانت استجابتهم له فعالة ايجابية) وهذا يعنى ضرورة أن يفهموا الوحى ، والا كيف سيستجيبون له دون فهم ، وأن يدركوا ارتباطه بحيواتهم ٠ وعلى هذا فالتفسير أمر ضرورى لضمان التفاعل أو الاستجابة ، كما أن التفسير يمثل نشاطا مكملا للحركة التاريخية للوحى (١) ٠

٢ ـ التفسير : تكيفه ونظاميته

لابد أن يكون ما ذكرناه آنفا فى هذا الفصل قد وضح بجلاء أن تفسير الوحى (القرآن) مرتبط بشكل جوهرى

بتطور الحياة فى المجتمع وتقدمها المستمر ، وبخاصة ان تفسير القرآن يعتبر عملية مكملة للنظام التاريخى للاسلام (أو للاسلام ككيان تاريخى of the historical organism of Islam) لقد اتسع مجتمع المسلمين اتساعا كبيرا بعد وفاة محمد (ﷺ) فدخلته ملايين من أجناس شتى تشغل مساحات شاسعة من سطح الكرة الأرضية ، وكلما اتسع مجتمع المسلمين زاد تعقد الحياة فيها (لم تعد الفكرة عن الاسلام بسيطة مسطحة) حقيقة ان الاستجابات الأساسية أو التكوينات الأساسية للحياة فى مجتمع المسلمين كانت ـ بالفعل ـ مستقرة ، لكن كان من الممكن تطبيقها أو تفسيرها بطرائق مختلفة (بسبل عديدة او بوسائل مختلفة) وهذه العملية هى ما يمكن ان نطلق عليه التفسير التكييفى أو عملية مواءمة نص الوحى مع الواقع ، ومثل هذا التفسير يعد أمرا ضروريا لأن تطور المجتمع يؤدى لظهور مواقف جديدة ويثير قضايا جديدة ، الا انه رغم أن التفسير يكون جديدا ، بمعنى أنه تفسير لم يسبق التعبير عنه بالطريقة ذاتها ، الا انه ـ أى التفسير ـ لا يكون منبتا أو منفصلا او بعيدا عن المفاهيم التى يتضمنها نص الوحى ، او أن هذا التوافق بين التفسير والمضمون الحقيقى للوحى يمثل الرأى السائد أو وجهة النظر السائدة بين الناس ٠

وخلال القرن الأول لظهور الاسلام أو حتى القرنين الأوليين لقيت عملية التكييف (أو المواءمة) العملية والتشريعية للوحى ، اهتماما كبيرا ٠ فعملية الحكم وادارة العدالة (القضاء) كان لابد أن تسير وفقا لمبادىء القرآن خاصة وقد كان هناك كيانات (جماعات) اسلامية قوية كانت تؤكد على ضرورة ذلك ٠ وكانت عملية (التكييف)

أو المواءمة تتطلب تطبيق المبادىء العامة الموجودة في القرآن الكريم على المواقف الجديدة والظروف الحادثة ، واتضح في هذه المرحلة أن عملية (التكييف) أو (المواءمة) لن تتم بسهولة الا اذا تم الحاق السنة بالقرآن ، والمقصود بالسنة في هذا السياق طريقة تطبيق محمد للمبادىء القرآنية العامة ومن هنا نظر المسلمون للحديث كنوع من أنواع الوحي لكنه يأتي في المقام الثاني بعد القرآن الكريم وكان المفترض أن ممارسات النبي وادارته للعدالة تتفق مع فهمه للوحي ولابد أن يكون هذا الفهم صحيحا فهو مَنْ تلقى الوحي، وهو أكثر الناس التصاقا به ولابد أن فهمه له أفضل من فهم أي مسلم آخر ، وبهذه الطريقة وضع المجتمع الاسلامي لنفسه نظاما تشريعيا على أساس من الوحي .

وثمة تفسير جديد شائق هو أن القرآن (غير مخلوق) uncreatedness of the Quran ، فقد كان المسلمون يعتقدون دائما أن القرآن (كلام الله) وربما لم يحدث طوال قرن أن سأل واحد من المسلمين نفسه ان كان القرآن (مخلوقا) أم (غير مخلوق) أو على الأقل ليس لدينا رواية أو نص مكتوب يفيد أن هذه القضية قد أثيرت خلال القرن الأول من ظهور الاسلام . وأول شخص يقال انه ادعى أن القرآن مخلوق ، يقال انه قتل بعد وفاة الرسول (ﷺ) بمئة سنة ، وقد نوقشت هذه القضية وأحدثت لغطا كثيرا في بدايات العصر العباسي ، ولا شك أن هذه المناقشة في هذا الوقت لها ارتباط بعملية (مواءمة) الوحي أو (تكييفه) التي كانت تجري على قدم وساق في هذه الفترة . وقد أدت عملية (التفسير) و (التكييف) أو (المواءمة) نفسها الى ظهور وضع جديد واثارة قضايا جديدة . لقد كانت

هنـاك قضـايا عمليـة ربمـا كان هـذا السـؤال (هـل القـرآن مخلـوق أم غـير مخلـوق ؟) اشـارة لهـا ، ويمكننا طرح هذه القضية أو القضـايا العمليـة على هيئة سـؤال كالتـالى : هـل عملية (المواءمة) أو (التكييف) للمبادىء الاسلامية لتتمشى مع الوضـع الجـديد أو الحالة الراهنة من عمل (الامام) أو (الخليفة) أو (قائد المجتمع الاسلامى) أو (رأس الجماعة) فى ضوء رؤيته أو فراسته للحاجات التى يمليها الوضع الراهن ، أم أن هذه العمليـة (التكييف والمواءمة) من عمل أولئك الذين درسوا القرآن والسنة بعمق ؟ ولم يكن مثيرا للدهشة أن الموظفين المدنيين معاونى الحاكم (الخليفة) وجهازه الادارى ومنفذى أوامره يفضلون الخيار الأول ، بينما معظم العلماء يفضلون الخيار الثانى ٠

لقد أجبرت هذه القضية بما لها من تتابعات ونتـائج سياسية المجتمع الاسلامى على الاجابة عن السؤال : هل القرآن ـ كلمة الله ـ مخلوق أم غير مخلوق ؟ فاذا قيل انه مخلوق فان هذا يعنى أنه ليس تعبيرا أساسيا عن طبيعة الله ، وبالتـالى فان الحاكم المفوض من الله (الخليفـة) يمكنـه فى بعض الأوقات أن يتخطى المبادىء الواردة فى القـرآن او يعمـل بخلافها ٠ ومن ناحية أخرى فاذا كان القرآن هو كلام الله غير المخلوق فمعنى هذا أنه يعبر عن الله ويعبر عن جوهر طبيعته ومن هنا فلا يستطيع مخلوق مهما كانت له من القداسـة أن يعمل بمبادىء تخالف تلك التى وردت به ، وهـذه النظـرة الأخيرة قد يتضمن معناها أيضـا أن المبـادىء التى يجـرى التعامل بها في كل المواقف المتوقعة مضمنة على نحو أو آخـر فى القرآن٠ وهاتان النظرتان ـ على أية حال ـ كانتا بطبيعة

الحال هما أساس انقسام المجتمع الاسلامى الى : سنة وشيعة، وثمة جانب من الحقيقة فى كلا الجانبين . فحتى الآن يظهر السنة بشكل عام أكثر فعالية فى مجال التطبيق (وضع مبادىء الوحى موضع التنفيذ) لكنهم طوروا الصرامة فى التطبيق a rigidity بطريقة بدا معها انه لا يصلح للحكم بمقتضى الشريعة الاسلامية سوى الحاكم الملهم ، أما الشيعة فكانوا على حق فى التركيز على الحاجة الى الزعيم المعصوم أو الحاكم الملهم inspireal Leader سواء فى الميدان السياسى أو الفكرى (الدينى) وحيثما يصبح الامام حاكما مطلقا absolution ruler وهو الأمر المفترض أيضا ، فان هناك خطرا ممثلا فى أن يبتعد بالمجتمع الذى يحكمه عن مبادىء الوحى ، وهو الأمر الذى يقف ضده بحزم علماء الشيعة أو المؤسسات الشيعية .

وبالاضافة الى الاحتياجات العملية التى واجهها المجتمع الاسلامى بمزيد من التفسير للوحى (النصوص المقدسة) فكان لهذا المجتمع أيضا احتياجاته العقلية (الفكرية) ، فالحاجة الأساسية كانت فى المواءمة بين النظرة للكون كما يستشرفها المرء وبين فكرة الوحى عنه ، وقد ظهرت هذه الاحتياجات العقلية أكثر ما تكون وضوحا لدى أولئك الذين تحولوا للاسلام بعد أن ظلوا لفترة طويلة مرتبطين بتراث أديان أخرى فهؤلاء تختلف خلفيتهم العقلية عن العرب الذين توجه القرآن الكريم اليهم بالخطاب وقد أدت هذه الاختلافات فى العقلية والخلفية الفكرية الى تطور علم التوحيد وأصول الدين (الفلسفة الدينية أو اللاهوت الدينى) مع أنه فى بواكير الاسلام كان هذا اللاهوت الدينى (علم التوحيد وأصول الدين) عادة مرتبطا أيضا بالقضايا العملية .

وعلى المستويين : العملى والعقلى كان الناس يبحثون عن مقياس أو معيار للاتساق او عدم التناقض وانطلاقا من هذا المطلب ظهر التقنين والتصنيف والترتيب المنهجى (★) وكل هذا يمكن النظر اليه أيضا باعتباره نوعا من التفسير فعملية التقنين والتصنيف والترتيب تنطوى غالبا على معنى الاختيار من بين تفسيرات مختلفة للوحى بحيث تكون متسقة أو مُشكَّلة لبناء لا تناقض فيه · وأبسط أشكال التقنين Systemisetion هى تأليف أو انشاء مقاييس أو معايير للايمان (تشبه ما يعرف فى المسيحية بقانون الايمان المسيحى Creed) . وفى المسيحية كانت (قوانين الايمان) لها وضع رسمى اذ كانت تصدرها المجالس الكنسية أو بتعبير آخر كانت هذه القوانين بمثابة قرارات كنسية ، أما فى الاسلام فقد كان ما يطلق عليه تجاوزا اسم (قوانين الايمان) يقوم على صياغتها علماء التوحيد أو أصول الدين · واذا كان هذا العالم أو الفقيه شخصية قيادية فى احدى المؤسسات التعليمية الكبرى قبلت هذه المؤسسة (قانون الايمان) الذى أصدره وبذلك يحصل على دعم من المؤسسة التعليمية ·

وعندما يصدر هذا العالم (قانونه) فانه يُضمِّنه مسائل على شاكلة ما اذا كان القرآن مخلوقا أم غير مخلوق ومدى توافق ذلك مع عقائد المسلم · وقبل ادراك عنصر من عناصر عقيدة المسلم فى مثل (قانون الايمان) هذا تجرى مناقشات ضافية فى العادة تغطى مجالا واسعا ، ويؤخذ فى الاعتبار دائما الآيات القرآنية التى يجرى الاستشهاد بها لتدعيم وجهة نظر أو أخرى ، كما يجرى شرح النصوص

(★) كل هذه المصطلحات الثلاث (التقنين والتصنيف والترتيب) جعلناها مقابلا لمصطلح انجليزى واحد هو systemization ــ (المترجم) ·

القرآنية وتوضيح معناها باسم نحو اللغة العربيـة ومعاجم
شرح مفرداتها ، وبذلك يتم ترجيح وجهة نظر عن أخرى
واذا تتبع المرء الأدلة والبراهين التى ســاقها العلمــاء أو
المتناظرون لدعم موضوع واحد أو قضية واحدة خلال قرن
أو قرنين سيجد أن صياغة العقيدة بشكلها النهائى لم يتم الا
من خلال جهود فكرية (نشاط فكرى) واسع المدى ٠

فاتساق الفكر الدينى the theological system مرتبط
بوحدة المجتمع المسلم ويحدث أن مجموعات مختلفة تريد أن
تجرى « تكييفات » أو « مواءمات » جـديدة بمـا يتمشى مع
ظروف جديدة ، وعادة ما يكون سبب ذلك أن لهذه المجموعات
مصالح اقتصادية متباينة أو خلفيات فكرية متباينة أو كليهما
معا ٠ هذه الاختلافات قد تؤدى الى نزاعات خطيرة فى المجتمع
خاصة اذا شعر طرف من الأطراف المتنازعة أن هناك مصلحة
حيوية له يهددها الطرف الآخر ، والحل الفعال هو التوفيق
بين مصالح الأطراف المتنازعة أو بتعبير آخر تمكين كل طرف
من الأطراف من الاحتفاظ بما يراه أساسيا ، واذا لم يحدث
هذا وظل طرف من الأطراف يشعر بالتهديد ظهر الشــقاق
وأصبح انقسام المجتمع آمرا لا مناص منه ٠ وقد حدث هذا
فى التاريخ الاسلامى بين الخوارج والشــيعة ، عـلى سبيل
المثال ، كما حدث مرة ثانية بين الشيعة والسنة ٠ وكان هذا
نتيجة الفشل فى اكتشاف صيغة توفيقية تكــون متوائمــة
متناسقة لا تناقض بين جزئياتها ، وتكون حاوية على العناصر
التى تعتبرها كل الأطراف ضرورية ٠ فمثــل هــذا الفشل
يؤدى الى انشقاق فى المجتمع ٠

الا أنه يوجد فى كل مجتمع نشــيط نزوع قوى نحــو
الوحدة ، ويرتبط هذا النزوع ــ ربما دائمــا ــ بعقيــدة

لا تحتاج ـ اجمالا ـ الى توضيح اذا كان المجتمع الذى تسرى فيه هذه العقيدة مجتمعا يحيا حياة مزدهرة فاتنة أو بتعبير آخر اذا كان هذا المجتمع مجتمعا جاذبا للجماهير A charismatic one (٢) ـ كما يرتبط هـذا النزوع (الى الوحدة) أيضا بوجود عقيدة لا تجعل لحياة الفرد معنى الا من خلال الجماعة (أو المجتمع) ، فبالنسبة لبشر يفتقدون مثل هذه العقيدة يعد من الضرورى أن نضم للجماعة أكبر عدد من الناس ممن يعتقدون المعتقد نفسه ، ويحملون الفكر نفسه ، وتكـون كيفية اسـتجاباتهم الأسـاسية هى نفسها ، بينما يتم طرح الخلافات الجزئية جانبا لتقبع خلف المكون الفكرى والعقدى الأساسى للمجتمع والتسامح فيه أو بتعبير آخر ابقاء حيز يسمح بوجود خلافات جزئية يغطيها رداء التسامح ٠ ومن هنا تصبح العقيدة امرا معقدا أو متشابكا مركبا لأنها لابد أن تكون مقبولة من مختلف الجماعات المـكونة للمجتمع ـ باحتوائها على كل ما يجعل المجتمع حيويا ٠ وفى هذا الصدد من الشائق أن نلاحظ الفرق بين مجتمع الاسلام ، ومجتمع المسيحية الشرقيـة (المسـيحية الاورثوذكسـية Eestern Christianity or Orthodoxy) ففى حالة المجتمع الأخير نجـد ـ كما يتضـح من مضـمون كلمة أورثوذكسى والتى تعنى السلفى أو التقليدى أو صـاحب العقيـدة الصـحيحة ، أو المتمسك بأصول الدين ٠٠ الخ ـ وحدة صارمة rigid unity معتمدة على قبول عقيدة معقدة Complex Creed أو بتعبير آخر لقد أدت العقيدة الدينية المعقدة للمسيحيين الشرقيين الى وجود وحدة أو ترابط شـديد (صـارم أو متعصب) بينهم ، أما الاسلام من ناحية أخرى فنحن نجد صرامة أقل وأيضا وحدة أو ترابطا أقل لوجود مذاهب مختلفة واختلافات فقهية ، ومع

هذا فقد أظهر المجتمع الاسلامى قدرة عظيمة وامكانية هائلة على استمرار وحدته عبر القرون ٠

٣ ـ طرائق التفسير ومناهجه

عندما نزل القرآن الكريم كان من الطبيعى فى بداية الأمر ـ أن يفسره المسلمون وفقا لمعانى كلماته الواضحة والحرفية ، أى تفسيرا مباشرا ، وعندما ظهرت الخلافات المذهبية أو حدث انقسام،عمد كل فريق من الفرقاء المختلفين الى النص القرآنى ليجد فى آياته ما يدعم موقفه ، ثم جرى تفسير الآية أو الآيات بطريقة تزيد من دعم موقفه وتأييده ٠ وتم استخدام أنواع الحجج والبراهين فى هذا التفسير الموالى أو المشايع أو التفسير الحزبى أو التفسير الذى تعمده كل فريق من الفرقاء المتنازعين Partisan interpretations وأصبح القرآن الكريم بمثابة محك الذهب touchstone الذى لجأ اليه كل الفرقاء ذلك لأنهم أعلنوا منذ البداية قبولهم لحكم القرآن أو مبادئه أو ما جاء به ٠ وكان من الممكن دائما تجريح حجة أو قول باظهار أن الخصم متناقض أو أن أفكاره غير متسقة بعضها مع بعضها الآخر ، الا أنه بصرف النظر عن هذا ، لم يكن هناك اجماع على نوعية الحجج التي يتعين قبولها ، وتلك التى يتعين رفضها ٠

وحتى عندما وصلت مجموعة التفاسير المحلية (أو الاقليمية أو التى ظهرت فى مناطق مختلفة من العالم الاسلامى أو التى تبنتها الجماعات الاسلامية المختلفة أو المتناحرة)(★)

(★) كل هذه المعانى الواردة بين قوسين يحتملها المصطلح الذى أورده المؤلف :
Sectional interpretations

الى درجة عالية من الانضباط والاتساق ، فانها كانت مبنية على مبادىء أو صيغ أو حجج لم تكن مقبولة من الفرقاء الآخرين (لم تحز هذه المبادىء أو الصيغ أو الحجج على اجماع فى المجتمع الاسلامى) فأصبح مستقبل كل فريق معتمدا على ما اذا كان سينظم نفسه بشكل مستقل عن الفرق الأخرى فى المجتمع أو أن يظل شاعرا بانتمائه للمجتمع نفسه (للجماعة نفسها) ساعيا الى ايجاد صيغة وسطية أو توفيقية تجعله فى غير صراع بالضرورة مع الفرق الأخرى . بعض فرق الخوارج المتطرفة مثل الأزارقة اعتبروا كل المسلمين الآخرين (غير الأزارقة) يعتقدون أفكارا أو يتخذون وجهات نظر غير متفقة مع الاسلام ومن ثم فقد اعتبروهم غير مسلمين ، ونبذوهم ورأوا عدم أحقيتهم بالانضمام للمجتمع الاسلامى أو جماعة المسلمين ، ومن هنا فقد اعتبر الأزارقة أنهم فقط (أى الأزارقة) هم المسلمون .

ظلت هذه فكرتهم حتى الآن . ففى مثل هذه الحال لا مجال للمواءمة أو التكيف أو حتى التنسيق مع بقية الجماعة الاسلامية . وبعد فترة وجدنا بعض فرق الخوارج تنبذ أكثر العناصر تطرفا فى فكر الخوارج أو بتعبير آخر تنبذ أكثر العناصر الفكرية بعدا عن فكر المسلمين من غير الخوارج ، وبهذه الطريقة تم قبول اصرار الخوارج على أهمية «السلوك المستقيم » Upright conduct (٣)، ومن ناحية أخرى فان شعرت جماعة أنها وجماعات أخرى ينتمون الى مشترك واحد ـ حتى لو كان ذلك وهما أو غير حقيقى ـ فان امكانية التنسيق بينهم فى التفسير أو التأويل تظل مفتوحة ، لكن وضع هذا التوافق موضع التنفيذ عادة ما يحتاج لشىء من التكلف ، وبصرف النظر عن الخلاف فى

النقاط السطحية التى يمكن تجاوزها ، فان الخلاف فى المنطلقات الأساسية أو الفروض الجوهرية يؤثر يقينا فى طرائق التفسير والتأويل والتنظير وسوق الحجج والأدلة والبراهين ، فلا يمكن احداث تنسيق أو مواءمة الا اذا كانت الفرق أو الجماعات واعية بمناهجها الفكرية فى التعامل مع الموضوع المختلف عليه وليس فقط بالأهداف التى يسعون لتحقيقها ٠

ويمكن تتبع زيادة الوعى بأهمية منهج التفكير والغاية منه بتتبع تاريخ التفسير القرآنى ٠ لقد جرت مناقشات عديدة عن الاستخدام العادى والاستخدام البلاغى للغة ، كما جرت مناقشات عن التفسير المباشر أو الحرفى أو الواضح الذى اصطلح على تسميته بالتفسير (الظاهرى) ، والتفسير الباحث عن المعانى الكامنة فى الكلمات والعبارات وهو ما اصطلح على تسميته بالتفسير (الباطنى) ، وسنتناول بعض جوانب هذا فى الفصل التالى ، أما الآن فسيكون أكثر فائدة أن ننظر الى التناقض بين الطبيعة العامة للتفسير فى المرحلة الباكرة من تاريخ الاسلام ، وبين بعض الطرائق الأخرى فى التفسير التى يفضلها المفسرون هذه الأيام ٠

يمكننا أن نصف تفسير المرحلة الباكرة من تاريخ الاسلام بأنه تفسير « ذرى » أو « جزئى » atomistic حيث يتناول المفسر « الآية » أو حتى جزءا منها ويتعامل معها ككيان منفصل عن السياق أو ككيان مستقل بذاته أو كجزئية لوحدها ، أو ككيان معتمد على ذاته لا على ما قبله وما بعده selr-subsistant atom ثم يستخدمها أى هذه الآية أو الفقرة من الآية ليبرهن بها على مسألة

تشريعية أو فقهية أو متعلقة بعلم التوحيد أو علم الكلام ٠
وربما كان هناك رابط بين هذا التفسير « الذرى » وبين
النظرة الذرية (غير الكلية) للكون **Cosmological atomism**
التى أشرنا اليها فى الفصل الثالث (ص ٣٢ وما بعدها فى
النص الانجليزى) ، فكلاهما « التفسير الذرى والنظرة
الذرية للكون » ربما كانا نابعين من فرضية أن (الشىء)
لا يكون (شيئا) الا من استقلاله فى علاقاته عن الأشياء
الأخرى ٠ وهذا يؤدى الى قضايا فلسفية عميقة لا تدخل فى
نطاق بحثنا الحالى ٠ لكن ما يهمنا هنا هو تطبيق هذا التفكير
الذرى على نظرية الحق **theory of truth** ، ويفهم من
ممارسة أو تطبيق علماء المسلمين فى عصور الاسلام الباكرة
أن الحق والباطل لكل منهما وضعه المجرد ولا صلة لواحد
منهما بظروف خاصة أو أحوال بعينها ، وان المرء يمكنه
تمييز الحق أو الباطل كحالة منعزلة أو بتعبير آخر أن الحلال
بيّن والحرام بيّن ، الا ان هذه النظرية قد تعدلت قليلا بالقول
ان لغة عرب ما قبل الاسلام (اللغة العربية الجاهلية) لابد أن
توضع فى الاعتبار لأنه لا يمكن أن نسقط على الكلمة الواردة
فى الآية القرآنية معنى غير معتاد أو غير مألوف أو غير
معروف اذا لم نكن نعرف المعنى الأصلى كما فهمه العرب
الجاهليون كما يتجلى ذلك مثلا فى بيت أو شطر بيت من
قصيدة جاهلية ٠ وبصرف النظر عن ذلك ــ على أية حال ــ
فانه يمكن للمرء أن يستنتج أو يشتق أو يستنبط معنى آية
من الآية نفسها وليس من خلال النظر بعلاقتها بالآيات الأخرى
التى قبلها والتى بعدها أو من خلال النظر الى سياقها ٠

فالتفسير « الذرى » من النوع الذى وصفناه آنفا ــ عادة
ما يتغاضى عن عدم ترابط المعانى ، الا أن هذا غير صحيح

ولا ينطبق على الطريقة التى تلقى بهـا المسـلمون الأوائل القرآن وفهموه بها ، والمفسرون الذين يسمحون باستخدام المنطق أو استخدام الاستدلال والاستنتاج فى الاستنباط من الآيات القرآنيـة عادة ما يفترضـون انه اذا كان هنـاك تفسيران متناقضان للآية فلابد أن يكون أحدهما خطأ· ومن ناحيـة أخـرى فان معظم العلمـاء المسـلمين المحـافظين يترددون فى استخلاص اسـتدلالات أو اسـتنتاجات قاطعة ويميلون الى الأخذ بكلا التفسيرين أو كلا المعنيين (حتى لو كان أحدهما يتعارض مع الآخر) ، بينما يشـعر العلمـاء الآخرون أن الأخذ بالتفسيرين رغم عدم اتساقهما فيه تناقض لا يقرونه ، ومن هنا يمكن القـول ان هنـاك ارتباطا بين التفسير (الذرى) أو الجزئى أو الذى لا يعتمد «السياق» وبين قبول مبدأ « عدم الاتساق » أو « عدم الترابط » أو « حتمية النتائج المستخلصة من المقدمات(★)»(١) التى سبق تناولها كملمح للعقليـة العربيـة (راجـع ص ٣٤ وما بعـدها من النص الانجليزى ـ الفصل الثالث من هـذه الترجمـة العربية) · وهذا الربط يمكن أن ينبثق من حقيقة أن قبول « التناقض » أو « عـدم الترابط » أو « الشىء ونقيضـه » يتمشى مع الطريقة الشعرية فى التفكير « تفكير الشعراء » الذى يتناقض بحدة مع التفكير المنطقى والمجرد ، فهذا النوع الأخير من التفكير يتعامل مع الأشياء بأن يقسمها فى طبقـات أو أنواع أو فئات ثم ينظر للمـلامح العامة أو الخصـائص العامة لكل طبقة أو فئة أو نوع ويتبين العلاقات بينها ، وهذا النوع من التفكير يتناقض بشدة مع (التفـكير الذرى) بينما التفكير الشعرى أو المادى concrete or poetic يتعـامل مـع الأشـياء فرادى أو يتعـامل مع كل فـرد أو عنصر بمعزل

(★) كل هذه المعانى اعطاها المترجم للمصطلح الانجليزى inconsistency

ــ نسبيا ــ عن الأفراد أو العناصر الأخرى · ان قبول « التناقض » أو « عدم الاتساق » كضرورة لبلوغ ثراء العالم الحقيقى أو للاحساس بكل ما فيه من عظمة وثراء ــ هذه الفكرة ليست قصرا على العرب وانما تبدو جزءا من النظرة السّامية العامة فنحن نجدها أى هذه الفكرة فى التوراة (العهد القديم) ·

ويعد تفسير القرآن وفقا لسياق الآيات ووفقا لأسباب النزول هو التفسير المقابل لما أطلقنا عليه التفسير « الذرى » أو « الجزئى » ، فالتفسير وفقا للسياق يضع فى الاعتبار السورة أو الربع أو الحزب كما يضع السياق التاريخى ويربطها بالأحداث وأسباب النزول· وبصرف النظر عن الحالات التى يتوفر لدينا فيها بعض المعلومات التقليدية عن أسباب النزول فان المفسرين المعاصرين يرون أنه من الممكن أن نعلم شيئا عن سبب النزول بالنسبة لآيات كثيرة باستنتاج المعانى والتعمق فى مفاهيم الكلمات ودراسة مسيرة الأحداث وبذلك يمكن التوصّل لمناسبة نزول الآيات حتى لو لم تتوفر لنا معلومات تقليدية عن أسباب النزول ، ومن هنا فان التفسير وفقا للسياق مع التركيز على الأبعاد التاريخية هو فى الواقع متفق مع عقلية المفسر المعاصر · الا أن عديدا من المفسرين المسلمين قد مارسوا هذا النوع من التفسير ، وجادلوا فى أن معانى معينة لبعض الآيات لابد من اعتمادها والأخذ بها لأنها ــ أى المعانى ــ متفقة مع المعانى الواردة فى آيات أخرى فى السورة نفسها (٤) ·

ومن التفسير وفقا للسياق يمكن للمرء أن يميز نوعا آخر من التفسير هو « التفسير الشامل أو العالمى » global Interpretation · وهو نوع من أنواع التفسير وفقا للسياق لكن

خاصيته أنه يعتمد على أنه ليس مجرد تفسير لآية ، وانما هو يتناول نظرة القران للحقيقة ككل ، وهذا يعنى أن السياق قد أصبح هـو النظرة الكلية للقرآن كما أنه يمثـل المكون التاريخى العام للاسلام • وهذا النوع من التفسير يعنى أن تفسيرات الأجيال المتتالية حتى الوقت الحاضر كانت كامنـة فى الوحى منذ بداية نزوله • لهذا السبب لم يعد المفسرون يركزون على المعنى « الأصلى original » للآية أو بتعبير آخر أصبحت العبرة «بعموم المعنى» لا بخصوصية سبب النزول •

ان النقاط التى أثرناها تؤدى بنا الى قضايا أو أسئلة عن امكانية وموثوقية التفسير غير التاريخى non-historical وأكثر الحـالات وضـوحا لهـــذا هـو تفســير كثير مما ورد فى التوراة (العهد القديم) بالرجوع للمسيح خاصـة أن بعضه يمكن تناوله من مصادره الأصلية بالرجوع مباشرة لبنى اسرائيل • ان اعتماد هذا التفسير يعنى أن هناك تكرارا لتكوينات بعينها patterns أثناء مسيرة التاريخ • وعـلى أية حال ففى كثير من الحالات فان هـذا ليس مجـرد تكرار وانما عرض مختصر (خلاصة) recapituletion للماضى لبناء مراحل تطورية لاحقة فوقه (٥) وبتعبير آخر لاتخاذه أساسـا للبناء أو منطلقـا للتطوير • وما ذكرناه حقائق يعرفها القاصى والدانى منا ، فالطفل فى مرحلة نموه الأولى يكرر معظم ما نراه فى الحياة من أشكالها الأولى حتى مراحلها المتطورة الراقية • كما أن العملية التعليمية تقتضى أن يتعلم الانسان و « يكـرر » ما علمته البشرية قبله فى مجـال من المجالات قبل أن يعد هو نفسه بحثا ذا قيمة فى المجال ذاته • فاذا نظرنا للعـالم نظـرة شـاملة الآن فان « الأبنية » أو

« التكوينات » أو « التشـكيلات » الموجـودة حاليا قد تكون « تكرارا » « لأبنية » أو « تشكيلات » أو « تكوينات » سابقة أو أن « السابقة » كامنة على نحو أو آخر فيها • وسنناقش فى الفصل القادم هـذه الأمور عنـد تناولنا معنى شـخصية ابراهيم فى الاسلام •

الوحى ودلالاته الدياجراماتية

Revelation as Diagrammatic

١ ـ الأبعاد الاسلامية لقضية اللغة الدينية

كان من المحال أن يتجنب العلماء المسلمون طويلا القضايا التى أثيرت حول اللغة الدينية ، ولقد آثارت مثل هذه القضايا أيضا عدة محاولات انسانية عند الحديث عن الأمور غير الحسية أو مسألة استيعاب أو فهم المعانى المجردة (غير المادية أو الحسية) ، لكن هذه القضايا تتخذ أبعادا أكثر خطورة اذا كان الحديث فى مجال الدين خاصة وأن بعض القضايا الرئيسية التى تؤكدها الأديان تسبح جميعا فى مجال الحقائق غير الحسية أو غير المادية ٠ فاللغة الانسانية ـ على أية حال ـ تبدأ بالأشياء التى يمكن استيعابها بالحواس (المدركات الحسية) ٠

وعندما يشرع الانسان فى اطلاقها على الحقائق غير الحسية تحدث مقارنات واضحة أو ضمنية بين ما هو غير حسى وما هو حسى، أو بين ما هو حسى من ناحية والظاهرات غير الحسية من ناحية أخرى ٠ ولم يكن الشعر العربى بعيدا عن ذلك ، فالشاعر يقارن بين حصانه أو ناقته والحيوانات المتوحشة الأخرى . أو بينها وبين السحاب أو بينها وبين بعض الأشياء الأخرى المألوفة لقاطن الصحراء ، قد يقارن الليل الممل الطويل بحيوان بطىء الحركة ، وليس هناك خطر من

اختلاط الأمور ما دمنا نعرف الليل ونعرف أنه بالفعل ليس حيوانا .

لكن الأمور تغدو أكثر صعوبة اذا كان الحديث عن حقيقة ليس للانسان وعى عادى أو ادراك مادى لها بالحواس المعتادة . كيف يفهم المرء عبارة مثل (يد الله) بل - حقا - كيف يفهم المرء كلمة الله God or the diety فى عالم عامر بالآلهة المادية أو الملموسة أو الأصنام أو الأوثان القائمة فى معابد مادية ؟ قد يظن المرء لفترة أنه يمكن الاحتفاظ بنظرة سطحية أو استشراف بسيط لمعنى (الله) .. ان المرء الذى يستخدم الكلمات بشكل كاف لا يتوقع أن يرى يدا من لحم .. وبعبارة أخرى ان المرء يصبح غير واع بالفرق أو بالحد الفاصل بين الاستخدام الحرفى للكلمات والاستخدام المجازى أو البلاغى لها ، لكن على المستوى التطبيقى أو مستوى الممارسة لا خوف من نشوء مشاكل ناتجة عن اختلاط الأمور بسبب غياب الوعى . (المقصود غياب الوعى عن تمييز الحد الفاصل بين الاستخدام الحرفى والاستخدام البلاغى أو المجازى للكلمات)

لكن المشاكل تبدأ عندما يصبح بعض البشر على وعى بوجود هذا الفرق ومن ثم يبدأون فى اثارة القضايا وتوجيه الأسئلة . ومن هنا فان الشخص الذى يتمسك بالنظرة البسيطة الظاهرية يصبح (مُجَسِّما) أو (مُشَبِّها) لأنه سيجعل الله شبيها بالانسان وأن له يدا كيد الانسان وجسدا كسائر جسده ، ومن ناحية أخرى فان هذا الرجل البسيط أو ذا الفطرة البسيطة قد يشعر أن انكار كون الله شبيها بالانسان وله جسد كجسد الانسان ، يعد أمرا مساويا لانكار وجوده . وقد تكون هناك بعض الصحة أو الموثوقية فى وجهة نظر هذا

الرجل البسيط أو ذى الفطرة الساذجة مادام من الصعب تقديم الأمر فى صورة بلاغية أو مجازية دون تحاشى اقحام ما ليس حقيقيا فيه ، فالشىء أو الموضوع عند تناوله بشكل مجازى لابد من بعض التجاوز وأحيانا كثير من التجاوز والبعد عما هو حقيقى ٠

فالليل الطويل قد يكون مثل الحيوان الوحشى البشع الثقيل ، والمجاز يضيف الى معلوماتنا اضافة حقيقية اذا كنا نعرف معنى الليل على الحقيقة بصرف النظر عن الصورة المجازية : تشبيها أم استعارة أم كناية ٠ أما فى حالة الله God فاننا اذا قلنا انه لا يد له على الحقيقة وليس له جسد بشرى حقيقى ، فماذا بقى للدلالة على وجوده ؟!

وقد كانت احدى المحاولات الأولى للعلماء المسلمين للتعامل مع هذه المشكلة هى القول بأن أوصاف الله سبحانه فى القرآن لابد أن تفهم على أنها (بلا كيف) أى عدم تفسيرها حرفيا أو مجازيا كقولهم فى (يد له) ان (له يدا تليق بجلاله) ٠٠ وقد يبدو هذا محاولة للابقاء على التفكير البسيط أو التصور السهل للأمور ٠

والمعارضون للفكرة البسيطة آنفة الذكر يتهمون أصحابها بأنهم (مُشبِّهون) (مُجسِّمون) ، ويميلون الى تأكيد الطبيعة الروحية وغير المادية لله سبحانه وربما كانوا يريدون تأكيد تجاوز ذات الله سبحانه للزمن أو فعل الزمن ، ويدافع المشبهون (الذين يشبهون الله بالانسان) عن فكرتهم عن الله سبحانه بأنه الحى الباقى ، القوى قوة مطلقة والذى أحاط بكل شىء علما، بينما البشر محكوم عليهم بالموت الذى لا يفلت منه أحد ، كما أنهم ـ أى البشر ـ محدودو العلم ومحدودو

القوة • وقد وقفت وجهة نظر المشبهين حائلا صعبا بينهم وبين اقامة البراهين أو الادلة على وجود الله حتى أن المناهضين لهم اتهموهم بانكار وجود الله ، بينما رأى هؤلاء البسطاء أو المشبهون أن معانديهم ينكرون المبادىء الأساسية والمعانى الواضحة التى أتى بها الوحى ، وهكذا راح كل فريق يعتقد ان العقيدة الوسطية يهددها الطرف الآخر • لقد كان الصراع بين الطائفتين مريرا •

وبشكل عام فان المفكرين المسلمين قد ركزوا تركيزا شديدا على فوقية الله سبحانه وسموه وتجاوزه لكل الصفات الأرضية ومخالفته الكاملة للانسان وقد بالغت قلة منهم مبالغة شديدة فى تجريد الله سبحانه وتعالى حتى أصبح من الصعب عليهم أن يتصوروا اتصالا حقيقيا بين الله سبحانه والكون • وعلى أية حال فان معظم المسلمين يركزون دائما على قدرة الله وتصرفه فى مجريات حوادث هذا العالم فما من شىء الا يتم باذنه ، ومن هنا فانه يمكن القول بأن معظم المسلمين يقفون موقفا وسطا من التجريد التام لله سبحانه وسموه ومخالفته لكل المخلوقات من ناحية وبين كون الله سبحانه تعالى حالا فى الكون أو فى بعض مخلوقاته أو كلها من ناحية أخرى (وبعبارة أخرى يقفون موقفا وسطا بين التجريد والحلول) • وكل المسلمين يؤمنون بالوحى (القرآن الكريم) ويصدقون به • وبعضهم يعتمد التفسير المجازى أو البلاغى فيما يتعلق بالآيات التى تتناول صفات الله على نحو ما تتناول صفات البشر (يد الله ، كون الله سميع ، بصير • الخ) وبعضهم يتناول هذه الآيات (بلا كيف) ، ومع أنهم يقبلون الآيات الواردة فى القرآن بنصها الا انهم يرفضون أى مصطلحات أو ألفاظ مشابهة تصدر عن أحدهم بما تفيد تشبيه الله أو تجسيمه •

وعلى الطرف الآخر هنــاك الصــوفيون المسلمون وهم يشــبهون الباطنيين mystics فى الأديان الأخــرى ، فهم ـ أى الصوفيون ـ يتحدثون كثيرا عن الحلول immanence بمعنى حلــول القداســة أو الله ذاته فى الانســان وتتردد دائمــا عبــارة (التخلق بأخــلاق الله) وقد كتب الامــام الغزالى مقالا شائقا (المقصــد الأســنى) برهن فيــه عــلى أن الانسان يمكن أن يتخلق بأخلاق الله دون أن يكون هناك أوجه شبه (تجسيم أو تشبيه) بين الله والانسان · لقد تصدى الغزالى فى مقاله هذا لمشــكلة مستعصــية ، لأن كل التراث الدينى الذى ينتمى اليه يؤكد على أن الله والانسان مختلفان تماما ، وقد اقتنع الغزالى بقلبه (بحدسه ـ بتسكين الدال) أن القيمة الانسانية العليا لابد وأنها موجودة على نحو من الأنحاء فى الذات الالهية · indivinity

هذه الالمامة الموجزة تبين كيف أن العلمــاء المســلمين اهتموا وبعمق بالقضايا التى أثارتها اللغة الدينيــة وكيف تناولوها فى سياق اسلامى ·

٢ ـ الاستخدام البيانى للغة

The diagramatic use of Language

ظلت القضايا المرتبطة باستخدام اللغة الدينية تحظى باهتمام البشر ، ويبدو أن الاهتمام بمناقشة أبعادها قد زاد فى النصف الثانى من القــرن · فالخــلافات بين اللاهوتيين المسيحيين على ما تسميه demythologizing قــد أثر عــلى ترجمة العقيدة المسيحية من الصــيغ الفــكرية thought-form العـائدة الى زمن العهــد القــديم الى الصــيغ الفــكرية

thought-forms السائدة فى أوربا وأمريكا المعاصرتين ·
ان هـذه العملية تفترض وجود حقيقة reality وراء
اللغـة ، انه ـ حقا ـ نوع من الحقيقة لا يمكن أن ينتقـل
ـ جزئيا ـ الا باللغة (★) ان مشاكل مماثلة على وشك أن
تواجه الاسلام فى المستقبل القريب لأن مزيدا من المسلمين
سيتلقون تعليمـا عـلى النسـق الغربى فى مجـال العلـوم
والتكنولوجيا ·

الا أن دراستنا الحالية هـذه ليست مجالا لـكل هـذه
المناقشات التفصيلية ، لذا فسأوجز بعض النقاط التى أوردتها
فى كتـابى Truth in the Religions حتى تلك الـواردة فى
الصفحات من ١٢٤ الى ١٣٠ منه · يظهر لب المشكلة ممثـلا
فى طبيعـة المجـاز nature of metaphor فعندما يتم استخدام
المجاز فى الشعر فليس هناك مشكلة لأننا نعلم فعلا أن الليل
ليس حيوانا متوحشا على الحقيقة ، لكن العلماء Scientists
يستخدمون أيضا المجاز بطرق مختلفة ، فتحت مسمى التشجيع
عـلى الابتـكار والبحث heuristic model يمكن اقتراح
طرائق جديدة فى التجارب قد يكون بعضها مثمرا ، وقد
يستخدم ـ أى المجـاز ـ لتبسـيط الأفكار العميقـة لغـير
المتخصصـين non-scientist كأن يقال ان الضـوء يشـكل
فى بعض الحالات (موجات) ، وفى حالات أخرى يكون عـلى
شكل جزئيات دقيقة أو ذرات particles وفى هذه الحالة
الأخيرة فان الضوء بالنسبة للاختصاصيين ليس موجات ـ على
الحقيقة ـ ولا هو جزئيات على الحقيقة وانما هـو (شىء)
يخضع لمعادلات بعينها قد تتشابه ـ أى هذه المعـادلات ـ مع

(★) المقصود أنه لا يصلح أن ينقل برموز رياضية مثلا ـ (المترجم) ·

معادلات الأمواج حينا ، ومع معادلات الجزئيات حينا آخر ٠
وبسبب مثل هذه الحقائق فان انسان اليوم الذى ألف كثيرا
الرؤية العلمية (الاستشراف العلمى) يميل الى الشعور بأن
(الشيء) اذا لم تكن هنــاك وسـيلة لوصفه غـير الوسيلة
المجازية ، فانه يكون غير حقيقى أو غير موجود unreal
لذا فكثيرون هم الذين يعتبرون كلمة (الرب) أو (الاله)
هذه الأيام لا تشـير الى شيء حقيقى ، وبطبيعة الحـال فان
الربط بين الاستخدام المجازى من ناحية وما هو غير حقيقى
من ناحية أخرى لم يكن هو العامل الوحيدالذى أدى الى ظهور
فكرة رفض الاعتقــاد فى الله ، وانما هنــاك الى جانب ذلك
عوامل أخرى ٠

وعلى أية حال ، فحتى المتدين عليه الأخذ بفكرة وجـود
(شى ما) غـير حقيقى عنـد تطبيق ألفـاظ (التشـبيه)
و (التجسيد) على ذات الله (سبحانه) بمعنى أنه لا يمكن أن
يكون المقصود (بيد الله) يد كاليد التى أكتب بهـا الآن ٠
فالله سبحانه ليس له يد حقيقية من لحم وعظام وعضلات ٠
والمسلم العادى عندما يسمع تلاوة القـرآن فهو بمعنى من
المعانى يسمع كلام الله ، لكن هذا لا يعنى أن الله يتحدث بشكل
مباشر بمعنى أنه ــ أى الله ــ يصدر أصواتا تتحول الى موجات
فى الهواء ٠ ومن هنا فحتى المؤمن يقبل بوجود (شيء غـير
حقيقى) أو (درجة من البعد عما هو حقيقى بالمفهوم العلمى)
فى اللغة الدينية ولكنه أى ــ المؤمن ــ يختلف عن الشـخص
الذى يجعل المجاز مرادفا لما هو غير حقيقى فيؤدى به ذلك الى
الزعم بأن اللغة الدينية لا تقدم للانسـان أى معلومات عن
الحقائق غير الحسية ، لذا فمن المرغوب فيه أن نجـد بعض
الطرق الكافية أو المناسبة للتعبير عن هذه العلاقة بين اللغـة

والحقيقة التى تعبر عنها ، والعلاقة بين اللغة والحقيقة التى تنتقل من خلالها ، أنني أريد أن أقترح أن فكرة الرسم البيانى أو الدلالة البيانية أو التخطيطية diagram تقابل هذه الرغبة أو الأمنية desideratum .

ففى الرسم البيانى أو التخطيطى تستخدم أشكال معينة وألوان معينة لايصال حقائق بعينها • وفى قوائم الأنساب يبين تنظيم الخطوط بطريقة معينة الى توضيح علائق القرابة بين أعضاء الأسرة • ويشار فى كثير من الخرائط بالخطوط للدلالة على السكك الحديدية والدوائر للدلالة على محطات توقف القطارات أو نقاط تقاطع الخطوط ، ومترو الانفاق فى لندن غالبا ما يستخدم الخطوط البيانية مع عدد من الخطوط الموازية بالاضافة لخطوط أخرى متقاطعة معها للدلالة على نظام خطوط المترو آنف الذكر التى يجرى التمييز بينها باستخدام ألوان مختلفة ، وثمة علاقات تشير الى المحطات بالاضافة الى اشارات تشير للمشاهد عن الأماكن التى يغير فيها من خط الى خط • ان كما كبيرا من المعلومات يعلمه المشاهد بدقة مجردة : نظام محطات كل خط ، ونقاط تغيير الخطوط ، الطرق أو الخطوط الممكنة من محطة الى أخرى • ومع هذه المعلومات الدقيقة والمفيدة فان هناك أيضا جانبا غير مطابق للحقيقة ، فانحناءات الخطوط غير مبينة ، والمسافات بين المحطات غير موضحة بدقة ، والألوان المستخدمة لتمييز الخطوط ليست هى الألوان الموجودة فى الواقع •• وهكذا • الا انه رغم مخالفة ذلك للحقيقة فان المسافرين تعودوا أن يضربوا عن هذا صفحا، وأن يستفيدوا من هذه المخططات التى تنقل اليهم بدقة كاملة كل المعلومات المطلوبة •

وكثير مما قلناه ينطبق على الخرائط ، فالأنهار والسواحل وما اليها تمثل على الخريطة بخطوط مماثلة وان كان بمقياس رسم أصغر كثيرا ، فشكل جزيرة قبرص على الخريطة يشبه شكلها عندما يراها المرء وهو محلق فى الهواء ، وعندما تمثل الخريطة جزءا كبيرا من سطح الأرض تكثر التعقيدات الناتجة عن الشكل الكروى للأرض كثرة خطيرة ، لذا يتعين على راسم الخريطة أن يتخير أى الملامح الجغرافية سيقوم برسمها بدقة شديدة • وبصرف النظر عن هذه الملامح الممثلة بأشكال معينة بمقياس أصغر فان هناك كثيرا من الظواهر الممثلة بعلامات اصطلاحية أو بألوان • الا أننا — بوجه عام — نجد أن الخرائط كالرسوم التخطيطية قد صممت لنقل معلومات ، لكن فى حدود معينة • والخريطة الجيدة أو الرسم التخطيطى الجيد ، يحقق هذا الغرض المحدد ومع هذا فان كلا منهما يمكن أن نصفه بأنه (غير حقيقى) أو غير مطابق للشىء المعبر عنه تماما ، وهذا لا يمنع من أن المعلومات التى يراد نقلها الى المتلقى تنتقل اليه بصدق •

وتشبه اللغة الدينية الرسم التخطيطى أو الخريطة من جوانب شتى — ومن هنا يمكن أن نصف اللغة بأنها بيانية أو تخطيطية diagrammatic وهذا الشبه ينطبق على الأفكار التى تتناولها اللغة ، والمؤكدات أو المصطلحات المستخدمة للتعبير عنهما • وهذا التشابه يتمثل فى مجالين : وجود عنصر غير حقيقى أو غير مطابق للواقع element of unreality ، وأيضا فى أنها — أى اللغة ، كالخريطة والرسم التخطيطى — وسيلة ايجابية لنقل المعلومات ، فمن الناحية الايجابية نجد أن اللغة الدينية تقدم

للانسان معلومات كافية عن طبيعة الكون لتمكنه من التصرف فى حياته على نحو مرض ، لكنها من ناحية أخرى لا تقدم له الاجابات الكافية عند كل الأسئلة التى يثيرها حبه للاستطلاع، فاللغة الدينية لا تعتبر مرضية وكافية الا لأولئك الذين يؤمنون بأن للعقل البشرى حدودا لا يجب تجاوزها • واذا أخذنا بهذا المبدأ تصبح اللغة الدينية على أية حال كافية لهذا الغرض العملى المحدد •

وقد يثور اعتراض مؤداه أن الرسم التخطيطى أو الخريطة تتبع تقاليد أو اصطلاحات متفق عليها سواء كانت هذه الاصطلاحات صناعية أو طبيعية ويكون راسم الخريطة أو واضع الرسم التخطيطى على وعى كامل بهذه المصطلحات المتفق عليها • بينما لا يوجد هذا الوعى بالمصطلحات والتقاليد فى حالة اللغة الدينية • والآن مادمنا نعتقد أن اللغة الدينية التى تستخدمها الكتب السماوية الموحاة قد وصلتنا من مصدر علوى أسمى من الطبيعة (فوقطبيعى Supernatural) فقد يقال ان هذا المصدر العلوى قد واءم اللغة لغرض عملى محدود ، مع العلم أن هناك اتفاقا على هذا المصدر العلوى بأشكال مختلفة بين أصحاب الديانات الثلاث ، اليهودية والمسيحية والاسلام • وعلى أية حال فان الرد على الاعتراض آنف الذكر لا يزيد عن كونه ردا للمشكلة الى الوراء أو بتعبير آخر اضافة مزيد من التعقيدات لها • فنحن البشر نحاول دائما أن نصف الحقائق فوق الحسية أو غير الحسية أو غير الملموسة ، بمصطلحات تجسيدية أو تشبيهية ، وقضيتنا التى نتبناها فى هذا الفصل هى أن اللغة باستخدامها المجازى الذى ينطوى على جزء من غير الحقيقة أو وفقا للتعبير الذى اعتمدناه هنا « اللغة كوسيلة تخطيطية أو بيانية

لتوضيح المعنى » تؤدى بنا الى القول بأن اللغة التى استخدمتها الكتب السماوية كافية لتوجيهنا توجيها عمليا فى حياتنا ، ولكنها لا تقدم لنا ما يرضى عقولنا تماما أو ما يشبع نهمنا للمعرفة الكاملة • فحتى مصطلحات مثل (الله) أو (الرب) God و (الوحى) كلها مصطلحات غير ذات معنى محدد (بالمفهوم العلمى القياسى) ، ومن هنا فان استخدامنا لكلمات وعبارات تشبيهية أو تجسيدية على شاكلة ان له (ارادة) و (قوة) تساعدان الانسان فى تسيير حياته – مثل هذا يعطى الانسان ثقة لمواجهة الأحداث ، وعندما نتحدث عن وحى أنزله الله بالحق لانسان ، فان هذا يقلل من قلق الانسان ويجعله يحس أن هناك قوى أعظم منه توجهه وترعى خطاه • ومع كل هذا فان فضول الانسان العقلى لا يلقى ما يرضيه تماما •

٣ – معنى ابراهيم (ابراهام) فى القرآن

ستساعدنا العناصر التى تناولناها آنفا فى تناول معنى شخصية ابراهيم فى القرآن (الكريم) ، فهذا أمر فى الغاية من الضرورة مادام مؤرخونا الحاليون يميلون الى رفض كثير مما أورده القرآن عن شخصية ابراهيم ويعتبرونه محض خيال • فهؤلاء المؤرخون على سبيل المثال يعتبرون أن فكرة دين ابراهيم هى فكرة (موضوعة) أو (منتحلة) أو (مخترعة) لتبرير انفصال محمد عن اليهودية أو نزاع محمد مع اليهود بعد معركة بدر ٦٢٤م بفترة وجيزة وكذلك ليواجه بها (أى بفكرة دين ابراهيم) الانتقادات التى راح اليهود يوجهونها للقرآن (الكريم) • وبطبيعة الحال ، فان كل التأكيدات القرآنية المختلفة عن شخصية ابراهيم تشير اليها ضمن ذكر أحداث عالمية ، ومع هذا فهى لا تخلو من شىء من

المجاز أو بتعبير آخر انها تمثل الرسوم التخطيطية الشارحة من حيث أنها ـ أى الأحداث المتعلقة بابراهيم ـ تقدم للانسان توجيها يتعلق بعلاقة حياته بالقــوى العلوية الممثلة فى الله سبحانه ، بينما أى القصــة المتعلقــة بالأحــداث التى كان ابراهيم محورها ـ لا تقدم الكثير مما يرضى النهم الفكرى أو حب الاستطلاع المعرفى الذى لا يكف العقل البشرى عنه ٠ وما سأذكره هنا ليس شرحا مفصلا للتناول القرآنى لشخصية ابراهيم ومعناها وانما هو مجرد اشارة لبعض أكثر الجوانب ايجابية ، ان القرآن يقرر لنا ان الاسلام هو دين مطابق لدين ابراهيم الخالص ، وهو قول يستحق النظر اليه بجدية ٠

ـ « ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقــوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تمــوتن الا وأنتم مســلمون (١٣٢) أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واســماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون » (١٣٣) ٠

وربما أمكن القول ان اليهودية والمسيحية والاسلام قد استمدت جميعا أصــولها من التجربة الايمانيــة لابراهيم (عليه السلام) ومثل هذا القول يتضمن شيئا غريبا ومثيرا للدهشة بالنسبة لمعظم اليهود والمسيحيين ، أعنى أن هــذين الدينين (اليهودية والمســيحية) يعــودان فى أصــولهما الى تجارب ايمانية سابقة على ظهور اليهودية ، والقرآن نفســه يذكر ان ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا وانما حنيفــا مسلما ، ولم يكن بطبيعة الحال من عبدة الأوثان ٠

ـ (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيــا ولــكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) آل عمران / آية ٦٧ ٠

وقد أَلِف الأوربيون التفكير في العهد القديم (التوراة) باعتباره ممثلا لدين واحد وقد أَلِفَ الأوربيون سماع عبارة على شاكلة (رب ابراهيم واسحاق ويعقوب) لذا فهى صدمة لهم أن يقال ان ابراهيم لم يكن يهوديا ، ومع هـذا (كما أوضحنا فى ص ٥١ من النص الانجليزى ـ الفصل (الرابع) اذا كان الأمر كذلك فقد يقول البعض ان اليهودية لم تبدأ الا بعد الخروج الا أن آخرين سيعتبرونها بدأت منـذ نزول الوحى متضمنا الشريعة على موسى وقد توافق قلة قليلة باعتبار اليهودية مرادفة لقولنا دين بنى اسرائيل ، وحتى اذا اخذنا بهذا التفسير الأخير فان ابراهيم لم يكن يهوديا لأن يعقوب (الذى هو اسرائيل) كان حفيدا له ، وبطبيعة الحال فان ابراهيم لم يكن مسيحيا بأى معنى معتاد ، واذا قيل جدلا ان هنـاك اسـتمرارا Continuity تطـوريا (أو تطـويرا مستمرا) من خلال العهد القديم ، فان هـذا لا ينفى ان التجربة الايمانية التى خاضها ابراهيم كانت سابقة عـلى اليهـودية ، وسـابقة عـلى موسى ، وسابقة عـلى يعقـوب pré-Judeuc, pre Mosaic and pre-Israelite.

وعلى المستوى التاريخى الخالص والمجـرد تعتبر هـذه الحجة أوهى الحجج ، وقد يقترح البعض أن من الأفضـل انكار وجود شخص بهذا الاسـم (المقصـود ابراهيم) وأن المقصود به اسم (قبيلة) أو (اسم جماعة) أو (اسم شعب) ، وحتى اذا كان هذا أيضا بعيدا عن الحقيقة ، فهو فى هـذه الحالة يعتبر أمرا ثانويا • والشىء المهم أنه وجدت تجربة انسانية بالفعل حيث تلقى انسـان أو مجمـوعة من البشر « وحيا » أو « نداء داخليا » revelation or inner voice اعتقدوا أنه قادم من قوة أعلى رؤوفة رحيمـة وانه يمكنهم الاعتماد عليها • ان هذه الطريقة للاسـتجابة لهـذا الحث

المقدس (الحض المقدس أو النداء والمقدس divine prompting)
قد ميزه القديس Paul باعتباره

الأساس الجوهرى للمسيحية ، لقد أسس ـ مستشهدا بما ورد في سفر التكوين ، الاصحاح ١٥

« بعد هذه الأمور صار كلام الرب الى ابرام فى الرؤيا قائلا لا تخف يا ابرام . انا ترس لك . أجرك كثيرا جدا . فقال ابرام أيها السيد الرب ماذا تعطينى وأنا ماض عقيما ومالك بيتى هو اليعازر الدمشقى . وقال ابرام أيضا أنك لم تعطنى نسلا وهوذا ابن بيتى وارث لى . فاذا كلام الرب اليه قائلا . لايرثك هذا . بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك . ثم أخرجه الى خارج وقال انظر الى السماء وعد النجوم ان استطعت أن تعدها . وقال له هكذا يكون نسلك . فآمن بالرب فحسبه له برا . وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها . فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم أنى أرثها . فقال له خذ لى عجلة ثلثية وعنزة ثلثية وكبشا ثلثيا ويمامة وحمامة . فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه . وأما الطير فلم يشقه . فنزلت الجوارح على الجثث وكان ابرام يزجرها .

ولما صارت الشمس الى المغيب وقع على ابرام سبات . واذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عتية . فقال لابرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم . فيذلونهم أربع مئة سنة . ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينها . وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة . وأما أنت فتمضى الى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة .. الخ » .

وقال بولس الرسول فى رسالته الى أهل روما (آمن ابراهيم بالله ، فحسب له ذلك برا) روما/٤، فقرة ٤، وورد أيضا فى رسالة بولس الى أهل غلاطية Galations .

(كذلك آمن ابراهيم بالله فحسب له ذلك برا ، فاعملوا أن الذين هم على مبدأ الايمان هم أبناء ابراهيم فعلا) ٣ / فقرة ٦ .

وعلى هذا النحو فان المسيحيين أتباع ابراهيم ، أو بتعبير آخر فاننا لو فهمنا السياق بهذا المسار العام أو المعنى الشامل كان المسيحيون من أتباع ابراهيم ، ومن ثم يمكننا أن نتناول

(دين ابراهيم) من خلال بناء تاريخي متكامل، فكلمة حنيف الواردة فى القرآن تعنى «المؤمنون» باله واحد (الموحدون) وكلمة مسلم بمعناها غير الاصطلاحى تعنى الخاضع لله أو المسلم أمره لله ، ومن هنا يمكن اعتبار (حنيف) و (مسلم) كلمتين مترادفتين ·

وفكرة القرآن عن دين ابراهيم ـ على أية حال ـ لهـا نتيجة لازمة سلبية ، وهذا يدعونا للتوقف ، وهـذه النتيجة السالبة هى أن دين ابراهيم الخالص أو النقى كان قد اعتراه التحريف فيما كان يقول اليهود والنصارى المعاصرون لمحمد (ﷺ) ، وما قاله القرآن عن التحريف فى التوراة والانجيل لا يبعد كثيرا عما كان يقوله اليهود والنصارى عن التحريف فى عقيدة ابراهيم ·

ويطبيعة الحال فمن الواضح أن الباحثين الغربيين لم يشيروا الى تحريف فى التوراة والانجيل ، بينما ظل بعض المسلمين يؤمنون بذلك ، بل انه من الممكن حتى أن نفهم العبارات القرآنية الواردة فى هذا الشأن على نحو مجازى أو على نحو تخطيطى بالمفهوم الذى شرحناه آنفا (المفهوم الدياجراماتى) وكشواهد لشىء أكثر جوهرية (كدلالة على شىء أساسى بدرجة أكبر) ، وحتى اذا كان كل وحى (المقصود كل دين) كما وصل الى كل نبى كان نقيا وغير محرف فانه بمرور جيل أو جيلين من الممكن بسهولة أن يتسرب التحريف اليه · وكان طبيعيا ـ على سبيل المثال ـ أن يهتم المسيحيون بالدفاع العقلى عن عقيدتهم ضد انتقادات اليهود، لكن بعض المسيحيين كان لديهم شعور بالدونية أمام اليهود (شعور بأنهم أقل درجة (inferiority ولتعويض ذلك

للشعور بالدونية شرعوا «المسيحيون» فى المبالغة بطرق مختلفة تتسم بالحذق والمهارة • وكل حركة دينية تبدأ نقية تكون عرضة — على كل حال — للتحريف فى غضون جيل أو جيلين ، والدليل على ذلك الانكار اليهودى للمسيح ، ورفض المسيحيين لمحمد (ﷺ) كنبى ، وبناء المسلمين لسلسلة من الدفاعات الفكرية ضد المسيحيين واليهود على سواء • فلو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم فى حالة نقاء لاعترفوا بالرسالة التى ألقاها الله اليهم عن طريق محمد (ﷺ) تماما كما فعل ورقة بن نوفل (الذى أفادت الروايات أن استجابته كانت ايجابية لمحمد (ﷺ) • ومن هنا يمكن أن نقول ان اشارة القرآن الى (تحريف) لحق اليهودية والمسيحية وبصورتهما الموجودة على أيامه — قول صحيح •

وثمة ملمح أخر مهم فى الصورة القرآنية لابراهيم وهى رفضه لعبادة الأصنام التى كان أبوه وشعب أبيه عاكفين عليها • لقد ورد هذا فى عدة مواضع فى القرآن (الكريم) منها :

— (وان من شيعته لابراهيم (٨٣) اذ جاء ربه بقلب سليم (٨٤) اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون (٨٥) أئفكا آلهة دون الله تريدون (٨٦) ...) سورة الصافات •

ولم يرد شىء عن العبادة الوثنية لوالد ابراهيم فى التوراة أو الانجيل ، والآن فان عبادة الأوثان أو الديانة القديمة ، وهى — فى الأساس — عبادة قوى الطبيعة خاصة ما يتجلى منها فى مظاهر الخصوبة الجنسية عند الرجل

والمرأة ، ففى مثل هذه العبادة نجد أمورا كثيرة تعد من بين الأمور الجيدة ما دامت تتضمن اعتماد الانسان على قوى أعظم منه • الا انه قد اتضح للزعماء الدينيين الوارد ذكرهم فى التوراة انه لم يكن هناك تطور تدريجى من هذه الديانات القديمة (الوثنية) الى التوحيد •

ومن هنا فاننا نجد أن الأنبياء الوارد ذكرهم فى العهد القديم يهاجمون بشدة عبادة الأوثان ، وقد استوعبت ديانة التوحيد بعد ذلك كثيرا مما هو جيد من هذه الديانات القديمة (الوثنية) • منها فكرة الأضحيات ، فقد اشتمل العهد الجديد (الأناجيل) على كثير مما هو متعلق بتقديم الأضحيات ، وهذا قليل من كثير •

لقد عبر القرآن (الكريم) بلغة مجازية (دياجراماتية) فى قصة ابراهيم عن رفضه لعبادة الأوثان من خلال حقائق عامة عن الطبيعة البشرية ، وقد كان التنديد بعبادة الأصنام أحد الاهتمامات الرئيسية لمحمد (ﷺ) الذى ظل لفترة طويلة يأمل فى انتقال تدريجى من الدين القديم (الوثنى) الى التوحيد الخالص . لكن بعد احداث الآيات الشيطانية (the satanis verses) تحقق ــ أى محمد ــ أن هذا الانتقال التدريجى أصبح مستحيلا ••

وثمة ملمح أخر متعلق بابراهيم ــ لم يرد فى التوراة أو الانجيل ــ وهو ارتباطه ــ أى ابراهيم بمكة وتأسيسه للكعبة هناك •

ــ (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى

الظالمين (١٢٤) واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود (١٢٥) واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير (١٢٦) واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم (١٢٧) ... الخ) .

ومرة أخرى ، رغم أن البحوث العلمية عن الفترة الابراهيمية Abrehamic period قد لا تتفق مع ما ورد فى هذه الآيات ، الا أن هذه الآيات تقدم لنا حقائق مهمة من الناحية المجازية (وفقا لتعبير المؤلف الذى شرحه آنفا : من الناحية الدياجرافية) وفوق كل شيء فهذه الآيات تؤكد البعث الدينى (أو الاحياء الدينى) الذى يعود الى التعبد عند الكعبة في الماضى السحيق ، ما هو فى الواقع الا مماثلا لاستجابة ابراهيم للوحى ، أو بتعبير آخر ان المسلمين ما هم الا الحنفاء الجدد الذين أحيوا سنن العبادة لدى ابراهيم . وهذا يعنى انه بينما وجد تحريف وتشويه فى الأديان السابقة على الاسلام فى مكة الا أن قبسا من الحقائق ربما كان لازال موجودا وقت ظهور الاسلام . وقد احتفظ الاسلام بهذا القبس الصحيح أو بهذه الحقائق المتبقية فاستبقاء الاسلام للطقوس القديمة كالطواف بالكعبة ، وكثير من مناسك الحج والعمرة التى يجب النظر اليها باعتبارها طقوسا عملية لابد أن لها أساسا نظريا (لابد أن وراءها فكرة دينية) .

ورغم ارتباط ابراهيم بمكة الا أن القرآن الكريم لم يذكر لنا عربا انحدروا من نسله الا أن علماء مسلمين فى زمن متأخر ربطوا بين الأنساب التقليدية للعرب بتلك الواردة فى العهد القديم وأخذوا بالقول أن عرب الشمال من نسل اسماعيل • انه من المؤكد أن معظم العرب ينتمون الى سلالة سامية أخرى وأنهم ورثوا العقلية السامية ذاتها وكثيرا من ثقافة الساميين ودينهم •

وطالما استشرف المرء المستقبل فانه يرى ضرورة ملحة لتفاهم متبادل بين اليهود والمسيحيين والمسلمين ، فاذا ما تم هـذا التفاهم المتبادل فستكون فكرة (دين ابراهيم).هى الأرضية المشتركة التى ستقف عليها الأديان الثلاثة ، فدين ابراهيم هو أساس هذه الأديان جميعـا ، وهـو ــ أى دين ابراهيم ــ سيجنبنا النظر للاسلام كدين لا علاقة له بالمسيحية واليهودية ، وأخيرا دعنا نؤكد أنه ليس ثمة خرافة أو وهم فيما يتعلق بشخصية ابراهيم (فى القرآن الكريم) وانما المسألة لا تعدو كونها تعبيرا مجازيا (استخدم المؤلف تعبير دياجراماتى diagrammatically بالمفهـوم الذى حـدده فى هذا الفصل) ليعبر بعمق شـديد عن الحقيقة المطلقـة بأبعادها المختلفة •

أثــــر الــوحى

١ ــ القرآن وطريقة الحياة الاسلامية

لتفهم أثر الوحى القرآنى من الضرورى أن تنظر بعمق أكثر الى الجوانب التاريخية « للكيان التـاريخى للاســلام historical orgenism » فمن الشــائع ان يقال ان انتشـار الاســلام كان مرافقـا ومزامنــا تماما لتوســع الدولة الاســلامية ، وهــذا غير صحيح · حقا لقد كان توسـع دولة الخلافة سريعا جدا حتى انه لم يمض قرن عـلى وفاة النبى (ﷺ) حتى امتدت الدولة الاسلامية من جنوب فرنسا ضامّة اسبانيا وشمال آفريقيا الى شمال غرب الهند ضـامّة آســيا الوســطى أو بلاد ما وراء النهر Transoxania ، الا آن هذا التوسع لم يكن بالضرورة دينيا ، وفى البداية كانت الجيوش الفاتحة من المسلمين ، بل لقد كانت لفترة قصْرا على المسلمين العرب ، لكن الحــاجة الى مزيد من العســكر جعلت القادة يقبلون فى جيوش المسلمين عددا كبيرا من المتحــولين للاسلام خاصة من البربر بالنسبة للغرب الاسلامى ، ومن الفرس فى الشرق الاسلامى · وتبع الفتح تحــول تدريجى للاسلام بين أهل البــلاد من غــير العســكريين ، (ذلك أن العسكريين كانوا قد أعلنــوا اســلامهم كشرط لالتحــاقهم بالجيوش الفاتحة) ، ومن هنا فقــد نمت بالتدريج كيانات اسلامية فى داخل الامبراطورية المفتوحة (يقصــد الدولة

التى كونها المسلمون بالفتح) تفاعلت بعمق مع الوحى القرآنى وراحت تعيش وفقا لتوجيهاته ، لقد انتشرت الاستجابة للوحى القرآنى تدريجيا فيما أطلقنا عليه فى الفصل الأول المناطق المحيطة ببؤرة الحضارة العربية الاسلامية أو المناطق الملحقة Ectosoma ، وشيئا فشيئا أصبحت هذه المناطق الملحقة جزءا أساسيا من القلب أو بؤرة الحضارة الاسلامية وهو ما أطلقنا عليه فى الفصل الأول endosoma (راجع ص ٩ من النص الانجليزى) .

وستغدو القضايا المعقدة التى نناقشها هنا سهلة واضحة بربطها بحقائق التوسع العسكرى . فليس غريبا بالنسبة للدين أن يدعم النشاط العسكرى بدعم الجنود وتشجيعهم فى مواجهة الموت ، ولم يكن الاسلام استثناء من سائر الأديان الأخرى فى هذا الصدد . فقد اعتبر المسلمون أنفسهم (مجاهدون فى سبيل الله) أو كما يحب الأوربيون أن يعبروا ــ اعتبرا أنفسهم فى حروب مقدسة holy war واعتبروا من يسقط فى هذه الحروب شهداء سيدخلون الفردوس حتما . وبالاضافة لذلك فان فكرة « الجهاد » أو الحرب المقدسة توجه كل مسار العمليات العسكرية . وليس هدف الجهاد أو (الحرب المقدسة) مدافعة العدو أو صد هجومه وانما لفرض الاسلام عليه ان كان وثنيا من وثنيى العرب أو اعتباره أهل ذمة (أى مشمولا بالحماية لا يجوز الاعتداء عليه Protected persons) اذا كان من أهل الكتاب والذميون والمتحولون للاسلام لا يمكن بعد ذلك ــ أى بعد اسلامهم أو معاهدتهم ــ أن يتعرضوا لهجوم المسلمين ، لذا فان الطاقات القتالية للعرب التى كانت قد ازدهرت ونمت من خلال حياتهم فى الصحراء والتى لم يكن من السهل كبحها

كان يتحتم توجيهها باستمرار نحو الفتح الخارجي (نحـو مزيد من الفتوح) ، وقد أدى هذا لمزيد من التوسع ٠

ويتجلى أثر الاسلام أكثر ما يكون وضوحا فى نفاذه او اختراقه لثقافة الشرق الأوسط وهيمنته عليها ، فقد كتب ثورنتون L. S. Thornton (١) ان « الدين يدخل فى نسيج البيئة الانسانية بطريقة فريدة تجعل الحياة ذات نمط واحد اذ يجرى نسج العناصر المختلفة » « أو الخيوط المختلفة » فى نسيج واحد من خلال قوة قادرة على التوحيد ، وهذا ما يميز الدين الذى نحن بصدده » ٠

لقد كتب ذلك عن الدين ، وكان الدين المقصود ، هو اليهودية والمسيحية ، دون أن يضع المؤلف الاسلام فى ذهنه عند كتابة ذلك ، ومع ذلك فما قاله ينطبق على الاسلام ٠ لقد كان كثير من المفردات الحضارية والثقافية موجودا بالفعل فى البلاد التى فتحها المسلمون وقد استوعب الاسلام هـذه المفردات اما من خلال الذين تحولوا للاسلام الذين كانوا قبل اسلامهم متضلعين فى جانب أو أكثر من جوانب الحضـارة السابقة على الاسلام أو من خلال دارسين مسلمين تعلموا من خلال اتصالهم وعلاقتهم بأهل الكتاب ، ومن خـلال هـذين الطريقين دخل كثير من الثقافة الفعلية اليونانيـة للثقـافة الاسـلامية (النص : للاســلام) ، ومهما كان الطـريق الذى دخلت عن طريقه هذه الثقافة اليونانيـة فان المجتمع الاسلامى لم يقبل منها الا ما هـو منـاسب وموائم لنسـيج الحياة الاسلامية وللنظرة العقلية للعالم والكون التى يقرها القرآن ، وبمرور الوقت تحقق أن حياة المجتمع الاسـلامى بشكل عام قائمة على استمرار القرآن وتبوئه مكان المركز أو القطب أو المحور Centerality لقد اتضح هذا بجلاء قبـل

سنة ٨٥٠م بعام أو عامين ، عندما أبطل الخليفة المتـوكل المحنة وهو قيام مسئولين فى الدولة باختبار الناس (امتحانهم) للتأكد من ايمانهم بخلق القرآن ، وذلك بفرض عقيدة (خلق القرآن) على كل الناس واعتبارها عقيدة رسـمية للدولة الاسلامية • لقـد أبطل الخليفـة المتـوكل ذلك (المترجم : استخدم المؤلف كلمة Inquisition وهى كلمة مستخدمة فى التاريخ الأوربى لتعنى محاكم التفتيش ، أما فى التاريخ الاسلامى فقد عرفت هذه القضية ، بالمحنة ، او محنة خلق القرآن ، والمعنى واحد) •

ان قوى الاسلام الموحدة والمتكاملة تظهر أكثر ما تكون وضوحا بتفاعلها مع العناصر والمفردات الوافدة من ثقافات أخرى ، فقد نتج عن التوسع العربى العسـكرى والسـياسى موقف ثقافى (أو حضارى) جـديد وجدنا فيـه كثيرا من الثقافات المختلفة ، بل والثقافات الفرعية أو المنبثقـة عن ثقافات آخرى فى حالة احتـكاك مسـتمر بعضها مع بعضها الآخـر داخل اطار عام قدمته الدولة الاسـلامية (النص : الامبراطورية الاسلامية) وربما كان أهم جوانب هذا الاطار العام الذى قدمته الدولة الاسلامية هو رحابة المـكان (أو اتساع الدولة) التى كان الانتقال بين أرجائها سهلا ميسورا دون قيود ، مما أدى الى تمازج الشعوب والأجناس والثقافات تمازجا شديدا ، ومن هنا نشأ موقف (وضع) ثقافى جديد، كما هو متوقع ، نتيجة التوسع العسكرى والسياسى، وكانت استجابة الاسلام لهذا الموقف (الوضع) الثقافى الجديد ممثلة فى قبوله معظم المفردات فى الحضارات الأخرى وادماجهـا فى تنظيمه فقد رحب الاسـلام بالداخلين فيـه من بيئـات مختلفة ، ومن الطبيعى أن يدخل هـؤلاء للاسـلام والبيئـة

الاسلامية عناصر أو مفردات حضارية من معتقداتهم وثقافاتهم السابقة وما قبله الاسلام والبيئة الاسلامية ، سرعان ما انضم ليشكل رصيدا ثقافيا اسلاميا متآلفا ومتجانسا ومقبولا حتى فى عقر داره ، أو فى بلاد المنشأ ٠

ورغم أن التوسع الرئيسى للاسلام من الناحية السياسية كان خلال القرن الأول بعد وفاة محمد (ﷺ) الا أن القرون التالية شهدت مزيدا من التوسع خاصة فى شرق أفريقيا وغربها ، وجنوب شرق آسيا (الآن ماليزيا وأندونيسيا) ٠ لقد انضمت شعوب كثيرة من هذه المناطق الى الاسلام لتصبح جزءا من العالم الاسلامى أو الكيان التاريخى المعروف بعالم الاسلام ، وفى هذه المناطق البعيدة (أطراف العالم الاسلامى) نجد ــ على أية حال ــ اختلافات محلية فى المعتقد الاسلامى قلما تلقى قبولا فى منطقة القلب (قلب العالم الاسلامى أو وسطه heartlands)التى لم يكن لها صلاحيات مطلقة فى اصلاح مفاهيم الاسلام فى المناطق البعيدة عن القلب ، وعلى أية حال ، فقد أدت سهولة المواصلات وتطور الاتصالات السلكية واللاسلكية الى أن أصبح اسلام المناطق البعيدة عن المركز متوافقا ومتوائما مع اسلام المناطق المركزية أو الوسطى ٠

ووفقا لأفكار الجاهلية العربية (الأفكار التى سادت لدى عرب ما قبل الاسلام) فان هذا التطور التدريجى للاسلام وتفاعله مع الثقافات الأجنبية ، قد يكون بداية انهياره ، لأنه بذلك سيفقد نقاءه الأول ، لكن هذا غير صحيح بالمرة ، بل العكس هو الذى ثبتت صحته فهذا التطور ما هو الا تحقيق لما كان موجودا فى الاسلام منذ البداية

(كــونه عالمى النزعة) ، ومن المفيد هنــا أن نقتبس بعض عبارات من كتابات ثورنتون L. S. Thornton (٢) :

« الثقــافات ــ عــلى أية حال ــ بدرجة أو أخرى قابلة للزوال ، لأنها ــ أى الثقافات ــ على عكس الأنساق العظمى للطبيعة ــ فالثقافات هى عملية تكييف أو تعديل للطبيعة ، التى لديها قابلية لفقدان ملاءمتها فى ظل الظروف المتغيرة للتطور التاريخى ، ولهــذا السبب فان الدين الحى يظهــر حيويته بتفاعله مع الثقافات المتعاقبة عبر القرون ، بينما الدين الأقل حيوية قد يتحجــر فى شكل خاص من أشـــكال الثقافة ويؤدى تجمــده الى ضرورة كسره أو تهشــيمه عبر أشكال جديدة من التعبير » ٠

وما أطلق عليــه المــؤلف هنــا « تحجرا fossilization » يمكن ضرب أمثلة عليه من معظم الأديان ، الا أنه من غــير المؤكد على أية حال ، أن « الحيوية Vitality » تعــــد شيئا محددا فى تعبيرات أو مصطلحات محددة ، اذ يبدو أنه فى مراحل بعينها لا يمكن التنبؤ بها.ينطلق دين بعينه كان يبدو متحجرا نسبيا ويستجيب بشــكل ايجــابى لتحديات وتجارب جديدة بشكل يمنحه حياة جديدة أو بعثا جديدا ٠

٢ ــ فشل المسيحية فى الشرق الأوسط

الجانب المهم فى انجاز الاسلام فى الشرق الأوسط هــو انه حل محل المسيحية التى كانت محور الحياة الثقافيــة فى هذه المنطقة ٠ مناطق شاسعة كان سكانها فى غالبهم يشكلون « قلب » endosoma العالم المسيحى ، فأصبحوا يشــكلون

« قلب » endosoma العالم الاسلامى • انه من الضرورى أن نتمعن فى أسباب هذا التغير بعناية • لقــد تحدثنا كثيرا فى هذه الدراسة عن قوة الاسلام • واذا كان علينا أن نحــذو حذو أرنولد توينبى Arnold Toynbee ــ على أية حال ــ لقلنــا ان السبب الجوهرى هو الضعف الداخــلى للمســيحية (أو ضعف المسيحية من الداخل أو كمون بذور الضعف فى قلب المسيحية) •

يتعين علينا ان نبحث عن جذور فشل المسيحية بمعالجة موضوع المسيحيين الشرقيين Oriental • ســنقصر المصطلح هنــا عــلى المســيحيين الذين يتحــدثون لغـــات oriental شرقية (غير اليونانيــة) خاصــة السريانيــة والقبطية أو الأرمنية ، فهذه اللغات تحدث بها اناس كانت بالنسبة لهــم كافية لتكون محور الثقافة ، وهى فى هذا تختلف عن بعض لغات آسيا الصغرى التى استمر الناس يتحدثون بها الا أنهم استخدموا اليونانية للأغراض الأدبية ، أى أن لغاتهم أصبحت لغــة حديث لا لغــة أدب مكتوب • ان كثيرين من (المسيحيين الشرقيين Orientals) خاصة اللاهوتيين منهم استخدموا أيضا اليونانية فى الكتابات الجادة ، لكن طريقة تفكيرهم كانت بشكل أساسى بعقليتهم فى لغاتهم الأصلية (السريانية) القبطية ، الأرمنية ••• الخ) •

وقد أدى الاختلاف فى العقليات الى اختلاف فى الصيغ اللاهوتية فى قضايا مختلفة ، وعندما كانت تطــرح هــذه القضايا اللاهوتية المختَلَفِ عليهــا أمام المجــامع المســكونية (العالمية) كان (اليونانيون) Greeks يســـتبعدون المســيحيين الشرقيين (النــاطقين باللغات آنفــة الذكر فى

السطور السابقة) من حق التصويت · وبمرور الوقت وجد المسيحيون الشرقيون Orientals أنفسهم وقد اعتبرهم الآخرون هراطقة مخرفين ، بل واعتبرتهم الامبراطورية البيزنطية طريدى عدالة ومحرومين من حماية القانون ·

وهم مجموعتين من مجموعات الهراطقة (المقصود الذين اعتبروا هراطقة) هم المنادون بالطبيعة الواحدة Monophysites والنساطر (أو النسطوريون) Nestorians · لقد كانت عقليات هاتين الطائفتين متعارضة فى نقاط كثيرة (تعارضا ديماتريكيا أو مجازيا والكلمة الأخيرة ترجمة تقريبية كما اتضح من سياق الفصول السابقة) رغم أنهما ـ النساطرة والمنادون بالطبيعة الواحدة ـ وجدا من بين الناطقين بالسريانية ، وربما كانت الخلافات بينهما انعكاسا لاختلافات فى اللغة السريانية نفسها (اختلاف فى اللهجات أو طريقة النطق وما الى ذلك مما يفرضه التباعد الجغرافى ـ المترجم) ، أما الأقباط الذين هم من سلالة المصريين القدماء فقد اعتبروا أيضا من أنصار الطبيعة الواحدة monophysites رغم أن نظرتهم تختلف اختلافا هينا عن أنصار الطبيعة الواحدة من الشوام (اليعاقبة) · فى كل هذه الطوائف ، أصبحت الخلافات اللاهوتية المحددة محورا من محاور مكونات الشخصية لكل طائفة من هذه الطوائف فى مواجهتها السياسية لليونان البيزنطيين أو بتعبير آخر أصبحت الخلافات فى العقائد اللاهوتية بمثابة تمسك بالذاتية أو احساس وطنى فى مواجهة الدولة البيزنطية ، وعندما تم طرد هذه الطوائف من الكنيسة المسيحية (للدولة البيزنطية) قامت ـ هذه

الطوائف بتأسيس عقـائد تحاشت فيهـا الهرطقات الأكثر خطورة (ما اعتبره الآخرون هرطقات خطيرة) التى اتهمهم مناوئوهم بها، ولم يكن هذا كافيا لرأب الصدع بين الطوائف المسيحية ، فقد تنامت لدى الأطراف المتنازعة الرغبة فى عدم التوحد will to disunity ، ومن هنا كان طرد المسـيحيين الشرقيين Orientals من الكنيسة ومن المجامع المقدسة على أساس أنهم (هراطقـة) أدى الى قيام المسيحيين الشرقيين بتأسيس منظمات كنسية منفصـلة ، وأدى هذا الى اضعاف المسيحيين الشرقيين ، والجهـاز الـكنسى الرئيسى (للدوله البيزنطية) على سواء ·

وكى نفهم فهما كافيـا مسألة طرد المسـيحيين الشرقيين لابد أن نلم بخلفية الموضوع على نطاق أوسع · فبعد فتـوح الاسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد امتدت الثقافة الهيلينستية حتى بلاد ما وراء النهر وشـمال الهند ، أما ما وراء ذلك الى الشرق فقد كانت الهيلينستية واهنة ضعيفة · وفى الفترة المعاصرة لمحمد (ﷺ) كانت الثقافة الهيلينستية هى السائدة من جوانب عدة فى بلاد الفرس (الساسانيين) وأسس النساطرة (الناطقون بالسريانية) والذين طردتهم الامبراطورية البيزنطية مؤسسات للتعليم العالى فى العراق ومناطق أخرى فى غرب الامبراطورية السـاسانية ، ومع أن لغة التدريس فى هذه المؤسسات كانت هى السريانية الا أن الفلسفة اليونانية والعلم اليونانى (بما فى ذلك الطب) كان لهما مكان فى المقررات الدراسية فى هذه المؤسسات ، ورغم أن تقدما قد تم احرازه لدمج كثير من عناصر الثقافة اليونانية فى الثقـافة المحليـة ، الا أنه بدا أن هنـاك بعضـا ممن لا يرفضون هذه الثقافة اليونانية ويرفضون معها السيطرة

البيزنطية . واذا بدأ المرء من الطرف الآخر ونظر للثقافة اليونانية فانه يرى أن كثيرا منهـا قد جـرى امتصاصـه واستيعابه فى العراق وسوريا ومصر وقد أسـهمت هـذه المناطق بقسط وافر فى الحياة العقلية ، الا أن الجمـاعات العرقية (الاثنية) والثقافيـة فى هـذه المنطقة لم تلتحم التحاما كاملا وأدى هذا الى استياء وسخط كان لهما نتـائج سياسية . وهكذا تحولت الخـلافات اللاهوتية الى شـعارات سياسية لذا فعندما فتح المسـلمون سوريا ومصر رحب بهم السـكان باعتبـارهم محررين لهم من سـطوة اليـونانيين (البيزنطيين) المقوتين .

وقد لخص كريستوفر داوسون Christopher Dawson بعض هذه النقاط بأسلوبه الموجز المفعم بالمعانى عندما قال ان محمدا (ﷺ) كان هو اجابة الشرق على تحدى الاسكندر(٣) فقد كان محمـد هـو مؤسس الدولة الاسـلامية التى سرعان ما اتسعت لتصبح دولة كبرى (امبراطورية) أصبح لهـا ثقافتها الخاصة وحضارتها المتميزة فى مواجهة الهيلينستية بوجه عام . وكانت عقلية العرب متماثلة مع عقليـة أهـل العراق والشام وكانت أقرب اليهم من عقليـة اليونانيين ، وفى ظل الاسلام قبلوا كثيرا منها (أى كثيرا مما فى العقلية اليونانية)(★) أما المسيحيون ـ من ناحية أخـرى ـ فقـد انحازوا الى انتشار الثقافة الهيلينستية . وقد ظل النساطرة هم حملة لواء الثقافة الهيلينستية فى العراق حتى بعد طردهم

(★) النص : The mentality of Arabs was of Course by no means identical with those of the peoples of Iraq & Syria- but it was closer to them than that of the Greeks, and under Islam they accepted much of it.

من الامبراطورية البيزنطية ، لذا فليس مستغربا أنه حين أتى رد الفعل المعاكس للثقافة اليونانية كان المسيحيون أول من عانى من جراء ذلك. لقد كان الموقف شبيها حقا بعلاقات الارساليات التبشيرية خلال القرن ونصف القرن الأخير بالانتشار خلال عالم الثقافة الأوربية الأمريكية • لقد قبل العالم كله الجوانب الثقافية والتكنولوجية من حضارتنا (الأوربية الأمريكية) لكن طالما كان الاستعمار الأوربى يتراجع ، فان كثيرا من مواطىء المسيحية (مراكز المسيحية التى نشأت فى حضن الاستعمار) سوف تندثر وتضيع منا الى الأبد ، تماما كما فقدت الهيلينية قواعدها أمام الاسلام •

وقد يقال ، ان المسيحية قد فشلت فى الشرق الأوسط بسبب عدم قدرتها على التحكم فى البيئة to « master « the environment (٤) لقد ووجهت المسيحية بثقافات وشعوب متصارعة • فقد كان هناك صراع بين الثقافات المختلفة فى الدولة الرومانية ، وبينها وبين ثقافات وراء حدودها الشرقية وحاولت المسيحية كثيرا أن توائم بين الطوائف المختلفة الناطقة باليونانية (فكثير من شعوب آسيا الصغرى لم يكن لديهم لغة كتابة « أو لغة أدب » سوى اليونانية) كما حاولت أن توائم بين الطوائف الناطقة باليونانية من ناحية والناطقة باللاتينية من ناحية أخرى • وبعد أن امتدت جهودها لتشمل كل هذا لم يبق لديها طاقة كافية للتعامل مع المسيحيين الشرقيين Orientals (بالمفهوم الآنف ذكره) وبدلا من بذل المزيد من الجهد لاستيعاب وجهة نظرهم والعمل على التقريب بين أفكارهم وأفكار الناطقين باليونانية ، كان من الأيسر اعتبارهم هراطقة ، انه الأسلوب الأسهل لكنه ليس الأقوم • ولقد تم اجبار بعضهم على مغادرة الامبراطورية البيزنطية فلجأوا الى الدولة الساسانية يلتمسون فى أرضها

الحماية ولم يكن ذلك كارثة للمسحيين الشرقيين المطرودين من (الكنيسة البيزنطية Greak Church ») وانما أضعف هذه الكنيسة بانفصال مسيحيين كثيرين عنها . لقد أدى ذلك الى تلف تدريجى فى الكيان المسيحى كما كان خسارة « للكمال الثرى » أو (الكلية الثرية) أو (التمام الخصب) للحقيقة(٥)، ففكرة (الحقيقة المسيحية) كما يراها اليونانيون تميل الى المطلق ، رغم أن ذلك ليس كاملا وانما على نحو جزئى ، بينما المسيحية ـ على الأقل فى منطقة البحر المتوسط الشرقية وما وراءها شرقا ـ أكثر ما تكون قربا ـ على نحو مفرط ـ من النظرة الثنوية اليونانية Greek dualistic outlook . وفيما وراء حد معين أو نقطة بعينها فشلت المسيحية فى فرض التنسيق (أو الهارمونية) على هذه الخلافات .

لقد دخل الاسلام اذن فى منطقة لم تحقق فيها المسيحية نجاحا أو لنقل انها فشلت بالفعل ، فالبلاد التى كان يسيطر عليها المسيحيون الشرقيون orientals فى وقت من الأوقات أضحت الآن بلادا اسلامية عميق اسلامها . وفى آسيا الصغرى وتركيا الأوربية (المناطق التركية الواقعة الى الغرب من البسفور والدانيل) ربما كان السكان المسيحيون الأصليون قد أبعدوا فى غالبهم عن البلاد وحل محلهم آخرون مسلمون بالفعل، أو تحولوا للاسلام بعد ذلك بفترة وجيزة. وعلى أية حال ففى كل مكان تحول نسل المسيحيين الشرقيين الى الاسلام بل ، لقد تحول عدد كبير منهم أنفسهم لا سلالاتهم فقط ، ولا يمكن أن نعزو ذلك لمجرد الضغوط المادية والاجتماعية كاعتبار المسيحيين فى الدولة الاسلامية مواطنين من الدرجة الثانية Second-class ، ولن يفهم

المسـيحى فهما كامـلا ما حـدث بالضـبط الا اذا أعـد لتقبـل حقيقـة أن هنـا ـ أى فى هـذه المنطقـة ـ كانت المسـيحية فى وضـع أقل (من الديانات الأخـرى) أو بتعبير آخـر ربما كانت المسـيحية فى هـذه المنطقـة تحظى بقبول أقل ، ربما حتى من الناحية الروحية (★) أو على الأقل انها نظرية مقبولة ظاهريا أن المسيحيين الشرقيين غدوا غرباء الى حد ما عن المسيحية خاصة عندما ارتبطت ـ أى المسيحية ـ على نحو مبالغ فيه ، بفكرة الثنوية فى الانسان ، أو بتعبير آخر ان الانسان روح وجسد ، وهى فكرة يونانية ، وبهذه النظرة يكون الانسان مكونا من جسد وروح ، وان الروح هى جوهر الانسان أو الانسان الآساسى essential man وأن الجسـد مجـرد عبـاءة أو أداة من أدوات الروح أو حتى بمثابة مقبرة لهـا • ومن ناحيـة أخـرى فان صـيغة من الصـيغ الكليـة بمعنى اندماج الـروح فى الجسـد والجسد فى الروح وبتعبير آخر أن الانسان كل واحد تندمج فيـه روحه وجسـده monistic كانت هى الصيغة السائدة عن الانسـان لدى المسيحيين الشرقيين وغيرهم من شـعوب الشرق الأوسط • وقد تم توضيح هـذه الفكرة (monistic) فى الأناجيل (العهد الجديد) ، فنحن نقرأ فى انجيل مرقس :

« فان كانت يدك فخا لك فاقطعها : أفضل لك أن تدخل الحياة ويدك مقطـوعة من أن تكـون لك يدان وتذهب الى

(★) نظرا لدقة المعنى نفضل ايراد النص الانجليزى :

... to admit that here christianity may have been inferior, perhaps even spiritually inferior.

جهنم ، الى النار التى لا تطفأ حيث دودهم لا يموت والنـــار لا تطفأ ، وان كانت رجلك فخا لك فاقطعها : أفضل لك أن تدخل الحياة ورجلك مقطوعة من أن تكون لك رجلان وتطرح فى جهنم ، فى النار التى لا تطفأ حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ ، وان كانت عينك فخا لك فاقلعها : أفضل لك أن تدخل ملكوت الله وعينك مقلوعة من أن تكــون لك عينـــان وتطرح فى جهنم النـــار ، حيث دودهم لا يمــوت والنـــار لا تطفأ) ٩/٤١ ــ ٤٨ ٠

ليس فقط فى هــذه النقطــة وانما أيضـــا فى نقاط أخرى ، وجدنا العقلية ، النســطورية قريبــة من العقليــة العربيــة لذا فمن المقبــول ظاهريا أن نجــد معظم المسيحيين الشرقيين تحولوا للاسلام لأنهم وجدوا فيه تعبيرا عن التوحيد monotheism أكثر ملاءمة لعقليتهم الواضحة distinctive mentality أكثر مما وجدوا فى المسيحية ٠

بل أكثر من هــذا اذ يمكن أن نقول انه بينما فشــلت المسيحية ــ على أساس من المفــاهيم اليونانيــة ــ أن تقــدم نفسها للعقول الشرقية ، فان الاسلام ــ على أساس من المفاهيم العربية ــ نجح فى احــراز بعض التقــدم بتقــديم الأفكار اليونانية ٠ انها لحقيقة معروفة جيدا انه فيما بين القرنين التاسع والثانى عشر للميلاد قبل الوسط الثقافى والفكرى الاسلامى كثيرا من الفلسفة اليونانية والعلوم اليونانيــة ٠ ومن الشائق أن نلاحظ الآن الكلمة العربية (نفس) اذ ان لها معنيين محددين واضحين ، فهى فى القرآن (الــكريم) عادة ما تعنى ما نعنيه بالانجليزية عنــدما نقـــول self بمفهوم (تكامل الانسان) أو كونه (كيانا واحدا متكاملا) بينما نجدها عند الكتاب المتأثرين بالفــكر اليـــونانى تعنى

(روح) soul المقابلة لكلمة جسد body بمفهوم الثنوية اليونانية dualistic ومن نافلة القول أن نقول ان هناك الكثير من الثقافة اليونانية نبذه الاسلام تماما ، ليس أقله « التراجيديا اليونانية » والانجازات الكبرى فى الخيال الشعرى ، وهذا الاهمال يمكن أن يكون مجالا للتركيز لتوضيح الفارق بين العقليتين .

٣ ـ تكوين النظرة العالمية الاسلامية

كان إحكام النظرة العالمية للاسلام (كونه دينا عالمى النزعة) مما جعله يستوعب تراث المسيحية الباقى بين شعوب الشرق الأوسط التى كانت مسيحية ، ومن هنا فقد أصبح المفكرون المسلمون هم حملة الثقافة العقلية intellectuel لكل المنطقة ، ولا كمال صورة اثر الوحى القرآنى من الضرورى ان نفحص ـ على الأقل ـ المراحل الرئيسية للوصول الى العالمية (النظرة العالمية) المعتمدة على النص القرآنى ذاته .

لقد كان الموقف عند ظهور الاسلام واضحا تماما على النحو التالى . ففى المناطق التى عرفت فيما بعد بأنها قلب الاسلام (قلب العالم الاسلامى) كان هناك بالفعل نوع من الوحدة الثقافية ، وهذا ينطبق على نحو خاص فى مصر والشام والعراق وفارس . فقد أسهمت هذه البلاد فى ثقافات (حضارات) تطورت فى كل من وادى النيل ودجلة والفرات . ولقد انصهر فى هذه الثقافات شىء من الثقافة الهيلينيستية ، بينما كانت الأفكار اليهودية المسيحية قد اخترقت ـ أيضا ـ النسيج الثقافى كله . أما الحبشة فقد

شاركت أيضا فى هذه الثقافة لكن دون أن يتخللها شىء من الثقافة الهيلينستية ، ولأن شبه الجزيرة العربية تقع على أطراف هذه المنطقة الثقافية الكبرى (هذا النطاق الثقافى الكبير) فلم يكن ثمة مناص من أن يلحقها بعض التأثيرات القادمة منه • لقد كان جيران شبه الجزيرة العربية من الشمال هم المصدر الرئيسى لهذا التأثير الا أن احتلال الأحباش لليمن لما يقرب من خمسين سنة فى منتصف القرن السادس للميلاد ، جعلها ــ أى الحبشة ــ تمثل مصدرا آخر ــ لكنه ثانوى ــ للتاثير على شبه الجزيرة العربية • من هذه المصادر الثقافية اتخذت الأفكار اليهودية والمسيحية والفارسية طريقها الى عرب شبه الجزيرة العربية مع آننا لم نجد فى شبه الجزيرة العربية سوى القليل من التأثيرات الهيلينية • وكان نزول القرآن الكريم فى وسط ثقافى وفكرى يحمل هذه الأفكار مما سهل بعد ذلك انتشار الاسلام وسيطرة المسلمين على هذه المنطقة الثقافية آنفة الذكر (الشرق الأوسط) •

والمنطقة الثقافية التى أصبحت قلبا للاسلام (قلبا للعالم الآسلامى) كانت ثقافتها الرئيسية ومحور حياتها العقلية ممثلا فى الكنيسة المسيحية « الكنيسة الكبرى « the Great Church » ، وفى القرن السادس للميلاد أصبح مركز هذه الكنيسة هو بيزنطة ، وبذا أصبح مجال اهتمامها لمناطق أوسع وأبعد ، وبذلك قل اهتمامها شيئا ما بالمناطق التى أصبحت فيما بعد تمثل قلب العالم الاسلامى • مما جعل آهمية أكبر للمراكز الفكرية الأقل شأنا ، وبذا انتعش الأقباط فى مصر واليعاقبة المنادون بالطبيعة الواحدة فى الشام والنساطرة خاصة فى العراق واليهود فى العراق وغيره ، والفلاسفة الوثنيون فى حران pagan philosophers

وقد كان أحد نتائج الفتوح العربية وتكوين الدولة الاسلامية هو عزل Cut off الجمـاعات المسـيحية فى الشرق (مصر والشام والعراق) عن الحياة العقلية فى الدولة البيزنطية

وكانت هذه الجمـاعات (القبط فى مصر واليعـاقبة الشوام والنساطرة فى العراق ٠٠ الخ) قد ابتعدت جزئيا بالفعل عن بيزنطة التى كانت كنيستها تنظراليهم كهراطقة، لكن ظهور حدود سـياسية جـديدة نتيجـة الفتح العـربى الاسلامى ، قد جعل هذا الابتعاد أو الانفصال فعالا حاسما ، وهكذا بقيت هذه البؤر المسيحية قوية ، فأعظم الانجـازات الارسالية للنساطرة ـ ممثلة فى تغلغل دعوتهم فى آسـيا الوسطى والصين ـ أتت بعد الفتح الاسلامى ٠ وقد استمرت المدارس الفلسفية اليونانية أيضا على نحو من الأنحاء لمـا يزيد على القرنين ٠ الا أن حيوية وفاعلية كل هذه البـؤر كانت أقل من حيوية وفاعلية الجوانب الفكرية فى الحركة الدينية الاسلامية.لقد بدأ الاسلام نزاعا الى الوحدة أو التوحد Will to unity نحو اليهود والمسيحيين ، وبتعبير آخـر ان محمدا (ﷺ) كان سيقبل بسعادة اليهود والمسيحيين كأعضاء فى جماعته ، بل ربما كان سيقبلهم بسعادة كشركاء (أعضاء مشاركين) الا أنه أتى وقت تحولت هذه (الرغبة فى الاتحاد will of unity » الى رغبة فى عدم الاتحاد will éf disunity ولم تأت هذه الرغبة الا بعد أن تحقق محمد (ﷺ) أنه كان من الضرورى لحـركته أن تحتفظ بشـخصيتها المحـددة distinctive وأن يتجنب أى اسـتيعاب فى اليهـودية أو المسيحية ٠ وقد تجلت الرغبة فى عـدم الاتحـاد أولا تجاه اليهود نتيجة لعداء يهود المدينة لمحمد (ﷺ) والذى أدى الى القطيعة مع اليهود سنة ٦٢٤م٠ وقد أدت الحروب بين المسلمين

والقبائل المسيحية فى الطريق الى الشام سنة ٦٣٠ الى استبعاد التوفيق بين محمد (ﷺ) والمسيحيين ٠ ان هذه الاتجاهات العملية قد انعكست فى الفكرة القرآنية عن دين ابراهيم كما أنها ـ أى هذه الاتجاهات العملية ـ كانت الى حد ما نتيجة لها ، وتجلى ذلك فى كون دين ابراهيم قد اتخذ شكله النقى الخالص فى الاسلام بعد أن حرفه اليهود والنصارى ٠ ومن هنا فان الرغبة فى « عدم الاتحاد » أو الرغبة فى الانفصال will of disunity قد تم تطويرها بشكل كامل قبل أن يهزم المسلمون المسيحيين فى سوريا ومصر والعراق ٠ لقد كان الاسلام قد أكد نفسه بالفعل كدين مستقل عن الدينين الأقدمين (اليهودية والمسيحية) ونقول عن حق انه بالفعل كان يفوقهما أو أنه فعلا كان متفوقا عليهما أو أرقى منهما ٠

وعندما أضاف المسلمون الى فخرهم المتمثل فى تفوق دينهم (المتمثل فى كون دينهم هو الأرقى) ، فخرا آخر تمثل فى تفوقهم العسكرى والسياسى ، أصبحت الرغبة فى الانفصال the will of disunity ، تمثل حاجزا لا يمكن تخطيه بين المسيحيين والمسلمين ٠ وكان المسلم العادى متحصنا وراء الاعتقاد فى « تحريف » الكتب السابقة ، وهى عقيدة تعنى عمليا انه اذا أراد النصرانى مناقشة مسلم فعليه أن ينطلق معه من المنطلق نفسه ، ذلك لأن الأناجيل محرفة بطريقة أو أخرى ومن هنا فلا يجوز الاستشهاد بها ٠ وعلى أية حال فهناك بعض العلماء المسلمين ـ بطبيعة الحال ـ قد درسوا الأناجيل ، خاصة بعد أن تحول مسيحيون متعلمون الى الاسلام ، كما تيسرت لهم ـ أى بعض العلماء المسلمين ـ دراسة التوراة خاصة بعد أن تحول يهود متعلمون للاسلام ،

ومن هنا وجدنا هؤلاء العلماء المسلمين يقبلون كثيرا مما ورد فى التوراة والأناجيل ، مع شىء من التحفظ ومع تحرى عدم التعارض مع ما جاء فى القرآن ·

وفى ظل حركة الدفاع العقلى (المناظرات الجدلية) ضد المسيحية واليهودية ، راح العلماء المسلمون يفصلون وجهة نظر اسلامية للعالم معتمدين على أسس عربية وقرآنية خالصة ، وقد قامت وجهة النظر هذه اعتمادا على هذا الاتجاه القائم على مبدأ الاعتماد على الذات أو (الاكتفاء بما لدينا) بالاضافة الى احتياجات عملية معينة ، فالقرآن الكريم تُتلى نصوصه فى الصلوات والعبادات الأخرى ومن هنا وجب أن يكون مفهوما حتى من غير العرب ، وكانت هناك أيضا حاجة للتوجيه والارشاد (الوعظ) فى مجال القضايا الفقهية والشرعية التى يجب أن تقوم على أسس اسلامية · ولفهم القرآن لابد من معرفة شىء من النحو ومعانى الكلمات ، ومن هنا ظهر علم النحو خاصة فى البصرة فى النصف الثانى من القرن الثامن للميلاد ولفهم معانى الكلمات غير المألوفة فى القرآن قام العلماء المسلمون بجمع وتدوين الشعر العربى قبل الاسلام وكان قبل جمعه وتدوينه يتناقل شفاهة · وتطلب فهم هذا الشعر الالمام ببعض أحوال العرب قبل الاسلام ·

ومرة أخرى فقد رأى المسلمون الأكثر تمسكا ضرورة الاحتذاء بالشرع الاسلامى كما هو مستمد من القرآن الكريم وبالرجوع الى سنة الرسول، وهكذا أصبح الفقه juris prudence أو دراسة الشريعة هو محور التعليم الاسلامى ، والى جانب (الفقه) وجد مجال دراسى عرف باسم (أصول الفقه) وهناك دراسة (الحديث) الذى يعنى اصطلاحا ما صدر عن محمد (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير فمن خلال

الحديث يعلم المسلمون التطبيق الأمثل لمبادىء القرآن ، وقد بدأ بعض الرجال من ذوى الضمائر الميتة (ممن لا خلاق لهم unscrupulous) في الكذب على رسول الله ونسبه أحاديث اليه (حركة وضع الأحاديث) وأدى هذا الى ظهور حركة لتنقية الأحاديث أو التمييز بين ما هو صحيح وما هو موضوع فأدى ذلك الى ظهور مجموعات عرفت بالمجموعات أو الكتب الصحاح . وبهذه الطريقة تم انشاء مجموعة من (العلوم الاسلامية) حددت النظرة العالمية الاسلامية .

وقد تم تفصيل كل هذه العلوم ووضع أسسها انطلاقا من مواد (عربية) و (قرآنية)،وعلى أية حال فبعد أن تم احراز تقدم في هذا المجال شعر بعض العلماء بالقدرة على التعامل مع مواد غير عربية . وقد تكون هناك مواد مسيحية أو يهودية قد أدرجت ضمن الأحاديث ، وكان ينظر اليها غالبا ــ لكن ليس دائما ــ على أنها أحاديث زائفة (موضوعة) فعلى سبيل المثال ينسب الى الرسول (ﷺ) قوله (خلق الله أدم على صورته) (★) كما أن الاشارات القصصية الموجزة لسير الأنبياء قد جرى اكمالها عند التفسير بالرجوع لمصادر يهودية أو مسيحية . وتم ربط الانساب العربية التقليدية بالأنساب التوراتية والانجيلية خاصة ما يتعلق منها بنسل ابراهيم وذريته عبر اسماعيل ، واهتم بها كذلك المؤرخون المسلمون الراغبون في مد سلاسل الأنساب صُعُداً حتى آدم، وارتبط نوع آخر من المسلمين بالعلم والفلسفة اليونانيين ارتباطات مختلفة ألمعنا اليها آنفا ، وتمت ترجمة الكتب اليونانية ثم جرى التأليف بالعربية بعد ذلك ، ومن بين

(★) ورد في صحيح البخارى وابن ماجه ، ومسند أحمد بن حنبل . بالرجوع لمعجم كنوز السنة لفنسنك ــ (المترجم) .

علماء الكلام والتوحيد المسلمين كان المعتزلة من أوائل من استخدم الأفكار اليونانية فى كتاباتهم الدفاعية apologetic writings ، وفى النصف الثانى من القرن الحادى عشر للميلاد لاقت الفلسفة اليونانية مزيدا من القبول من خلال الغزالى ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا غدا المنطق اليونانى ، وبعض الأفكار الميتافيزيقية تحتل مكانا جوهريا فى كثير من فروع علمى الكلام والتوحيد عند المسلمين Islamic theology • وعلى هذا فمنذ حوالى القرن الثانى عشر للميلاد فصاعدا كان هناك بالفعل رؤية عالمية اسلامية قرآنية الجوهر ، لحقها كثير من الشروح والتفاصيل والاضافات ، وانتشرت هذه الرؤية فى الشرق الأوسط (قلب العالم الاسلامى) •

وقد يعترض معترض أنه لم يكن هناك حاجة ملزمة للانفصال التام عن المسيحية واليهودية ولا كان هناك ضرورة لظهور (الرغبة فى الابتعاد) أو (الانفصال will of disunity) وللاجابة على هذا الاعتراض نقول ان هذا الانفصال غالبا ما وجدنا له نظيرا فى التاريخ ، فدين الاسرائيليين (اليهودية) كان حتما أن ينفصل عن الدين الطبيعى الكنعانى Cannanite nature-religion رغم أن اليهودية قد أعدت لأخذ كثير من الأفكار والممارسات عنها ، وكان حتما أن ينفصل الاسلام عن الوثنية المكية • والأكثر تعميما أن الدين ــ أى دين ــ لا يتطلب بنية من الأفكار والسلوكيات فحسب وانما يتطلب أيضا مركزا أو بؤرة أو منطلقا ينطلق منه Centre or focus • وهذه البنى (بكسر الباء وفتح النون) ربما كانت متشابهة أو كانت هى نفسها بالنسبة للنساطرة المسيحيين ، وبالنسبة للمسلمين • (على

سواء) ولكن « المركز » أو « البـؤرة » أو « المنطلق » كان مختلفا ؛ ومن هنا اختلفت أفكار الدين أو تكـوين الدين ، structure (ومن هنـا اختلفت المسـيحية النسـطورية عن الاسلام رغم الاتفاق فى البنى « الفكرية والسلوكية ») ويمكن أن نطرح القضية بطريقة مختلفة بالقول ان ثقـافة الشرق الأوسط من الناحية التاريخية ظل بها لفترة مراكز Foci مختلفة منها النسطورى ومنها الاسلامى،ومع هـذا فقد كان هناك اتجاه عام نحو « التكامل » integration والتوحد unity وهذه حقيقة جلية واضحة للعيان ، أما الرغبة فى (الانشقاق) أو (الانفصال) will of disunity عن المجموعات أو الطوائف الأخرى فقد ارتبطت بالقرار الذى مؤداه أنه لن يكون هناك الا مركز أو محور focus واحد هو قطب الرحى للكيان التاريخى . واذا وضعنا فى اعتبـارنا وجود رابطة وثيقة بين فكرة المركز أو المحور Focus . وفكرة التكامل ، لأمكننا أن نقدر ملاحظة ثورنتون L. S. Thornton حق قدرها ، وكان ثورنتون يفكر أساسا فى المسيحية عندما قال (ان حيوية الوحى أو الرسالة السماوية تتجلى فى قدرتها عـلى التـكامل مـع ثقافات عـديدة فى كُـلٍّ تقليـدى (one traditional whole (٦)

فقـــه الـــوحى

The theology of Revelation

١ ـ العقائد الاسلامية عن الوحى

نجد فى القرآن (الكريم) ما يفيد أنه ـ أى القرآن ـ رسالة من الله حملتها الملائكة ، خاصة جبريل الى محمد (ﷺ) ، وكانت الرسالة موجهة اليه (الى محمد) لتبليغها الى أهل مكة فى المقام الأول ، وتبدو الصورة الضمنية وكأنها صورة زعيم صحراوى (فى مجتمع لم تنتشر فيه معرفة الكتابة) يبلغ رسالة لخادمه الأمين لينقلها لشخص ما يقطن بعيدا ، وكان من الطبيعى أن تنقل الرسالة بكلمات ينطقها فم • وفى بعض الأحيان تفيد الصيغة الدراماتية للقرآن أن الله سبحانه هو الذى ينطق بذاته in his own person بل اننا نجد فى القرآن الكريم حديثا بصيغة الجمع المتحدث والمقصود هنا هو ذات الله جل جلاله (انا نحن نزلنا الذكر ...) الخ وفى بعض الأحيان نجد أن المتحدث من الناحية الظاهرية هو الرسول الذى ينسب القول الى الله عز وجل ، ويوجه الحديث الى طرف ثالث (ذات ثالثة) ففى سورة مريم (١٩) / آية ٦٤ ـ ٦٥ .

ـ (وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا (٦٤) رب السماوات

والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبـادته هل تعلم له سميا (٦٥) ...) .

فالمتحدثون هنا هم الملائكة (من الناحيـة الظاهرية) ومن المفترض أن الله هو الذى أمرهم بهذا القول وفى ص ١٤ (من النص الانجليزى ـ الفصل الأول من هذه الترجمة) تناولنا طرائق الوحى المختلفة وان هناك أساليب عدة خاطب (كلم) الله بها الانسان . ومن هنا كان من المناسب وصـف رسالة الله بأنها كلامه adress or his speech وقد وردت هذه الكلمة (كلام الله) أربـع مرات فى القـرآن الـكريم مرة فيما يتعلق بالتوراة (٢/ ٧٥) سورة البقرة (أفتطمعون أن يؤمنوا لـكم وقد كان فريق منهم يسـمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) .

ومرتين فيما يتعلق بالوحى النازل على محمد (ﷺ) ـ(وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسـمع كلام الله ...) التوبة /٦ .

ـ (سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغـانم لتأخـذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله ...) سـورة الفتح / آية ١٥ .

ومرة فيما يتعلق بخطاب الله لموسى عليه السلام .

(قال يا موسى انى اصطفيتك عـلى الناس برسـالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) الأعراف/١٤٤

وفكرة (كلام الله) مشابهة جدا لفكرة الكتاب المقدس (كلمة الله the word of God)(بصرف النظـر عن

ربط هذه العبارة (كلمة الله) بالمسيح بل انه من الافضل أن نتجنب الفقرة الأخيرة لأن القرآن الكريم قد حدثنا فى أيات أخرى عن عيسى بن مريم باعتباره (كلمة منه) ·

ـ (اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم) آل عمران /٤٥ ·

ـ (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه ··· الخ) النساء/١٧١ ·

وبدا المسلمون لقرن ونصف قابلين لهذه الفقرة بدون ظهور أية صعوبات فكرية ودون أن يزعجهم ذلك ، وعلى أية حال ففى حوالى سنة ٨٠٠م كما لاحظنا توا طرحت قضية ما اذا كان القرآن هو كلام الله غير المخلوق أم انه كلام الله المخلوق · لكن كيف آثيرت هذه القضية ؟ ان اجابة هذا السؤال غير متاحة ولا واضحة ، فاذا كان القرآن قد نزل فى وقت معين وما دام يشيرالى أحداث دنيوية زائلة، فمن المفترض أنه أنه بالتالى زائل أو مؤقت ، وبالتالى فهو مخلوق ، ومن ناحية آخرى فانه مادام هو كلام الله حقا فلابد أنه على نحو من الأنحاء يتسم بالبقاء والخلود ، واذا طورنا الفكرتين وجدنا أن القائلين بأن القرآن غير مخلوق يودون القول بأن القرآن تعبير عن بقاء الله وخلوده ودوامه ، بينما القائلون بخلق القرآن يجعلونه أى القرآن وقفا على مشيئته ـ أى الله ومن هنا فهو ـ أى القرآن ، قابل للتغير ، وفلاسفة اللغة المعاصرون تعودوا الحديث عن الانسان باعتباره « الموجود الذى ذاتيته أو جوهره أو ماهيته his essence هى امكاناته

اللغوية » (★) فهناك رابطة قوية بين الانســـان واللغة ، ويمكن تطبيق هذا الرباط القوى بين الانسان والكلام (اللغة) على العبارة القائلة (كلام الله) أو (كلمة الله) (١) وعـلى هذا فالقرآن لابد أن يكون تعبيرا عن جـوهر الله الأبدى ، بينما مخلوقات الله الأخرى لا تعبر بوضوح عن (طبيعة) الله وانما عن قدرته ، فالمخلوق يعبر عن قدرةالله على الخلق(٢)٠

والذين يقولون ان القرآن غير مخلوق يواجهون قضايا أخرى ، منها مسألة مرتبطة بكون الله واحد Unity of God فقـد يقـول القـائلون بخلق القـرآن انه ما دام القـرآن غير مخلوق فنحن اذن ازاء « موجودين beings » أبديين خالدين : الله ، وكلامه ، وبذلك نكـون قد هدمنـا مبـدأ التوحيد ٠ وربما بسبب هذه المجادلات فى هذه القضية طورت مجموعة من علماء الكلام والتوحيد عقيدتهم فى صفات الله attributes of God التى يذكر منهـا غالبـا سـبع صفات هى : كونه قادرا ، وكونه عالما ، وكونه حيا ، وكونه ناطقا، وكونه سميعا ، وكونه بصيرا ، وكونه مريدا ، وهذه الصفات ليست متطابقة مع جوهره ، وليست منفصلة عنه ٠ وبعبارة أخرى فان صفات الله عامة ، وكونه منسوبا اليه الكلام ، على نحو خاص ، لها وجود منفصل على نحو جزئى ، فهذه الصفات ليست مطابقة للذات الالهية وليست منفصلة عنها ٠

ومسـألة أخـرى ارتبطت بتـلاوة القرآن وكتابته ، فعندما يرتل المرء القرآن أو يكتبه فان الأصوات الصادرة أو

(★) المترجم : لعل المقصود انه حيوان ناطق :
the being whose essence is his linguisticality.

الحروف المسجلة هى فى الواقع (مصنوعة) أو (مخلـوقة تجاوزا) ولا يمكن أن تكون (غير مصنوعة) أو (غير مخلوقة)، وما دامت بهذا المعنى (مخلوقة) فكيف يمكن أن نطلق عـلى ما (نرتله) أو ما نكتبه قرآنا (غير مخلوق) ؟ وكيف يمكن لمن يسمعون التـلاوة أو يقرأون فى المصـحف أن يسـمون ما يسمعونه أو يقرأونه (القرآن غـير المخلوق) ؟ وهـذه المشكلة التى كانت خطيرة جدا فى بداية اثارة مشكلة كون القرآن (الـكريم) مخلوقا أو غير مخلوق ، لا تسـتحق كل هذا العناء ، فعندما قام على طبع كتابى هذا أناس لا أعرفهم وتم بيعه فى مكتبات فى مدن لم يسبق لى زيارتها اطلاقا ، فهل يمكننى أن أزعم أننى لازلت أخاطب القـارىء ؟ واذا تمت ترجمة الكتاب الى لغات أخرى لا أعرفها ، أيمكننى أن أزعم أننى لازلت أخاطب القارىء ؟ وعلى النحو نفسه ، فاذا استمعنا الى اسطوانات تبث الينا أصـوات مغنين رحلوا عن عالمنا مثل كاروزو Caruso أو كاثلين فيرير Kethleen Ferrier فهل يمكننى أن أزعم أننى لا زلت أخاطب القارىء ؟أميل إلى القول بأننا فعلا نسـتمع اليهما والى أغانيهما ، وأميـل الى القول أيضا بأننى لازلت أخاطب القارىء بكتابى هذا رغم أن القارىء يقرأه بلغة قد لا أكون عارفا لها · فالسمع العادى يعتمد على الموجات الصوتية ومع هذا فنحن نقول اننا نستمع الى الشخص الفلانى أو الرجل الذى اسمه كذا أو المرأة التى اسمها كذا ، ولا نقول اننا نسـتمع الى المـوجات الصـوتية الصـادرة عن س أو ص من البشر أو غـير البشر ، لابد أن شيئا كهذا كان حاضرا فى عقـول علماء الكلام والتوحيـد المسلمين عندما حلوا المشكلة بقولهم ان ما نرتله أو نكتبه أو نسمعه أو نقرأه ليس الا (حكاية) للقرآن الخالد ، وربما

كانت الكلمة الانجليزية representation تصلح مقابلا انجليزيا للمعنى الذى أراده العلماء المسلمون ٠

وهناك مجموعة أخرى من القضايا مرتبطة بالاشارات القرآنية للأحداث التاريخية ، فكيف يذكر القرآن أن الحادثة ولنرمز لها بالرمز (س) قد حدثت اذا كان القرآن أبديا سرمديا خالدا ؟ فالحادثة (س) قد وقعت فى لحظة زمنية بعينها فقبل وقوعها لا يمكن أن نقول انها وقعت ٠ والمشكلة نفسها يمكن أن تثار فيما يتعلق بعلم الله ، فعلمه يوم الثلاثاء بأن الواقعة (س) ستقع يوم الأربعاء يختلف عن علمه يوم الخميس بأن الواقعة (س) وقعت يوم الأربعاء (الأمس) لكن هذه المشكلة يمكن حلها جزئيا بسرد الحقيقة التى مؤداها أن علم الله سبحانه فوق الزمان بمعنى من المعانى وبذلك لا نجد أى تناقض حتى فى قولنا ان الله سبحانه يعلم أن الواقعة (س) التى تقع فى ١٩ يونية سنة ١٩٦٣ (تاريخ تأليف هذا الكتاب ــ المترجم) وبذلك يتلاشى جزء من القضية المثارة حول اشارة القرآن الكريم لحوادث مؤقتة أو زائلة باستخدام أسماء مشتقة من الأفعال مباشرة Verbal noun لا تشير الى لحظة مؤقتة ٠

وعلى أية حال ، فان ما ذكرناه ليس عرضا كاملا للقضية ، لأنها جزء من مشكلة أوسع أو أشمل ، فالأساس هو محاولة شرح علاقة ما هو (خالد) أو (أبدى) أو (سرمدى) بما هو مرتبط بالزمان والمكان والثقافة وما الى ذلك ٠ والمشكلة تمثلها عبارة (قرآنا عربيا) التى تتضمن ارتباطات خاصة بالبيئة العربية ٠ وهناك ــ بطبيعة الحال ــ فى القرآن الكريم ذكر لبعض المؤكدات العامة كالآيات التى تشير الى الظواهر الطبيعية التى تؤكد عظمة الخالق وقدرته، لكن حتى

هذه صيغت بمصطلحات تتماشى مع العقلية العربية ، الا انه فى حالات كثيرة أخرى يشير القرآن الكريم الى حالات أو أحداث مؤقتة (لا تتسم بالديمومة) ثم تقرر المبادىء العامة بشكل يجعلها قابلة للتطبيق على نحو خاص على مكة والمدينة فى أوائل القرن السابع للميلاد · ويمكن للمرء أن يورد مثالا على ذلك ، هذا الأمر الصادر فى السورة رقم ٩ (التوبة ؟ / آية ٢٩ :

ـ (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ·

فالحرب ضد أولئك الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ··· حتى يدفعوا الجزية ·· هذا الأمر قد ينظر اليه المرء باعتباره مبدأ عاما ، ومن ثم فالأمر الخاص (المرتبط بحالة بعينها) لابد أن يكون تطبيقا للمبدأ العام بعد مواءمته لظروف المسلمين فى أواخر حياة محمد (ﷺ) ، الا أن المبدأ العام نفسه كان له مناسبة أو ظروف مؤقتة بحيث لا يتعين تنفيذه بالضرورة الا فى ظروف دولية خاصة ، وعلى هذا فمن المفترض أن هذا الأمر لا يمثل مبدأ عاما واجب التنفيذ ، أولا يمثل ضررة الا فى ظروف خاصة ، وعلى هذا فانه يبدو أن كثيرا مما ورد فى القرآن متعلق بمشيئة الله عز وجل بالنسبة لحياة الانسان المؤقتة (غير الأبدية) وسواء كانت هذه المشيئة قد جرى التعبير عنها فى مبادىء عامة تطبق فى كل الأوقات أو كان تنفيذها مقصورا على فقرة بعينها أو مكان بعينه · فالانسان قد علم بمشيئة الله أو رغبته و (أهدافه) ولكنه لم يعلم الا أقل القليل عن طبيعة الله ذاته

التى تتعدى حدود الزمان كمـا انه لم يحط بمدى علم الله الواسع ، وبتعبير آخر فان كلام الله الخالد كما يعرفه الانسان مرتبط فى الغالب بأسباب نزول أو باشارات لوقائع محددة

ليس من قبيل الوهم أو الخرافة ـ اذن ـ أن نربط بين اشارة القرآن الى حدث عابر (أسباب النزول) وحقيقة كون الرسل (كل الرسل) بشرا دوما وليسوا ملائكة (٣) وان كان بعض معاصرى محمد (ﷺ) فيما يبدو قد تعلموا أن رسول الله لابد أن يكون مختلفا عن البشر على نحو ما كأن يكون له تكوين خاص يجعله لا يأكل الطعام (كالناس) وأن تحيط به الملائكة وتلبى حاجاته وتخدمه لا أن يخدم نفسه (كالناس) أو يسير سيرا عاديا (كالناس) (٤) وهذا يبين أن القـرآن الكريم ليس مجرد (كلام الله للبشر ولصالح البشر وانما هو أيضا (رغم أن مصدره هو الله سبحانه) دلالة على أن المراحل الأخيرة للوحى أو اتصال الله (سبحانه) بالبشر ، أصبحت ذات طابع بشرى تماما (★) ·

وقد قبل المجتمع الاسلامى أحاديث الرسول (ما صـدر عنه من قول أو فعل أو تقرير) كجزء من الوحى ـ بمعنى من المعانى ، وذلك بقبـول المجتمع الاسـلامى لهـا ـ أى للأحاديث ـ كأحد مصادر (أو أسس bases) الشريعة ، التى تعنى القـانون المـوحى به revealed ويمـكن تفسـير الاتجـاه إلى حـديث الرسـول بالقـول انه كان المثـل الأعلى لأسلوب الحياة الاسلامى الذى تقبله المجتمع عن وعى منـه

(★) النص .
This shows that the Quran is not merely God's speech to men and for men, but that (though it comes from divine source) the later stages of its communication to men are entirely human.

خاصة مجتمع السنة ، ولما كان أسلوب الحياة الاسلامى بمثابة استجابة للوحى فان وقائع حياة محمد تعد بمعنى من المعانى دليلا يبين فهمه لهذا الوحى . وهذه النقطة يمكن أن تكون فعالة فى الغاية من الفعالية اذا ضمّناها داخل فكرة الكيان الاسلامي ، فقد شرع المسلمون الأوائل فى تكوين جماعة لها ممارسات عبادية خاصة ومسلك خاص ، وهذه الممارسات العبادية والمسلك الخاص هو ما نسميه (دينهم) وهكذا بدأ الكيان الاسلامى من الناحية التاريخية الا أن الأجيال اللاحقة قد استجابت للوحى لا من خلال نص الوحى المنزل وانما باعتباره الوحى كما فهموه من خلال ممارسات مجتمع الجيل الأول (٥) ، فالمسلمون يوقرون على نحو خاص صحابة محمد لأنهم شهدوا (السنة) بمعنى أنهم رأوا ممارسات الرسول وأفعاله رأى العين ولأن بعضهم كانوا يمثلون أسلوب الحياة الاسلامى ويعدونه مثالا يحتذى . لقد اعتبر المسلمون كلمات محمد (ﷺ) وأفعاله وتقريراته بمثابة التفسير الفعلى أو العملى للوحى .

هذا التفاعل بين الوحى والمجتمع لابد من التركيز عليه وبطبيعة الحال ، فانه لا يعتبر الوحى مجرد عنصر مستقل ، وانما الوحى موجه أساسا لبشر سيستجيبون حتما له سواء كانت استجابتهم موجبة أم سالبة ، وبالنسبة للقرآن نجده موجها أساسا لبشر أو لكائنات روحية أخرى ، فاذا ما كانت الاستجابة ايجابية تكون المجتمع الدينى . فالمناقشات التى ثارت حول أن القرآن (غير مخلوق) أظهرت أن مسلمين كثيرين كانوا على وعى بالمكان المحورى والأساسى للقرآن (الكريم) فى حياة مجتمعهم ، فالقرآن ـ بالفعل ـ هو

العمود الفقرى للكيان التاريخى للاسلام الذى أعطاه نسيجا محددا fixed structure ومن ناحية أخرى ـ على أية حال ـ فان المجتمع ـ بمعنى من المعانى ـ يعتبر جزءا من الوحى ـ فهو متضمن فيه (بضم الميم الأولى وفتح الضاد). فمن خلال المجتمع يستمر الوحى فى العمل والتفاعل اذ يتعين على الأجيال القادمة (المتعاقبة أو أجيال المستقبل) أن تقرر ما اذا كانت ستستجيب لهذا الوحى أو لا يستجيب . فلا القرآن ولا أى كتاب آخر يمكن أن يكون مؤثرا فاعلا الا اذا تفاعل مع مجتمع وارتبط به . انه يبدو من النظرة الأولى أن حركة المسلمين السود فى الولايات المتحدة تعد استثناء من ذلك فقادة الحركة يعتبرون أنفسهم مسلمين على أساس معلومات سطحية جدا عن الاسلام ودون تفاعل حق مع المجتمع الاسلامى . حتى فى هذه الحالة فانه يبدو أن أحد الأشياء التى تجذبهم كانت الاتجاه المناهض للأوربيين ذلك الاتجاه الذى كان حاضرا وكامنا فى المجتمع الاسلامى من الناحية التاريخية .

٢ ـ نظرة معاصرة للوحى

يعد تطور العلوم الطبيعية والتجريبية ، وما حققته من انجازات كبرى وانتصارات عظمى ، عاملا مؤثرا تأثيرا كبيرا فى صياغة العقلية الحديثة فى أوربا وأمريكا ، بل حقيقة فى العالم أجمع . وأحد ملامح هذه العقلية هو اهتمامها بالتجربة الفعلية ، وعلى هذا فقد بدأ النظر الى التجربة التى خاضها محمد (ﷺ) باعتبارها تجربة انسانية فاعتبر أصحاب هذه النظرة أن أقصى ما يمكن أن يستنتج من خلال المرويات أن الملمح الأساس للتجربة المحمدية أنه وجد كلمات بعينها فى قلبه أو وعيه

he found certain words in his heart or consciousness.

وأن هذه الكلمات لم تكن مصحوبة برؤى ، وانما هناك كلمات فقط . والاعتقاد بأن هذه الكلمات قد حملها اليه ملك لا يبدو جزءا من التجربة الأولية (التى خاضها محمد (ﷺ) ، وانما قد تكون هذه الرؤى جزءا من تجربة أخرى تالية وثانوية . وقد تفاعل محمد (ﷺ) مع هذه الكلمات التى وجدها فى قلبه أو التى ألقيت فى قلبه ـ بايجابية . وقد أبلغ هذه الكلمات (الرسالة) لأصحابه ولأشخاص آخرين ، وقد استجابوا بايجابية لهذه الكلمات كما استجاب هو لها من قبل ، وبهذه الطريقة تأسس المجتمع الاسلامى .

والآن فان السؤال الذى يصيغ نفسه هو : كيف وصلت هذه الكلمات التى كونت التجربة الأولى الى وعى محمد أو شعوره ؟ اننا نؤمن بصدقه واخلاصه عندما يقول انها ليست نتيجة أى تفكير واع منه . أما بالنسبة للمحدثين المتأثرين بالعلوم الطبيعية والتطبيقية ، فان الاجابة السهلة هى أن هذه الكلمات وصلت لمحمد (ﷺ) من (لا شعوره) ، وعلى أية حال فان هذه الاجابة لا تعدو كونها اعادة صياغة للسؤال، أو بتعبير آخر انها لا تزيد عن كونها طرحا جديدا للسؤال بكلمات أخرى ، فهى فى الحقيقة ليست اجابة حقيقية ، فكل ما أضافته هو أن هذه الكلمات قد وصلت الى محمد فعلا بطريقة أو أخرى قبل أن يصبح شعوره واعيا بها . بل ويمكن للمرء أن يقول ان اللاشعور هو الميدان الذى تؤثر فيه الملائكة (والشياطين أيضا) ويرى اللاهوتيون المسيحيون أن المقابل العصرى (للروح الشريرة evil spirit) هو العقدة الكامنة فى اللاشعور (العقدة اللا شعورية (unconscious (٦) . نخلص من كل هذا أن (اللاشعور) مسألة غير بعيدة تماما

عن فكرة الوحى أو بتعبير آخر أن وضع اللاشعور فى اعتبارنا على نحو ما أمر مطلوب عند تناولنا للوحى ·

والفكرة التى نتبناها هنا هى فى الأساس فكرة عالم النفس يونج jungian one فوفقا لهذه الفكرة فان ما ينبثق من اللاشعور الى الشعور فى أحلام الأفراد وخيالاتهم وكذلك فى الأساطير الدينية religious myths للمجتمع ككل تنطلق من اللبيدو Libido (الطاقة النفسية أو الطاقة الحيوية)(★) أو طاقة الحياة التى هى ينبوع النشاط فى كل البشر · وفى الرجل الفرد نجد أن اللبيدو هو ، ــ جزئيا ــ شىء خاص بذاته ، كما أنه ــ جزئيا أيضا شىء يشترك فيه مع سائر أعضاء مجتمعه ، بل وسائر افراد الجنس البشرى · وهذا الجزء الذى يشترك فيه مع غيره يسميه يونج (اللا شعور الجمعى collective unconscious والى عمل هذا اللا شعور الجمعى وتأثيره تعزى كثير من الأساطير الدينية بل وكثير من المعتقدات الجامدة dogmas خاصة تلك التى تتعلق بشخص (البطل) أو (الزعيم) أو (الطفل المقدس the divine child .) أو العذراء virgin نجدها فى كثير من الأديان ، وقد يجد الانسان عند تأمله فى الشخوص الآنف دكرها (البطل ، الزعيم ، العذراء الطفل المقدس) وجعلها محور تعبده أن هناك ما يمكن تسميته بانطلاق الطاقة النفسية psychical energy خلاله (أى خلال الشخص المتأمل أو المتعبد) ، مما يمده بقوة لانجاز ما كان يمكن أن يكون مستحيلا بالنسبة له دون التأمل أو

(★) عن قاموس علم النفس للدكتور حامد زهران : اللبيدو : الغدة الحيوية الدافعة ، الشهوة الجنسية ، الرغبة الجنسية ، الطاقة الجنسية (فرويد) الطاقة النفسية (يونج) ·· الخ ــ (المترجم) ·

التعبد من خلال هـذه الشـخوص الأربعـة الآنف ذكرها ، وبالاختصار ، فانه وفقا لأفكار يونج ، فان معظـم الأفكار الدينية تظهر مما يسمى « باللاشعور الجمعى » عندما يتخذ طريقه الى (الوعى) أو (الشـعور) ،ومعظم الممارسـات الدينية (العبادات أو التطبيقات الدينيـة) هى اسـتجابة واعية لهذه الأفكار ٠

ووفقا لهذه الطريقة فى النظر للأمور ، فان (الوحى) الذى قامت على أساسه اليهـودية والمسـيحية والاسـلام هو (المحتوى) الذى انطلق من (اللا شعور الجمعى) الى (الشعور) أو (الوعى) وكان محتوى هذا (اللا شعور الجمعى) متسما بالتباين الشديد والتعقيد ٠

فعند أنبياء العهد القديم (التوراة) تحتـل شـخوص أو صور معينة مكان الصدارة : يجرى الحديث عن الـرب كمـا يجـرى الحديث عن الراعى Shepherd أو الزوج (رب الأسرة) ، فهو بالنسبة لشعبه (راعى) أو (زوج) ، وتعلـم الناس لكثرة ما ألقى عليهـم من دروس وعظات أن يبحثوا عن المسياه المنتظر أو القادم Comming of the Messiah والملك الملهـم بالقداسـة divinely-inspired king الذى سيقود شعبه ويخلصهم من متاعبهم ٠ وقد ظهر هؤلاء الأنبياء (أنبياء العهـد القـديم) وقد ساد تراث متتـابع ومرويات مستمرة ــ تشكل الكيـان التـاريخى لديانة بنى اسرائيل ــ وكان جزء من عمل هؤلاء الأنبياء هو هو تطوير الصور والأفكار التى كانت رائجـة ومقبـولة بالفعل لدى الناس (بنى اسرائيل) وكان عمل المسيح (عليـه السلام) مشابها ، فقـد حمـل معه بعض الصـور والرؤى images

من الديانة اليهودية ، ودفع بها مرحلة أخرى للأمام ، خاصة أنه زعم claimed انه المســـياه المنتظـــر expected Messiah لكنه ربط هــذه الفــكرة (التى كانت معـــروفة ومتوقعة) بصورة (الخادم الذى يلاقى العناء (suffering servant) وبفـــكرة التضـــحية أو الفـــداء sacrifice وبترو انطلق (ليظــل حيـــا)'Living out من خلال هـــذه الأفكار ، وبالنسبة لمحمد (ﷺ) الذى عاش فى منطقة لـم تتأثر الا قليلا بالافكار اليهودية المسيحية كان انبثاق محتوى (اللا شعور الجمعى) مفاجئا ولم يسبقه اعداد unprepared الى حد كبير ٠

وقد يفزع بعض القراء ويصيبهم الرعب ، وقد يشـــعر كثيرون منهم بعـــدم الارتيـــاح لفـــكرة أن الوحى يأتى من (اللا شعور الجمعى) والواقع ان هـــذا الفزع لا مبرر له لأنه ناتج عن الفهم الخـــاطىء ، فما نســـوقه لا يعدو أن يكـــون (شرحا تقريبيا) لا (شرحا نهائيـــا) من خـــلال عنصرين أساسيين : معظم الأفكار الدينية تأتى من نفس المصدر فى البشر ، وأن هذا المصدر يشكل جزءا من الطاقة الحيوية ، ويبقى متاحا للانسان المتدين أن يعتقد أن الله سبحانه يظهر مشيئته من خلال هذا (اللا شعور الجمعى) ومما ينتشر بين المتدينين أن الخبز اليومى (الرزق) يأتى من عند الله سبحانه ويجرى الحديث عن الله سبحانه باعتباره هو الفاعل الحقيقى دون ذكر الوسيط البشرى أو غير البشرى ومع هذا فالناس على وعى كامل بعمل الفلاح فى حقله والطحان فى طاحونته والخباز فى مخبزه والبقال فى بقالته وغيرهم ، كما أنهم على وعى بأثرالأسباب‌الطبيعية كالمناخ وغيره ٠ ومع هذا فالانسان المتدين يذكر أن الله هو رازقه برزقه (خبزه اليومى) رغم

وجود السبب المباشر الآنف ذكره ، لكنه قد لا يتحدث عن الله الذى (أوحى) اليه بأشياء أو (خاطبه) بكلمات تحمل أفكارا مع أنه قد توجد أسباب وسيطة يتم ذلك من خلالها (كاللاشعور الجمعى) فالله (سبحانه) هو مصدر المعرفة لكل البشر ، انه (سبحانه) المصدر العلوى المتسامى الفائق transcendent الذى (يوجه) و (يعمل) من خلال (اللا شعور الجمعى) واستخدمنا للألفاظ التى وضعناها بين قوسين : (يوجه) ، (يعمل) ، (مصدر) .. الخ هو فى الحقيقة استخدام مجازى (دياجراماتيكى بالمعنى الذى شرحناه فى الفصول السابقة) . وأحد المعانى الأولية لكلمة (مصدر source) هو منبع النهر أو حيث يأتى النهر بمائة ، ومرة أخرى فان رجل الأعمال قد يعمل من خلال وكيل وقد تعمل جماعة الناس من خلال (لجنة تنفيذية)، وعلى هذا فهذه الألفاظ التى استخدمناها عند حديثنا عن الله سبحانه هى ألفاظ مجازية (دياجراماتية) لتبيان العلاقة بين المطلق والمؤقت أو الدائم العلوى والزائل أو المتعالى على الزمان والمكان ، والمرتبط بهما ، انها مسألة فيها نظر ما اذا كان (اللا شعور الجمعى) على نحو من الأنحاء يعلو فوق ما هو مؤقت ومرتبط بحيز (مكان) لكنه معروف يقينا من خلال دوره فى العمليات الحادثة .

its operations in the process

وما دام العقل الانسانى يجد دائما صعوبة فى التعبير عن العلاقة بين ما هو خالد دائم مطلق وما هو مؤقت زائل ، فان المرء قد يسأل ما اذا كان هذا التشبيه (الدياجرام) أو الرسم الشارح عن العلاقة بينهما أفضل من التشبيهات الأخرى أو الدياجرامات الأخرى أو انه أقل منها .

ولابد أن نلاحظ أيضا أنه يوجد جانب (خـلاق) فى (اللاشعور الجمعى) وهذا يجعله أكثر مواءمة كوكيل agent أو (ممثل) لهذه الذات العليا التى تمثل مصدرا للمعرفة ٠ و (اللاشعور الجمعى)هو جانب لتوظيف طاقة الحيـاة أو الطـــاقة الحيويـــة Life-energy فى البشر ، وهذه الطاقة الحيوية هى عصب الحياة فيهم فبها يعيشون ٠ انها الطاقة الحيوية التى تجعل ىنين (المضـــغة) ينمـــو فى رحم الأم وتجعل الطفل يطور طاقاته الكامنة ، وعندما تصبح الحيـاة غير مرضية بالنسبة للفرد أو المجتمع ، تنشط الطاقة الحيوية فتكون مجموعة أفكار (محتوى) فى لا شعور بعض الأشخاص وما دامت هذه الأفكار صادرة عن اللا شعور الجمعى وليست قصرا على لا شعور فرد ، فان هذه الأفكار ستلقى استجابة من أفراد المجتمع فاذا ما أتيحت ظروف مناسبة ظهرت منها حركة دينية ٠ فالشعور الجمعى ــ على هذا ــ يوظف بفعالية لتجهيز المجتمع لتقبل التجربة عــلى نحو مرض ٠ والطاقة الحيــوية اللاشــعور الجمعى لهما أيضا بعدهما الخــلاقان بمعنى أن الانسان ما هو الا نتيجة فعلهما فهما يجعلان الانسان الفرد كما هو ، أى يكونان شخصيته وليس للانسان القدرة عــلى التحكم النهائى فيهما ٠ فبالنسبة لنا جميعا ينســاب مجــرى الحياة لا مجال لمقاومته أو اعتراضه سواء أردنا أو لم نرد وكل ما يمكننا عمله هـــو توجيـــه قليـــل Little steering لا يزيد عن مقدرة قائد القارب الصغير على توجيهه فى مجرى مائى سريع الجريان جدا ٠ وانتحار الفرد هو وحده الذى يعنى غرق قاربه أو عدم تكامل مجموعة مشاعره ، ومع هذا يستمر مجرى الحياة ، وحتى اذا دمر الجنس البشرى معظمه باستخدام القنابل الذرية فان مجرى الحياة سيستمر مع أنه

قد ينحرف عن مسار المجرى الأول ليدخل فى مجرى مختلف ، قد يعنى مرحلة جديدة من التطور البشرى ٠

وعندما نحاول ملاحظة وظيفة (الطاقة الحيوية) أو (طاقة الحياة) نكون غير قادرين على العودة الى بداية مجردة وانما علينا أن نقنع بأن نبدأ ملاحظاتنا من نقطة متوسطة على مسار الخط ، وهذا ليس سيئا تماما مادام من ملامح الحياة أن تتحرك للأمام منطلقة من النقطة التى وصلتها بالفعل ولابد أن يكون هذا واضحا لكنه يستلزم وقفة شارحة ، فخلال الساعة التالية ستوظف الحياة الموجودة فىَّ (أى فى المؤلف مونتجمرى) على أساس الكيفية التى شكلتنى بها حياتى الماضية : عضويا ونفسيا وعقليا ٠٠ الخ ٠ وعلى النحو نفسه يمكننا القول انه عندما تنبثق الأفكار من «اللاشعور الجمعى» رغم اضافته أى اللاشعور الجمعى عنصرا ابداعيا (من لدنه) اليها ، فانها أى الأفكار ليست منفصلة تماما عن الماضى ، وانما هى تطوير لما هو موجود بالفعل ٠ هذا بالتأكيد ما كان عليه الحال مع الأنبياء الواردين فى العهد القديم ٠

فالمؤكدات (بتشديد الكاف وفتحها) الجديدة التى ظهرت من خلالهم من (اللاشعور الجمعى) كانت غالبا مجرد توسيع ومواءمة ومراجعة جزئية للأفكار التى كانت قد ظهرت فى فترة سبقت وكانت قد حازت القبول من المجتمع ٠ وكانت هذه المؤكدات الجديدة مرغوبة اما لأن المجتمع قد حرف ــ على نحو ما ــ أفكاره الأولى واما ــ وهذا أكثر احتمالا ــ لأن ظروفا جديدة قد نشأت فتطلب الأمر توجيها جديدا ٠ وانه ليبدو أن الشىء نفسه قد حدث فأدى الى انبثاق أو ظهور

الأفكار الواردة فى الوحى القرآنى (★) لقد كان مناسبا فى المقام الأول لأهل مكة والمدينة زمن محمد (ﷺ) أن يوجهوا (بفتح الجيم وتشديدها) ليكونوا على وعى بالوضع الخاص الذى كانوا عليه فى الوقت ، رغم انه كان مطلوبا أيضا مواجهة الحاجات الأساسية للبشر فى أوضاع أخرى ٠ ان المؤكدات (بضم الميم وتشديد الكاف وفتحها) الجديدة التى جاء بها القرآن (الكريم) أيضا قد صيغت من خلال مفردات أهل مكة والمدينة : الكونية والتاريخية ٠٠ الخ ٠

ونخلص من هذا الى أن (اللاشعور) يخاطب البشر دوما بمصطلحات أو مفردات موجودة ــ بالفعل ــ فى وعيهم : ويمكن أن نوسع هذه الفكرة بضرب مثال ، ذلك أن (اللاشعور) أو حتى (اللاشعور الجمعى) فى عمله خلال الانسان فانه لا يلغى شخصيته ، فعندما تظهر محتويات الشعور الجمعى فى انسان ، فانه لا يصبح شخصا آخر غير ذاته ، تماما كما لو تكلم معه شخص موضع ثقة فهو لا يتغير (أو لا يصبح شخصا آخر) رغم أنه يتحتم عليه .أن يقرر ما اذا كان سيطيع (يستجيب) أم لا ٠ وبعبارة أخرى فان الأفكار المبثوثة من اللا شعور الجمعى لا (تجبر) انسانا على فعل شىء ، انها لا تحوله الى آلة ٠ انها توظف كعامل واحد (من بين عوامل أخرى) فى بنيته أو تكوينه وتفاعله مع الآخرين ٠ فالشخصية الانسانية الحقة باقية لا شىء يلغيها ٠

(★) لاهمية هذه الافكار نفضل ايراد النص الانجليزى :
It would seem that the same also holds of the creative irruption or emergence of ideas in the Qaranic revelation.

ويمكن أن نزعم أن هذه النظرة (الحديثة) لطبيعة الوحي يمكن أن تكون متسقة مع كل عناصر العقيدة التقليدية ذات الأهمية العملية للانسان المتدين ، بل وأكثر من هذا فهى نظرة لا تتناقض مع التوحيد it is not incompatible with theism ولا نزعم أننا ناقشنا فى هذا الفصل كل عناصر الموضوع بالتفصيل ، فنحن لم نناقش أهم القضايا وهى كيفية اتصال المصدر السامى المطلق لوجودنا باللاشعور الجمعى ، لكننا تحدثنا كثيرا عن امكانية تناول فكرة الوحي فى سياق بحثى عصرى ٠

الاسـلام فى عالم الغـد

١ ـ العلاقة بين الاسلام والمسيحية فى الوقت الحاضر

فى ظل الامبراطورية الرومانية كان هنـاك نـوع من الوحدة الثقافية من بريطانيا الى الشام رغم وجود ثقـافات فرعية خلال هذه الثقـافة الـكبرى (الأم) وكانت هـذه الثقافات التى تشغلها هذه الثقافات الفرعية متداخلة عـلى نحو ما • ولأغراض دراستنا الحاليـة فان الفصـل الأكثر أهمية هو الفصل بين الثقافة اللاتينية ، والثقافة اليونانية والثقافة (الشرقية Oriental) ، فمن الأولى (اللاتينية) كانت أوربا الغربية ، ومن الثانية (اليونانية) كانت ثقافة شرق البحر المتوسط ، بينما كانت الثالثة (الشرقية oriental) مرتبطة ارتباطا ثيقا بالكنائس المسيحية الشرقية oriental قد سيطرت على بعض الولايات الشرقية فى الامبراطورية الرومانية ، وكانت قريبة (قربا معنويا) من ثقـافة وادى دجلة والفرات ، وبالتدريج أصبحت المسيحية مرادفة للثقافة اللاتينية اليونانية ، بينما ثقافة المسيحيين الشرقيين ـ بعد أن تم وصـفهم بالهرطقة ـ استوعبها الكيـان التـاريخى للاسلام ، وبمرور الوقت لم تعد هذه المناطق أو النطاقات الثقافية متداخلة وأصبحت منفصلة واضحة الانفصال بعضها عن بعضها الآخر •

وقد تحطم هذا الانفصال خلال القرن الأخير أو القرنين الأخيرين (التاسع عشر والعشرين) فقد أصبح العالم كله ـ حقا ـ موحدا ثقافيا على المستوى المادى بفعل التقدم العلمى والتكنولوجى ، الا أن العالم ـ على أية حال ـ مازال متعددا على أساس النطاقات الثقافية الدينية الكبرى the great religio-cultures التى قامت فى الماضى والمناطق الثقافية الملحقة بها أو المتصلة بها طالما أنها لم تتأثر التأثر الكافى بالتوحد الذى جلبته الحضارة المادية • وعلى العكس لقد شهد العالم ما يعرف (بالصحوة) بين الأديان العالمية رغم أنه يمكن أن يقال أيضا من وجهة نظر نمو وازدهار العقلية العلمية ، أن الأديان بدأت تكف عن توجيه الثقافات المرتبطة بها • فالعالم كله يواجه المشكلات نفسها ، لكن المناطق الثقافية المرتبطة بالمسيحية والاسلام مشتركة معا فى تراث مادى حديث يربطهما معا ، وليس هذا فحسب بل ان المسيحية والاسلام هما ورثة الثقافات المتمازجة للامبراطورية الرومانية ، فرغم أن اليهودية تشكل عنصرا فى الثقافة المسيحية الا أن هذا العنصر أقرب ما يكون الى الثقافة الشرقية oriental فى الامبراطورية الرومانية ، بينما استعارت الثقافة الاسلامية كثيرا من المنطق اليونانى والميتافيزيقا والعلوم اليونانية • وبتوالى القرون أصبحت ثقافات الدولة المسيحية Christiandom ودار الاسلام قد تجانست ـ الى حد ما ـ بحكم وجود أصل مشترك لهما ، ومع هذا فقد اتسعت الشقة بينهما ، وقد نشأ عن هذه الصلة أو هذه القرابة (بين المسيحية والاسلام) قضايا معينة ، فمن ناحية نجدها عاملا معينا على الفهم المتبادل ، ولكن من ناحية أخرى نجد أن الصلات بين الدينين خلال مرحلة التكوين الباكرة قد

هيأت لكل دين مجموعة دفاعات عقلية قوية ضد الدين الآخر، وقد أدت هذه العلاقة المركبة التى تحوى فى طياتها الألفة والعداء ، والتألف والصراع الى أن أصبح الحوار بين المسيحية والاسلام مسألة لها ضرورة خاصة ، والحاح لا فكاك منه ٠

وقد جعل ارتباط الدين بمنطقة ثقافية من المحال أن نقارن (الموضوعية الدينية religious objectivity) فلكل منطقة ثقافية طبيعتها فى التفكير ، ووعيها التاريخى الخاص ورؤيتها الخاصة للعالم ٠ فهذه جميعا قد اتخذت بالتدريج شكلا محددا عبر القرون بسبب الضغوط الدينية التى أدت فى النهاية الى صهرها ـ أى صهر هذه العناصر ، ودمغها بدامغ موحد ٠ فالعقلية الاسلامية فى منطقة القلب (الشرق الأوسط) لها بشكل أساسى صفات العقلية العربية كما كانت سائدة فى بواكير القرن السابع للميلاد ، لكن شيئا من الفكر اليونانى قد اندرج فيها ، بالاضافة الى وعى تاريخى مسيحى من النوع الشرقى oriental كما شرحناه فى مواضع سابقة وكان هذا الوعى معتمدا أساسا على مرويات العهد القديم ٠ وأتى حين من الدهر تم استيعاب هذه الاختلافات فى العقليات لتذوب فى العقلية العامة السائدة ٠ وعلى هذا فهذا التعايش بين هذه الثقافات وهذا الاستيعاب للمتناقضات بالاضافة للدين الاسلامى يسمى « ثقافة اسلامية»، فبالنسبة لشخص عاش عمره فى نطاق هذه الثقافة الاسلامية خاصة اذا كان فى منطقة القلب (العالم العربى) فمن المؤكد أن الاسلام بالنسبة له صادق تماما بكل ما فى الكلمة من معنى، وكل ما عداه باطل البطلان كله ٠ وبطبيعة الحال ، فان الوضع يتغير تغيرا طفيفا بعد أن فرضت النظرة العلمية

(أو الاســتشراف العلمى scientific) نفســها ٠ والتكامل نفســه أو التعايش بين المتناقضــات قد اتخذ مكانه ليحكم العلاقة بين المسيحية وثقافة أوربا وأمريكا الشمالية، فرغم تطور النظرة العلمية (أو الاســتشراف العلمى) فى هذه المناطق (أوربا وأمريكا الشمالية) فان ذلك جعل الوضع أكثر تعقيدا، ويبقى حقيقيا أنه بالنسبة لمن نشأوا كمسيحيين داخل هذه الثقافة (الأوربية الأمريكية) بدت المسيحية كأمر محتوم ومؤكد أقرب الى الصدق من أى دين آخر ٠ الا أنه من المحال ــ على أية حال ــ أن نستمر فى القول بأن هذا المحك أو المعيار الذى تستخدمه المسيحية أرقى أو أدق من المحك الذى يستخدمه الاسلام (★) (المترجم : نعيد هنا الترجمة بتصرف ليتضح المعنى : مع ان المسلمين فى بلادهم يعتقدون أن دينهم هــو الحق وما سواه باطل ، وكذلك الحال بالنسبة لمسيحى أوربا وأمريكا الشمالية ، الا أن المحك أو المعيار الذى يتخذه المسيحيون الأوربيون ، قد لا يكون هو المحك الصحيح ، وليس هناك دليل عــلى أنه أرقى أو أدق من المحك الذى يســتخدمه المسلمون) فمحك الصدق (أو الحقيقة) هذا يعتمد جزئيا على افتراضات مرتبطة بأفكار مسبقة، وجزئيا على «تقويمات» مسلم بصحتها ٠ فالمسيحيون عــلى نحو خاص يبالغــون فى أهمية « التاريخية » أو (الصحة التاريخية) أو (كون الشىء صــحيحا تاريخيــا historicity) وهم يشيرون على سبيل المثال الى اشارة القرآن (الكريم) لزيارة ابراهيم لمكة المكرمة ويقولون ان ذلك لم يحدث تاريخيا ٠ هذا التركيز عــلى « التاريخية » ــ على أية حال ــ يعنى اهمالا لحقيقة الرموز

(★) النص :

of truth, by christianity are superior to those used by Islam ... it is impossible, however, to maintain that Criteria

(أو صدق الرموز) وربما كانت (الحقيقة الرمزية) فى خاتمة المطاف أكثر أهمية من الحقيقة التاريخية • وعلى هذا فان انتقاد المسيحيين للاسلام ، وانتقاد المسلمين للمسيحية ـ رغم انه انتقاد مقبول من الطرفين ، بمعنى أنه يبدو حقيقيا من الناحية الموضوعية ، الا أنه لا يبدو نقدا حقيقيا من جانب المراقب النزيه • وبعبارة أخرى ليست هناك طريقة فى الوضع الحالى تتسم بالموضوعية للمقارنة بين الأديان الكبرى، الا أنه من الأسهل نسبيا أن نقدم لمعتنقى أى دين أسبابا موضوعية واضحة لاقناعهم بأن دينهم أرقى من الأديان الأخرى ، لكن هذه الأسباب ستبدو واهنة ضعيفة منطوية على أحكام مسبقة من وجهة نظر معتنقى الاديان الأخرى لأنهم ـ أى معتنقى الديانات الأخرى ـ لا يعيشون داخل النطاق الثقافى للدين الآخر أو بتعبير آخر لم يتعايشوا مع مفردات السياق الثقافى الدينى لحياة الآخرين (معتنقى الديانات الأخرى) وعلى مدى المستقبل المرئى (القريب) لا مناص ولا مهرب من هذا المأزق ، لذا فلابد أن نتعلم بتواضع أن نعيش مع هذا المأزق أو مع هذا الوضع الذى لا مهرب منه •

وعلى أية حال ، فثمة طريق سيواجهنا مستقبلا ، فعملية التكامل (استيعاب المتناقضات) بين دين ومنطقة ثقافية ، تلك العملية التى تكتسب المنطقة الثقافية من خلالها تجانسها الأساسى basic homogenity ـ ستتكرر مرة أخرى على مستوى العالم • فانتشار منجزات العلم والتكنولوجيا وكون النظرة العلمية أو الاستشراف العلمى قد غدا يحظى بالاحترام فى العالم كله ، كل ذلك يعد نقطة بداية لهذه العملية (توحد الفكر العالمى واستيعاب المتناقضات وتقبل

الأديان بعضها لبعضها الآخر) ذلك لأن كل نطاق ثقافى دينى each religio-culture سيتفهم مفردات النظـرة العلميـة (الاستشراف العلمى) ، وهـذا فى حد ذاته بحـكم الطبع يجعله أكثر قربا من النطاقات الدينية الثقافيـة الأخرى ، وبهذه الطريقة ستكون هناك حركة بطيئـة سـتتمخض فى النهاية عن ثقافة متجانسة للعالم أجمع ، وفى مثل هـذه الثقافة المتجانسه المنتشرة عبر العالم كله ستكون المقـارنة الموضوعية بين الأديان أمرا ممكنا ، وبينما الثقافة العالميـة المتجانسة التى تحدثنا عنها آنفا تتطور ربما وجدنا القضايا المثارة بين الأديان ستحل نفسها بنفسها الى حد كبير ، بمعنى آن المرء يستطيع بالفعل أن يقارن بين الأديان عـلى أسـاس المبدآ القائل (من ثمارهم تعرفونهم ، هل يجنى من الشوك عنب آو من العليق تين) وهو المبدأ الذى ورد فى انجيل متى سفر ٧/آية ١٦ · لكن تقييم (الثمار) وتثمينها سـيخضع لتاثير الخلفية الثقافية لمن يقوم بالحكم ، وعلى أية حال فانه يبدو آن « الثمار » ستوضع فى الاعتبار عند كل من يقارن الأديان خلال الحقب القليلة القادمة ، وسيكون من بينهـا القدرة على تكييف (مواءمة) الأشكال التعقيدية والأفكار التقليـدية للمتغيرات المعـاصرة آو لتتواءم مع الظـروف المعاصرة ، وكذلك القدرة على تقبل (القيم) التى تحققت realized فى الأديان الأخرى ، ودمجها ·

ويمكن تلخيص ما ذكرناه آنفا بالقول انه فى الحاضر والمستقبل المرئى ، من الضرورى أن نعرف آن الأديان الكبرى لدى كل منها ما يتمم الآخر Complementarity فكل دين من هذه الأديان صحيح فى نطاق منطقة ثقافية خاصة والأديان يكمل بعضها بعضا ·

٢ ـ الدعـوة والحـــوار

فى ضوء التحليلات السابقة للوضـــع الحـــالى يبدو أن الأعمـــال التبشـــيرية كمـــا فهمهـــا المسيحيون الأوربيـــون والأمريكيون فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين لم تعد ممكنة الا ـ ربما ـ من بعض الحـــالات المنعـــزلة ٠ ولنفهم حتمية هـــذا ســـيكون من المفيـــد أن نتأمل فى بعض الأعمال الارسالية التبشيرية الناجحة فى الماضى ، وأن نحاول اكتشاف أسباب نجاحها ٠ لقد كانت أول حركة تبشـــيرية كبرى للمســـيحية هى تلك التى حـــدثت فى الامبراطورية الرومانية على أيام العهد الجـــديد (الأناجيل) والتى قادها بولس وغيره من الرسل Apostles (الوارد ذكرهم فيما هو معروف بأعمال الرسل بعد الأناجيل الأربعة فى طبعات الأناجيل المجمعة معا) لقد جرت هـــذه الحركة فى منطقـــة متشابهة ثقافيا ، قل هـــذا هـــذا التشابه أم كثر ٠ وكانت نجاحات بولس الرئيسية بين الســـكان الحضر الذين كانت ثقافتهم بالفعل هى مزاج من الثقافة اليونانية (ذات الأصول اليونانية) والشرقية Oriental (بالمفهوم الذى حـــدده المؤلف فى فصول سابقة) ، وكان كثيرون من الذين تمسحوا بالخلاص على يد بولس من بين أولئك (الذين يخافون الله) من بين غـــير اليهـــود (الأُمَمِيِّين) Gentiles الذين اتصلوا بطرق العبادة والتعاليم اليهودية ، ولكنهم كانوا غير راغبين بالتمسك بالشريعة اليهودية كلها (بتمامها) ، وأحد أسباب ذلك أنهم ـ بلا شك ـ لم يكونوا راغبين فى أن يكونوا أعضاء فى الجماعات اليهودية المنعزلة أو بتعبير آخر لم يؤثروا حياة العزلة المألوفة في المجمعات اليهودية ٠ وكان انتشار المسيحية

فى آسيا الصغرى وأوربا الى حد كبير جدا بين أشخاص شاركوا بولس فى كونهم من مواطنى الامبراطورية الرومانية مثله ، كما كانوا مثله قد ألفوا الفكر اليونانى والثقافة اليونانية كما أنهم كانوا متصلين بالأفكار الدينية اليهودية . لم تكن هناك آية حواجز ثقافية يتعين عبورها عندما تحول بولس اليهودى الى المسيحية فقد مزج فى كيانه بين اليهودية والفكر اليونانى والثقافة اليونانية .

ولابد من النظر لانتشار المسيحية فى أوربا الغربية من خلال علاقتها بالامبراطورية الرومانية ، لقد انتشرت المسيحية أولا داخل الامبراطورية بعد أن قبل كثيرون المسيحية كدين فى العاصمة روما ، وقد أدى انهيار أوربا الغربية وتفكيكها بتأثير غزوات البرابرة الى تراجع المسيحية شيئا ما ، ولكن بعد فترة كان على المسيحية أن تواجه احتياجات تلك الشعوب التى كانت فيما مضى جزءا من الامبراطورية ، من ناحية ، والشعوب التى تأثرت بالثقافة الرومانية دون أن تكون تابعة لهذه الدولة من ناحية أخرى . وبصرف النظر عن المسيحية فلم يكن للبربر الغزاة دين قادر على دعم مفهوم البشر للقيم فى أزمنة ضبابية ضاعت فيها المعالم . كلما انتشرت المسيحية فى غرب أوربا ، بدأ النظر الى الثقافات الأخرى المختلفة كنسيج مختلف عن التكوين الأصلى السائد .

أما انتشار المسيحية من خلال جهود تبشيرية فى القرن التاسع عشر وبداية العشرين فيشبه من بعض الوجوه هذا الانتشار الأول الذى تحدثنا عنه آنفا ، كما أنه يختلف معه فى بعض الوجوه المهمة . فارتباط توسيع المسيحية الأول

بانتشار الثقافة الرومانية يوازى ارتباط توسعها ــ أى المسيحية ــ فى القرن التاسع عشر بانتشار الثقافة الأوربية • والنجاحات الرئيسية التى حققتها المسيحية كانت بين شعوب ذات ثقافة بدائية (ثقافات بسيطة نسبيا) خاصة فى غياب دين آخر ذى تنظيم راق ، ففى أنحاء كثيرة من آفريقيا ــ على سبيل المثال ــ حيث كانت الثقافات المحلية فى مرحلة انهيار ، قبل الأفارقة من خلال عملية واحدة غالبا كلا من تكنولوجيا الرجل الأبيض (بما فى ذلك التعليم) ودين الرجل الأبيض •

(المترجم : وبعبارة آخرى تجعل المعنى أوضح ، لقد تقبل الأفارقة لكونهم كانوا فى مرحلة انهيار ثقافى (أو حضارى) ما قدمه الرجل الأبيض من تكنولوجيا وتعليم ودين، وكان قبولهم للصفقة كلها أمرا لازما) •

وعلى آية حال ، فالأكثر أهمية هو الفروق بين التوسع الحديث (القرن ١٩) والتوسع الأصلى فى غرب أوربا • فالحركة التبشيرية الحديثة حاولت أيضا أن تخترق مناطق العالم الثقافية التى تسيطر عليها الأديان الأرقى ، وقد رغب سكان هذه المناطق فى التكنولوجيا الأوربية وفى الجوانب المادية من الحضارة الأوربية لكنهم ــ فى غالبهم ــ فى الوقت نفسه كانوا مرتبطين ارتباطا عميقا بدينهم الذى كانوا يشعرون أنه أرقى من دين الأوربيين • ومن هنا فقد كان نجاح الحركة التبشيرية المسيحية فى هذه المناطق محدودا تماما ، فمعظم من تركوا دينهم فى هذه المناطق ودخلوا دين الأوربيين لم يكونوا أصلاء ولم يكونوا من صلب التكوين الثقافى الأصلى لبلادهم وانما كانوا من جماعات تعيش على هامش ثقافة بلادها ، أو كانت لا تحظى

بوضع اجتماعى مريح فى نطاق هـذه الثقـافة السـائدة ، فالقادة الفكريون والروحيون للأديان الكبرى ـ عـلى أية حال ـ رغم أن التوسع الأوربى لم يتعرض لوضعهم ومع هذا فقد كان بعضهم على وعى بأن المسيحية تمثل تحديا لنظمهم الدينية فراحوا يتخذون الخطوات لمواجهة هذا التحدى ٠ ولم تستطع المسيحية فى هـذه المناطق آن تجد لها موطىء قدم الا بالكاد ٠ ان ما قلناه آنفا ينطبق عـلى نحو خاص عـلى المناطق التى سادتها الثقافة الاسلامية ٠

ان هذا لا يعنى ـ بطبيعـة الحال ـ آن أديان العـالم الكبرى تبقى فى حالة سكون لا حراك فيه ، أو بتعبير آخـر لا تغير فى خرائطها ، أو لنقل فى حالة استاتيكية Static هذا بعيد عن الواقع ٠ فبصرف النظر عن الحركة المسيحية التبشيرية فان على كل المناطق الثقافيـة الـكبرى أن تواجه سلسلة من التحديات ممثلة فيما يطلق عليه (أثر الغـرب (the impact of the West) ، والعامل الأول والأسـاسى يتمثـل فى انتشـار التكنولوجيـا الأوربيـة التى ليس أقلها شأنا تطور وسائل الاتصال ، ان هذا يغرى بتشـابك فى بعض جوانب النظم الاقتصادية العالمية وهذا بدوره يؤدى الى تشابك وتداخل فى المفاهيم السياسية ، ومرة أخرى ، فان البشر الذين عليهـم آن يتـدربوا لاستخدام المخترعات الأوربية سيجدون أنفسهم وقد ألفوا النظرة العلمية ، وعلى هذا فان (صحوة the resurgence) أديان العالم ليست مجرد دفاع ضـد الحـركة التبشـيرية المسـيحية التى هـددت أوضاعها ، فالأمر ليس بهذه البساطة، بل هى بمثابة رد فعل ضد تحديات أشـمل وأوسع ، انها دفاع ضـد سلسلة من التجارب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الفكرية ٠

وبينما كان هذا هو ما يحدث مع أديان العالم ، شهدت الحركات التبشيرية بين المسيحيين انحرافا معينا · وربما كان بعض هذا الانحراف موجودا فى القرن التاسع عشر أيضا مع وجود بعض التناقض أو التنازع بين انجازات المسيحية وانجازات الحضارة الأوربية ، فبعد الحرب العالمية الأولى خاصة بدت هناك زيادة فى مؤيدى الارساليات المسيحية الساعية الى الهداية (الراغبة فى تحويل الآخرين للمسيحية) رغم أن هذا المسلك قد أنكره متى فى انجيله · راجع سفر ٢٣ ، آيات ١٤ وما بعدها :

(الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ! فانكم تلتهمون بيوت الآرامل وتتذرعون باطالة صلواتكم ، لذلك ستنزل بكم دينونة أقسى : الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون، فانكم تطوفون البر والبحر لتكسبوا متهودا واحدا، فاذا تهود جعلتموه أهلا لجهنم ضعف ما أنتم عليه ···) ، فروح الهداية (المقصود الرغبة فى تحويل الآخرين للمسيحية) تقحم نفسها عندما لا يكون الرجال والنساء المحتاجون للمعونة هم محور الاهتمام ، وانما عندما يكون محور الاهتمام الحقيقى هو رفاهية المجتمع المسيحى ، ويمكن توثيق ذلك بعبارات تتردد على شاكلة عبارة : « فتح العالم لأجل المسيح » The Conquest of the World for christ

وهناك اهتمام فى الاحصاءات الارسالية بعدد المتحولين للمسيحية وبزيادة الاعضاء المنتمين للكنائس المحلية · والمسيحية فى هذا الصدد تختلف الى حد التناقض مع الاسلام ، فرغم أنه دين دعوة كالمسيحية الا أنه أقل تباهيا بالداخلين فيه ، فالمجتمع الاسلامى يجذب أناسا الى الاسلام لمجرد قبولهم كاخوة « فى الاسلام » ، وهذا الاتجاه لا يتخذه

الا أصحاب دين واثقون من دينهم ثقة عميقة ، ثقة لا تجعلهم يؤكدونها باحصاءات . بينما نجد أن المسيحيين الغربيين يمرون بأزمة ثقة فى النفس ، فهم يبدون غير مدركين التفوق الأوربى المادى والسياسى الذى اعتمد عليه أسلافهم وكان موضع فخرهم، كما أن المسيحيين الغربيين لم يتوصلوا الى تفاهم مع النظرة العلمية (الاستشراف العلمى) (المترجم: المعنى المقصود : انهم لم يوفقوا ـ بما فيه الكفاية ـ بين المسيحية والنتائج التى أسفر عنها العلم الحديث ، النص الانجليزى :

They have not sufficiently come to terms with the scientific outlook.)

وحيثما نجد الارساليات التبشيرية غير واثقة من نفسها بعد احتمال أن يتحول للمسيحية ـ برضا ـ عدد كبير .

وبالنسبة للوضع الحالى ، فان الارساليات التبشيرية بمفهومها المعروف فى نهاية القرن التاسع عشر ، تعد تجربة غير قابلة للتكرار ، لقد أصبح التبشير بهذه الطريقة مستحيلا فى الوقت الحاضر بصرف النظر عن حالات استثنائية . وفى معظم المناطق ـ أيضا ـ لم تعد الارساليات التبشيرية « الأجنبية » مطلوبة طالما كانت الجماعة المسيحية المحلية قادرة على تحمل مسئولياتها ، والذين لازالت أوربا وأمريكا ترسلهم الى الخارج كارساليين تبشيريين هم فى الحقيقة يؤدون أعمالا خاصة (معينة Specific) لمؤسسة قد تم انشاؤها بالفعل فى البلاد التى يذهبون اليها . ففكرة (الارساليات التبشيرية الأجنبية) كلها قد حلت محلها فكرة (تبادلت المساعدات mutual help) بين المجتمعات المسيحية فى سائر أنحاء العالم .

وثمــة فكرة أخــرى جــديدة تم وضعها أيضا موضع التطبيق فيما يتعلق بالعلاقة بين الأديان وهى على وجه التحديد فكرة (الحــوار) dialogue الا أن كثيرين يفهمونه بطرائق مختلفة ، فهو بالنسبة للبعض مؤتمرات ذات سلطات high powered conference قد تنتهى بقرارات تم الاتفاق عليها ٠ وهو بالنسبة لآخرين لا يعدو أن يجتمع عدد من اللاهوتيين المسيحيين والعلماء المسلمين ليصـــدروا قرارات فيما يتعلق بالمسائل الخلافية فى العقائد ، بل هنـــاك من يتحــدث عن الحوار بشكل منغلق وكأنما ليس هناك الا طرف واحد مثل كاتب سويسرى اختتم كتابه الموسوم باسم :
Dialogue With Islam

بهذا النداء الذى وجهه للمسلمين :

« اننا نطلب منكم بشكل خاص جدا ، نطلب منكم يا من تؤكدون بشدة القرابة القوية بين دينينا أن تؤمنوا أن لدى الغرب شيئا أكثر وأفضل ، أفضل من ثقافتكم : انه كلمــة الحياة ، رؤية مملكة الرب وأمل لا نهـــائى ، أمل لا ينتهى نعبر عنه بكلمة واحدة وباسم واحد : انه يسوع المسيح»(١)

ان مثل هذا الكلام ليس (حوارا) بأى معنى من المعانى ذات الأهمية ٠ فمثل هذه العبارات لا تعنى شيئا أو لا قيمة لها حتى بالنسبة للمسلم الذى وصـــل الى درجة عاليـــة من التعليم ، انه ببساطة سيجيب عن مثل هــذه النداءات غــير المجدية بأن لديه بالفعل (كلمة الحياة) ممثلة فى القرآن ، وأنه يعتقد أن ارادة الله ومشيئته هى التى تحقق العدالة على ظهر الأرض ٠

واذا وضعنا فى اعتبارنا أن (الحوار) المقصود هنا يكون بين أشخاص ينتمون الى ثقافات مختلفة اتضح لنا ضرورة أن يكون المشاركون فى هذه الحوارات أناس على درجة عالية من التفتح وتقبل ما يقوله الآخرون ، فلا يمكن أن يكون هناك حوار من أى نوع ما لم يتكلم أحد الأطراف بينما يصغى الطرف الآخر لما يقال محاولا أن يفهم ، وهذا ليس بالأمر اليسير بين ثقافات غريب بعضها عن بعضها الآخر لأسباب ذكرناها آنفا كاختلاف المفاهيم والقيم والأفكار ، فاذا راح طرفان أحدهما مسيحى والآخر مسلم ، يبحث كل منهما للآخر عن حجج وبراهين لدعم الخلاف بينهما، فهما سيجدان بسهولة كثيرا من العناصر لدعم الخلاف لكن هذا لن يؤدى الى قيام حوار حقيقى • فمن شروط الحوار الرغبة فى التعلم ، واذا كان الأمر متعلقا بثقافات مختلفة فهذا يعنى صبرا عظيما ومحاولة التآلف والتعارف بكل جوانب العقلية الأخرى أو العقلية الغريبة Strange mentality ، والتدرب على فهم عقليات الآخرين يجعل المرء أكثر تفتحا ، فاذا تقبل القيم Values الموجودة فى الدين الآخر ، فانه سيبدأ فى البحث عن سبيل لادماجها فى دينه ، فالمؤلف المسيحى (السويسرى) الذى اقتبسنا من كتابه فى الصفحة السابقة كان يشجع المسلمين ــ بلطف ودماثة ــ على أن يضيفوا الى دينهم شيئا دون أن يتخلوا عن الجزء الأساسى من تراثهم ، ولكنه فشل فى أن يرى ــ كمسيحى ــ أنه لابد أن يسأل نفسه فيما اذا كان لدى الاسلام شىء يقدمه ليضاف الى المسيحية ، ربما كانت ثقة المسلم العادى العميقة فى الله ، هى الفكرة التى يجب أن تأخذها المسيحية من الاسلام •

ويبدو ضروريا لحوار حقيقى أن يفرق كل مشارك فى الحوار بين رسالة دينه الايجابية ، وبين حججه الدفاعية ، فتكرار الحجج الدفاعية يعنى الرغبة فى منع معتنقى هذا الدين من الخروج منه ، كما يحفز معتنقى الديانات الأخرى على صياغة حجج مضادة ، والدفاعات والحجج المختلفة قد تنشأ بين أصحاب دين واحد على تفسير نص ، مع ان هذا النص يلقى اعترافا من الأطراف المتجادلة ٠

وفى المجادلات الدينية يميل طرف الى تسفيه ما لدى الطرف الآخر ، فالعهد القديم يؤكد تفوق اليهودية على دين الكنعانيين لأن اليهود يعبدون الله الحق بينما الكنعانيون يعبدون آلهة مزعومة لا تعدو أن تكون خشبا وحجرا ٠ والآن فان المتدين فى هذا العصر الحديث قد يوافق على قولنا بأن دين بنى اسرائيل كان أرقى من دين الكنعانيين لكنه لا يدرك أن كثيرا من قيم الدين الكنعانى قد انتقل الى دين بنى اسرائيل والى المسيحية ، أما القول بأن الكنعانيين كانوا يعبدون خشبا وحجرا ففيه بعض المبالغة يقصد بها ابعاد بنى اسرائيل عن أية طقوس كنعانية ، وهذا أمر مطلوب ـ بدون شك ـ لفترة بعينها ، لكن الحقيقة أن التأكيد على أن الكنعانيين كانوا يعبدون حجرا وصنما أمر فيه تحريف للحقيقة فالكنعانيون كانوا فى الأساس يعبدون قوى الطبيعة ويرمزون لها بالأخشاب والأحجار التى لم تكن معبودة فى حد ذاتها ٠

فالدفاعات الدينية ـ ضد الأديان الأخرى ـ تعمد الى تضمين عنصر وترك عناصر أخرى ، تعمد الى التحريف والمبالغة ، خاصة بالنسبة للأديان القريبة منها أو ذات الصلة بها ٠ فالمسيحية فى مرحلة التكوين كان يتحتم عليها

أن تدافع اليهودية بالزعم بأن المسيحيين أكثر فهما للعهد القديم ، وفى فترة لاحقة انتشرت الفكرة حتى أصبح اليهود جميعا مسئولين عن موت يسوع المسيح ، وقد قام مجمع الفاتيكان الثانى مؤخرا بمحاولة لتصحيح ذلك ، والدفاعات المسيحية ضد الاسلام تشتمل على الاعتقاد بأن محمدا كان على وعى كامل وأنه لم يتلق وحيا ، وأن الاسلام يخاطب الشهوات الجنسية للانسان وأن الاسلام انتشر بالقوة العسكرية ، وكان للاسلام دفاعاته ضد اليهودية والمسيحية المتمركزة حول تحريف التوراة والأناجيل ، والحقيقة أنه فى حالة يجد فيها أى دين فى موقف الدفاع ضد دين آخر أو أديان أخرى ، فلابد أن نجد قدرا من التحريف وقدرا من الكذب فيما يقال عن الدين موضوع الدفاع وقدرا من التحريف والكذب فيما يتعلق بالأديان الأخرى ·

وإذا لزم أن يكون هناك حوار أصيل خال من الزيف فلابد أن يتخلى كل جانب عن دفاعاته · وفى الحوار مع الاسلام يجب أن يتخلى المسيحيون عن فكرة أن محمدا لم يتلق وحيا ، والأفكار الشبيهة ·

لكنه من المؤكد أن المسيحيين والمسلمين على سواء ، سيقول الواحد منهم : « لكننى بالتأكيد لا يمكن أن أتخلى عن فكرة أن دينى هو الأرقى بدليل أننى لم أتخل عنه » فمثل هذه الأقوال تنطوى على كثير من سوء الفهم ، فالناس لا تتخلى عن دين وتدخل دينا آخر بعد دراسة موضوعية لمزايا كل منهما ، وانما لأن معتنقى الدين الجديد يبدون قادرين على تقديم شىء لهم ، أو بتعبير آخر قادرين على تقديم ما ينقصهم، بينما عجز معتنقو الدين الآخر عن تقديم المطلوب · ومن

هنا يأتى الاقتناع ففى الوقت الحاضر من المستحيل مقارنة الأديان بنزاهة حقيقية ، فلا أحد يستطيع أن يعرف المسيحية على حقيقتها من الداخل ، ولا أحد يستطيع أن يعرف الاسلام على حقيقته من الداخل بدرجة كافية ، والشخص التارك لدينه ليدخل دينا آخر لا يستطيع أيضا ـ بحكم تجربته الشخصية ـ أن يقدم لنا دراسة غير منحازة • وللسبب نفسه فلا أحد يستطيع أن يقارن بموضوعية بين ثمار 'fruits كلا الدينين ، وقد يقال ان علماء الماضى كان لديهم من المصداقية ما يساعدهم على تكوين صورة عن الدين الآخر الا أن ما كان لدى هؤلاء من المعلومات عن الأديان الأخرى ليس أكثر مما هو متاح للمعاصرين ، وباختصار لا أحد له الحق فى القول : (ان دينى أفضل من دينك) فأقصى ما يمكن قوله (تلك هى الرسالة الايجابية لدينى وأنا أعتقد أو أؤمن انها رسالة حقة) •

وما دامت مقارنة الأديان بمعنى محاولة الادعاء بأن هذا أرقى من ذاك أو ذاك أدنى من هذا ، لا يمكن أن تكون مقارنة موثوقا بها ، فمن باب أولى يجب أن تكون روح الحوار الحقيقى بين الدينين بعيدة عن المقارنات بالمفهوم الآنف ذكره • بل ان بعض الاصطلاحات قد تنطوى على نوع من التعالى (رغم أنها حقيقية تاريخيا) كأن يقول قائل (ان دينى هو الدين الخاتم) ذلك أن كلمة خاتم final تنطوى على (استعلاء على الآخرين) أو (تجاوز الآخرين) • ان الرغبة فى تجنب مثل هذه المقارنات تتعمق بتدريس علم النفس الحديث الذى يؤكد من بين ما يؤكد على أن تأكيد الشخص على تفوقه يعد علامة من علامات الضعف • واذا كان الانسان مقتنعا حقا بصحة معتقداته فهو ليس فى حاجة أن يؤكد

للآخرين دوما أنها الأرقى • فالمجتمعات الدينية التى تؤكد أن معتقداتها أرقى من معتقدات المجتمعات الدينية الأخـرى قد تشعر بضرورة فعلها هـذا بسبب ضـعف أفرادها • أو لأنها تحس أن أفرادها أضعف من أفراد الجماعة الأخرى • نخلص من هذا الى أننـا اذا أردنا اقامة حـوار حقيقى مع الأديان الأخرى وأن نعيش صادقين مع أنفسـنا ومع هـذا العالم من حولنا أن نتحاشى الاعتقاد أن ديننا أرقى من دين الآخرين (المترجم : يلاحظ هنا أن المـؤلف أوربى وهـو يخاطب القارىء الأوربى أساسا ، وكتابه بالانجليزية) •

وعند النظرة الأولى سيظن أناس كثيرون أن التخلى عن دفاعاتهم يعنى التخلى عن دينهـم ، والمـؤكد أن الأمر ليس كذلك ، وانما هو أقرب الى التخلى عن التأكيـدات الزائفـة واعادة بنيان حياة البشر على الحقائق المؤكدة الراسـخة فى أديانهم • ان هذا بمثابة « دعوة mission » « وحوار » • انه عودة الى الدعوة المسيحية فى شكلها السلفى (الأول) ففى أعمال الرسل يقرأ :

(بعـد ذلك ترك بـولس أثينـا وسافر الى مدينـة كورنتوس ، فالتقى هناك يهوديا اسمه أكيلا ، من مواليـد بنطس كان قد جاء حديثا مع زوجته بريسكلا من ايطاليـا لأن القيصر كلوديوس أمر بطرد اليهـود من روما فقصـد بولس اليها اذا كان ــ أى بولس ــ من أهـل مهنتهما وهى صناعة الخيام أقام عندهما وكان يشتغل معهما • • •) •

ونقرأ فى الرسالة الثانية الى أهل تسالونيكى (• • ولا أكلنا الخبز من عند أحد مجانا بل كنا نشتغل بتعب وكد ليل نهار لكى لا نكون عبئا ثقيلا على أى واحد منكم • • • ان كان

أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل) ومما يفهم من هذه النصوص أن القديس بولس كان يفضل أن يكسب رزقه بعمل يده ، وبهذه الطريقة شارك بولس فى الحياة العامة للناس قبل أن يحدثهم عن أمور دينهم • لقد حدثهم عن دنياهم أولا قبل أن يدخل فى المسائل اللاهوتية • لهذا المبدأ يعود المسيحيون وغير المسيحيين ، فالدعوة أو التبشير أصبح هو النشاط الانسانى لمن يؤدون عملا مفيدا فى عالمنا هذا غير التشدق والادعاء بأنهم وحدهم الذين يقولون الحقائق الدينية الخالصة •

لقد كان اخوة المسيح الصغار (ارسالية تبشيرية أسسها شارلز دى فوكولد Foucauld) يعملون بأعمال يدوية متواضعة بين الفقراء فى بلاد غير مسيحية وانشغل آخرون بتنمية مناطق بتقديم مهارات تعليمية وصناعية وزراعية ، وهم بأعمالهم تلك يشاركون كأعضاء مع اخوانهم الذين يعتنقون دينا آخر ولهم ثقافة أخرى • وكانت حياتهم معروفة مكشوفة للجميع بحيث يرى الجميع الى أى مدى يمكنهم دينهم من التعامل مع المشاكل والقضايا المثارة فى الوسط الذى يعيشون فيه • هذا هو شاهد الحياة •• انهم يتيحون للجميع رؤية (ثمار) دين الواحد منهم فى هذه الحياة التى لا تعد شكلا خاصا من أشكال الحياة (تتسم بالخصوصية) وانما هى حياة كالحياة العامة • حياة مشتركة •

ان الشاهد على الحياة المشتركة هو الجانب الأساسى للدعوة (الهداية أو التبشير) فحيث تحقق هذا يبقى شاهد للكلمات المعبرة عن الحقائق الايجابية (فى الأديان) فالشخص الذى شارك فى الحياة فى نطاق ثقافة غريبة يكون

قد واءم نفسه مع الجوانب الدينية فى الثقافة التى يعيش بين ظهرانيها ، لذا فانه يكون أكثر قدرة على التعبير عن حقائق دينه بطريقة تجعل الآخرين يفهمونه ويقدرونه ، كما أنه بدون شك يكون قد بدأ يتجاوب دينيا مع بعض معتقدات الدين الآخر ، كما أنه يحاول ادماج هذه المعتقدات فى ممارساته الدينية ٠

يتراءى لى أنه بحكم التعايش المشترك ستكون هذه الصورة فى المستقبل القريب للحوار بين الأديان (بمعنى أنه سيكون حوارا عمليا بحيث يستوعب كل دين شيئا مما فى الأديان الأخرى بحكم المعايشة وسهولة وسائل الاتصال) ٠

ولعله من الجدير به أن نشير الى أن الحوار بين الأديان وما يستتبعه من لقاءات سيؤدى بنا الى التعامل مع كل الأديان بطريقة متحضرة مهذبة ٠ والجدير بالذكر أنه فى اسبانيا الاسلامية حيث اختلط المسلمون والمسيحيون واليهود وعاشوا معا ظهرت صيغة فلسفية (شكل فلسفى) للدين الاسلامى كان ممثلاه الرئيسيان هما ابن طفيل وابن رشد اللذان كانا يعتقدان أن التعبير الدينى الحق لا يظهر الا من خلال الفلسفة وأن اسلام العامة (الاسلام الجماهيرى) هو التقريب الأقرب the nearest approximation للدين الحقيقى كما يستطيع الأشخاص العاديون استيعابه فهم لا يقدرون على الاسلام الفلسفى ، ولم يناقش ابن طفيل وابن رشد الأديان الآخرى بوضوح لكن بعض كتابتيهما تُشير الى أنهما يعتبران المسيحية الجماهيرية (مسيحية العوام) ما هى الا التقريب الأقرب للمسيحية الحقة ، وعلى النحو نفسه نظر لليهودية الجماهيرية (يهودية العوام) لكن يهودية العوام ومسيحية العوام فيما يرى ابن طفيل وابن رشد أقل نجاحا من اسلام

العوام ، فكل الأديان اذن اذا ما جرى تطويرها باستيعاب قيم الأديان الأخرى فانها تتطور وتتحسن من دين (عوام) الى آن تصبح أقرب الى الدين (الحق) ، فليس هناك دين كامل وان كل دين فى حاجة الى الاستفادة من الأديان الأخرى كل ما فى الأمر أن بعض الأديان أقرب (الى الاسلام الفلسفى) من الأخرى لكن المقارنة الموضوعية بينها تظل مستحيلة ، وقد لا يتآلف الانسان العصرى مع فكرة ربط الدين الحقيقى بالدين الفلسفى بل ربما ذهب الى ما هو أبعد بالقول ان الدين الفلسفى يصعب استيعابه لأنه يكون خارج نطاق الفهم الانسانى على الأقل فى الوقت الحاضر ، فكل ما يستطيع المرء هو فهم الخطوط العريضة لهذه الفلسفات الدينية وبطريقة مبهمة وليس بطريقة شاملة عامرة بالتفاصيل ، وقد تتقدم البشرية نحو مزيد من الفهم لها ، لكن الدين الحقيقى بصورته التامة ربما أصبح دائما بعيدا عن فهم البشر وهم يكدحون فى هذه الحياة الدنيا ٠

٣ ـ قبول مبدأ التكامل :

حان وقت تلخيص بعض النقاط التى طرحناها والخلوص منها بنتائج ، لقد توحد العالم الآن على المستوى المادى بنقل العلم والتكنولوجيا وهما من افراز حضارة الغرب ومع هذا فهو لا يزال بعيدا عن التوحد على مستويات أخرى ، فلازالت النطاقات الدينية الثقافية الكبرى محتفظة بحيويتها اذ شهدت الأديان صحوة resurgence فى الآزمنة الأخيرة ٠ لقد انشغل الكل فى الحوار فى الأمور العلمية وآفاق العلم ، وربما سيجدون أنفسهم الى حد ما ضد الاستشراف العلمى الى حد ما ، وسيظل هذا التردد قائما على نحو ما ، مادام العلم وحده غير قادر على تلبية كل الحاجات الأعمق للبشرية ، فطاقة

الحياة أو الطاقة الحيوية على وشـك الانفجـار من جـراء الاستشراف العلمى الصارم الشبيه بسترة ضيقة لا تستطيع الطاقة الحيوية أن تأخذ مداها بداخلها · وفى الوقت نفسه فان الأديان كلها الآن قد انشغلت فى أعمال بحثية بقصـد مواءمة نفسـها مع الوضـع الحالى النـاتج عن التطـورات التكنولوجية ، وفى هذا المجال يجدر بالذكر أن بعض الأديان قد حققت تقدما أكثر مما حققته أديان أخرى ، وفى الوقت الحاضر ، تتفق كل الأديان فى انخراطها فى حوارات بشأن العلم والحاجة الى التكيف مع الثقافة التكنولوجية ، الا أن الأديان رغم مشاركتها فى الحياة ستظل تجـد صـعوبة فى الاتصال ، وبالتالى فسيظل التقدم فى مضمار الحوار بطيئا· ولعدة حقب كثيرة قادمة ستظل الأديان الكبرى معا جنبا الى جنب دون أن يسبق أحـدها الآخـر ، وسيحقق كل دين من الأديان المعروفة نجاحا معتدلا فى محيط ثقافته ، وسيتعلم كل صاحب دين أن يقبل الأديان الأخرى كمكملة لدينه ·

هذا الموقف التكاملى ــ اذا جاز التعبير ــ لابد أن ننظر اليه من منطلق لاهوتى a theological standpoint (المترجم : أو من منطلق دينى) فالمسيحيون يحبون استخدام عبـارات على شاكلة (هدف الخلق) (النظام الحقيقى للحياة الانسانية) ويفترضون أن ذلك موضح للانسان بشكل جلى فى الكتـاب المقدس وقد تعتبر مثل هذه العبارات الآنف ذكرها من قبيل (الدفاع) أو (الفخر) المسيحى ، لـكن هـذا ليس هــو ما أقصده هنا ، فهذه العبارات تتردد بالفعل ــ على أية حال ، كما أن اختلاف النطاقات الثقافية الدينية لابد أن يكـون جزءا من هدف الخلق وجزءا من تصـميمه · وطالمـا ظلت الثقافات ــ رغم تعاونها واتصالها بعضها ببعضها الآخر ــ

مميزة أو محددة بعضها عن بعضها الآخر فستظل الأديان يكمل بعضها بعضا طالما كان لكل دين مفرداته ومصطلحاته المتفقة مع عقلية النطاق الثقافى الذى يعمل خلاله ...

وعلى المدى البعيد ـ بطبيعة الحال ـ من المتوقع أنه سيكون هناك دين واحد للعالم كله مع وجود اختلافات داخل نطاق هذا الدين الواحد، ويمكن تشبيه هذه الفروق الداخلية بالمذاهب الأربعة لدى المسلمين من أهل السنة ، فهم جميعا مسلمون رغم اختلاف مذاهبهم . وانه ليبدو ـ على أية حال ـ أن الحركة تجاه الدين الواحد (حركة توحيد الأديان) من غير المرغوب فيه أن تنطلق بسرعة شديدة اذا لم يعقبها أو يصاحبها حركة توحيد ثقافى (السعى لتكوين ثقافة واحدة كبرى) ، بل انه يمكننا القول ان هذه الحركة قد بدأت بالفعل وهناك ضغوط علمانية لدفعها لمزيد من التقدم ، فحتى على مستوى النطاقات الثقافية الدينية religio-cultures المختلفة أصبح أساس التفكير لدى كثيرين هو التفكير العلمى الشائع ، ولأن هؤلاء البشر سيشعرون بالتقارب الفكرى ووحدة الهدف نتيجة اتحاد منهج التفكير ، فسيتم نقل مزيد من الجوانب الدينية لدى كل منهم ـ بشكل مباشر ـ للآخر .

ومعظم المسيحيين يميلون الى افتراض أن المسيحية ستكون هى دين العالم كله فى المستقبل ، لكن هذا أبعد ما يكون عن أن يكون أمرا مؤكدا ، ولنذكر عنصرا واحدا ـ فبعض الأمم المسيحية الكبيرة تعانى بشدة من العنصرية والدين الذى لا يستطيع أن يحل مشكلة العنصرية بين أعضائه من المستبعد أن يكون قادرا على تقديم حلول كثيرة مجدية لمشاكل العالم الأخرى . ومن بين مزايا الاسلام تعميقه لمفهوم

الأخوة وعمق حججه ، الا أن الثقة بالنفس مصحوبة بعمق الحجج وقوتها قد تتحول الى (عيب) وليس ميزة عندما تعمى عين الانسان عن رؤية ما هو جدير بالتقدير لدى الآخـرين لذا فقد يجد الاسلام صعوبة فى ادراج قيم أخرى من أديان أخرى ليستوعبها ويجعلها جزءا منه • والاسلام ـ بالتأكيد ـ مناضل قوى ومنافس عظيم الشأن سـيعمل عـلى مد الدين الواحد ـ دين المستقبل بهيكله الأساسى •

Islam is Certainly a strong Contender for the Supplying of the besic-framework of the one religion of the future.

ومن غير الضرورى ـ على آية حال ـ فى الوقت الحالى أن نحاول رسم صورة أكثر وضوحا للمستقبل فان ما سيحدث بدقة لن يكون نتيجة تخطيط بشرى ، بل سيكون من عمـل القوى المنبثقة من اللاشعور أو ـ ان راق لنا ـ سيكون من عمل ما هو الهى يعلو على كل الخطط البشرية • وقد يكـون ثورنتـون L.S. Thornton غير متفق معنا فى بعض النتائج التى خلصنا اليها فى هذا الفصل ، ومع هذا سننهيه بملاحظة من ملاحظـاته رغـم أنه كتبهـا عن جـدائل strands (أو ضفائر) مختلفة ظهرت فى طيات المسيحية ، الا أنهـا أيضا تنطبق على أديان العالم المختلفة :

(الكتاب التقليديون ـ عن وعى منهم أو دون وعى ـ يتمسكون بفكرة التكامل العضوى للحقيقة an organic conception of truth فكل عنصر فى المرويات لا يخلو من بعض الحقيقة • لذا فمن الأفضل أن نتركها جميعـا تنمـو معا ، مخافة أن تؤدى محاولة جعلها متناسقة قسرا الى تحطيم شىء

متمم لكيانها العضوى يعوقها عن النمو ، توجد أزمنة يكون من الحكمة فيها أن تترك الأسئلة التى لم تجد اجابة حاسـمة لها حتى تضع قوى الحقيقة المتنامية اجابات لهـا لا تحتمل الشك) (٢) ٠

الهـــــوامش

الفصل الأول

(١) هذه هى وجهة نظر بارت Barth كما عرضها ملخصه John Macqurrie
فى : God-talk : An examination of the language and logic of Theology :
London, 1967.

(٢) I., S. Thorntin, Revolution and the modern World, London.
1950, 194 ch. E0.

(٣) مرجع سابق :

(٤) E. G. Joseph Neuner (ed), Christian Revelation and World religions London, 1967 with papers by Hans King, Piet Fransen, Joseph Masson, R. Panikkar.

(٥) Revelation and the Modern World, 62, etc.

الفصل الثانى

(١) الطبرى ، تاريخه ، ١١٤٧ وما بعدها ٠ وراجع أيضا :
Muhammad at Mecca, oxford, 1953, 40.

(٢) صحيح البخارى ، وراجع ايضا :
Muhammad at Mecca, 5E.

(٣) راجع أيضا ١٠ ــ ١٥/١٦ وص ٦٩ ، ٤٤ ، ٤٦ ٠ التى تتناول العقوبات الرادعة لمن يغير الوحى أو يزيفـه ٠

(٤) Muhammad at Mecca, 101-109.

(٥) راجع الآيات القرآنية ٠

الفصل الثالث

(١) Cf. Watt, the early development of the Muslim attiude to the Bible, in Transactions of the Glassgow University Oriental Society, XVI (1957) 50-62.

(٢) Cf. Revelation and the modern World, 242, 272.

الفصل الرابع

(١) Muhammad Prophet and Statesman, London. 1961, 22-34.

(٢) هذه النقطة تم تناولها فى :

Revelation and the modern World, 195, 199.

الفصل الخامس

(١) For the idea of a succesrion of authoritative teachers in Judaism, cf. *Revelation and the Modern World*, 207, 282.

(٢) Islam and the Integration of Society, London, 1961, ch. 4. Truth in the Religions, Edinburgh, 53, ch. 5.

الفصل السادس

(١) Cf. Revelation and the Modern World, 60.

(٢) Cf. *Islam and Integratiot*, 139-42, etc.

(٣) Cf. Watt, « Kharijite Thought in the Umayyad Pediod'. *Der Islam*, xxxvi (1961), 215-31.

(٤) Cf. al-Ash'ari's principles of exegresis as described by Michel Allard, *Le Probleme des attributs divins*, Beirut, 1965 412, 415

(٥) Cf. *Revelation and the Modern World*, 274-91, and index.

الفصل الثامن

(١) Revelation and the Modern World, 13.

(٢) Revelation and the Modern World, 288.

(٣) The making of Europe, London, 1932, 107.

(٤) The phrase is frequently used in Revelation and the Modern World e.g. 4.

(٥) CF. *Revelation and the Midern World*, 63 ; also 65, 273.

(٦) *Cf. Revelation and the Modern World*, 298.

الفصل التاسع

(١) Cf. Macquarrie, God-talk, 220.

(٢) The political implications of these doctrines have been mentioned above, pp. 73 f.

(٣) E.g. 12,109 36. 15/14.

(٤) 25.7/8f. cf. 20/2.

(٥) Cf. Revelation and the Modern World, 22 : 'true religion . is the appointed organ of revelation. »

Victor White, God and the Unconscious, London, 1960, 203.

الفصل العاشر

(١) Henri Nusslé, Dialogue avec l'Islam, Neuchâtel, 1949, 147.

(٢) Revelation and the Modern World, 293.,

المؤلف

مونتجمرى وات

ـ مستشرق انجليزى شهير

ـ أعد رسالته للدكتوراه عن القضاء والقدر عند المسلمين فى القرون الهجرية الاولى ·

ـ له مؤلفات مثها : محمد فى مكة ، محمد فى المدينة ، فكرة الكسب (الاكتساب) ·

ـ نشر عديدا من المقالات فى دائرة المعارف الاسلامية ـ (ليدن) ·

المترجم

ـ د· عبد الرحمن عبد الله الشيخ

ـ حاضر فى عدد من الجامعات العربية

ـ من ترجماته ـ رحلة بيرتون لمصر والحجاز ـ ٣ ج ، رحلة ردولف لمصر وفلسطين ٣ ج ، رحلة فارتيما (الحاج يونس) ، رحلة جوزيف بيتس (الحاج يوسف) الى مصر والحجاز ·· الخ ·

ـ من مؤلفاته : حيازة الأرض فى نيجيريا فى القرن ١٩ ، الحركة الثقافية فى غرب أفريقيا ، والأسلحة فى جنوب افريقيا المدخل الى علم التاريخ ·

ـ شارك فى الاشراف العلمى على ترجمة ومراجعة دائرة المعارف الاسلامية ·

الفهـــــــرس

الموضوع | الصفحة

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر


مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٧٦٩ / ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7271 - 5



◆ ◆ ◆ ◆

بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠
قرش

